

مجلة الهند

مجلة فصلية

المجلد: ١ العدد: ١

عدد يناير - مارس ٢٠١٢م

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

مهدي حسن القاسمي

تصدر عن

أكاديمية كيشالاي، بنغال الغربية، الهند

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

أكاديمية كيشالايَا،

بيراتشامبا سقط بادوريا،

كاؤكيارا،

صندوق البريد: ديفالايَا،

مطقة البوليس: ديغانغا،

المحافظة: ٢٤ برغانا الشمالية،

رقم البريد: ٧٤٣٤٢٤، بنغال الغربية

أو

الدكتور أورنك زيب الأعظمي،

أستاذ مشارك، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية،

باشا-بافانا، جامعة فيسفا-باراتي،

المحافظة: باردوان،

شانتينيكيتان، بنغال الغربية

رقم البريد: ٧٣١٢٣٥

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (١)

azebazmi@gmail.com (٢)

mhdihsn1@gmail.com (٣)

الشتراك السنوي:

500 روبية

نشرها وطبعها السيد مهدي حسن نائب مدير مجلة الهند، أكاديمية كيشالايَا،
بيراتشامبا سقط بادوريا، كاؤكيارا، صندوق البريد: ديفالايَا، مطقة البوليس:
ديغانغا، المحافظة: ٢٤ برغانا الشمالية، رقم البريد: ٧٤٣٤٢٤، بنغال الغربية

في هذا العدد

- الافتتاحية
د. أورتك زيب الأعظمي ٧-٥
- مقالات وبحوث:
تفسير تدبر القرآن (مقدمة) الشيخ أمين أحسن الإصلاح ٣٨-٨
ترجمة: د. أورتك زيب الأعظمي
- سلسلة نسب الرسول صلى الله الإمام عبد الحميد الفراهي ٥٦-٣٩
عليه وسلم وبعض المباحث الهامة ترجمة: د. ظفر الإسلام خان
- الاسم د. صالح البلوشي ٦٥-٥٧
- التأثيرات الحضارية بين عمان د. عفاف السيد عبد المجيد ٨٨-٦٦
والهند في النصف الأول من القرن العلي
العشرين - الثقافة والفنون أنموذجاً
- موقف الشيخ وحيد الدين خان من د. أشرف أحمد محمد محمد ١٢٥-٨٩
أركان الإيمان والدعوة إلى الله عماشة
- الغالب والمنتبي شاعران كبيران - أ. د. فيضان الله الفاروقي ١٤٣-١٢٦
دراسة مقارنة ترجمة: د. أورتك زيب الأعظمي
- الطاؤوس طائر هندي جميل الشيخ بدر جمال الإصلاح ١٥٥-١٤٤
- قراءة في كتب:
ترجمات القرآن الإنجليزية، دراسة د. محمد أسجد القاسمي ١٧٨-١٥٦
نقدية وتحليلية الندوي

أخبار وتقارير:

- ١٨٤-١٧٩ ندوة علمية دولية حول سيرة النبي د. أورك زيب الأعظمي
في الآداب العالمية
- ١٨٦-١٨٥ مؤتمر وطني حول سيرة النبي مهدي حسن القاسمي
صلّى الله عليه وسلّم وتعاليمه
- ١٩٣-١٨٧ ندوة علمية دولية حول لغة الحديث د. تاج الدين المناني
وفلسفته ودراساته
- ٢٠٤-١٩٤ أنشطة علمية لقسم اللغة العربية أ. د. محمد نعمان خان
وآدابها بجامعة دلهي خلال الفترة
من ٢٠-٢٢/ مارس ٢٠١٢م

قصص وحكايات:

- ٢٠٧-٢٠٥ إهداء كيس الرزّ للعريس الشيخ محمد عمران
يفضي إلى الشرطي والبوليس الأعظمي
- ٢١٠-٢٠٨ مآذبة الفئران رابيندرا نات طاغور
ترجمة: محمد أحمد بن عبد
الله السنبلي

قصائد ومنظومات:

- ٢١٢-٢١١ حمد الله تعالى فيض الحسن السهارنفوري
- ٢١٢ الاستعاذة بالله تعالى عبد الحميد الفراهي
- ٢١٣ نفحة من نفحات الحرم المكي محمد ناظم الندوي
- ٢١٦-٢١٤ المساهمون في هذا العدد

الافتتاحية

تقليد إصدار المجلات والجرائد العربية في الهند تقليد قديم للغاية فقد صدرت أول مجلة عربية، كما نعلم، في ١٨٧١م باسم "جريدة النفع العظيم لهذا الإقليم" ثم تتابع صدورها حتى تجاوز عددها الثلاثين بما فيها المجلات والجرائد التي توقفت لحين أو آخر. كانت هذه المجلات والجرائد علمية غير سياسية إلا القليل منها مثل "شفاء الصدور" و"الرائد" والحال أنها أيضاً تحاول نشر المقالات العلمية والإسلامية بجانب نشر الأخبار السياسية المتعلقة بالإسلام والمسلمين في الهند وخارجها.

المجلات التي سمّيتها "علمية" تنقسم في أنواع فمنها ما هي تختصّ بالعلوم والفنون والآداب ومنها ما هي تختص بالدعوة وإصلاح الناس ومنها ما هي تختصّ بعلم أو فنّ ما، ومعظمها تنشر كل أنواع المقالات علمية كانت أو دعوية فمثلاً أنّ "ثقافة الهند" تفضّل الآن نشر المقالات عن علوم الهند وفنونها فحسب ولو هي كانت من قبلُ تنشر كل أنواع المقالات العلمية والبحثية و"البعث الإسلامي" تنشر كل أنواع المقالات إلا أنها تفضّل الدعوة الإسلامية فـ"شعارها الوحيد إلى الإسلام من جديد" وذلك لأن مؤسسها محمد الحسني كان داعية كبيراً كما كان أخوه الشيخ أبو الحسن علي الحسني و"الفرقان" مجلة دعوية بحثية إلا أنها تنشر المقالات العلمية في بعض الأحيان وهي الآن توقف صدورها و"التاريخ الإسلامي" كانت تنشر المقالات عن تاريخ الإسلام وما والاها ولكنها توقفت لقلّة الموارد.

عندما نلقي نظرة خاطفة على تلك المجلات فنجد أنّ معظمها لا تنشر المقالات العلمية البحثية فكثيراً ما نرى أنّ هذه المجلات تنشر من المقالات ما لا تبلغ مستوى دولياً من جهة العلم ومن جهة الفن كذلك. وذلك لأنها تصدر عن مؤسسة خاصة لها أهداف ورجال لا يمتّ كلّ منها إلى العلم والفن بصلة. وعلى هذا وذلك أردتُ أنّ أنشر مجلة تفضّل البحوث العلمية والمقالات البحثية كي يعود لمجلات الهند ماضيها الزاهر الذي كانت تنشر فيه مقالات وبحوثاً علمية، هذا وقد

وددت أن أفضل المقالات والبحوث عن الدراسات العربية والإسلامية ومساهمة الهند وأبنائها في العلوم والفنون والآداب على المقالات البحثية الأخرى، وأدعو الله أن يوفقنا لما يرضيه.

المقالة الأولى هي ترجمة تفسير "تدبر قرآن" (بالأردوية) التي ستشر في هذه المجلة بصورة مستمرة فهذه مقدمته ويتبعها تفسير بسم الله الرحمن الرحيم وسورة الفاتحة إن شاء الله، والمقالة الثانية عن نسب الرسول العربي صلى الله عليه وسلم وهي التي قام بكتابتها الإمام عبد الحميد الفراهي باللغة الأردوية. نقلها إلى العربية المترجم القدير الدكتور ظفر الإسلام خان الذي قام بترجمة "الإسلام يتحدث" إلى العربية من الأردوية والمقالة الثالثة حول "الاسم" للدكتور صالح البلوشي الذي نال شهادة الدكتوراه عن تحقيق اسم "الله" فهو متخصص في هذا الموضوع. والمقالة الرابعة حول التأثيرات الحضارية بين عمان والهند للدكتورة عفاف السيد عبد المجيد العلي، قدمت الدكتورة هذه المقالة في الندوة الدولية حول عمان والهند: آفاق و حضارة، المنعقدة في فبراير - مارس ٢٠١١م بمركز الدراسات العمانية، جامعة السلطان قابوس. والمقالة الخامسة عن موقف الشيخ وحيد الدين خان من أركان الإيمان للدكتور أشرف أحمد محمد محمد عماشة الذي قام بالتحقيق حول الموضوع ونال شهادة الدكتوراه والشيخ وحيد الدين خان عالم هندي ومفكر دولي وهو معروف في أرجاء العالم. والمقالة السادسة لأستاذ العلامة فيضان الله الفاروقي وهي دراسة مقارنة بين المتنبي والغالب، والأستاذ الفاروقي متضلع من العربية والفارسية والأردوية كما هو يقول الشعر في كل منها فما قام به الأستاذ من الدراسة جيدة قيمة تجدر بأن يستفيد منها الأدباء والباحثون. نرجو من الأستاذ المحترم أن يواصل هذه الدراسة ويعطي الآخرين الفرصة للاستفادة من سعة اطلاعه على العلوم والفنون والآداب. وأما المقالة السابعة الأخيرة فهي عن الطائر الوطني الهندي "الطاؤوس" للشيخ بدر جمال الإصلاحي، والشيخ الإصلاحي ممن له رغبة شديدة بل حب أعمى للطيور والبهائم والأزهار، استفدنا منه في زمن الدراسة في المدرسة ثم وددنا أن يستفيد منه الآخرون من العلماء والباحثين في مختلف أرجاء العالم. علمه عن هذه الأشياء واسع للغاية. سننشر في العدد التالي مقالته عن الكركدن الوحيد القرن الهندي الكبير. أتبعنا بهذه

المقالات قراءة العلماء والباحثين في الكتب وأخبار وتقارير المؤتمرات والندوات الوطنية والدولية ثم قصص الهنود المكتوبة بالعربية والمترجمة إليها وقصائد ومنظومات أبناء الوطن، وهي أيضاً تراث ثمين وطني نفتخر به. مزجنا مقالات الهنود بمقالات العرب لكي نستفيد من لغتهم ونقدّر درجتنا في العلم والفن والأدب. هذا، وأشكر كلّ من أعانني في إخراج هذا العدد إلى النور لاسيما البروفيسور نیاز أحمد خان والدكتور صالح البلوشي وحبّبي رافعة إكرام فجزاهم الله خيراً.

د. أورك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

المقدمة

حامداً ومصلين! وبعد!

لم أكن أريد أن أقدم لهذا الكتاب من جديد فقد ألفتُ قبل هذا بكثير كتاباً باسم "تدبر قرآن" صدرت له طبعتان أو ثلاث تقريباً. قمتُ بتأليف هذا الكتاب لأجل أن ينوب هو مناباً مقدمة لتفسيره هذا ولذلك فقد أردتُ أن أضعه في بداية هذا التفسير ولكن لما فُكرت فيه عن هذه الجهة شعرت أن في مواضع منه بعض الخلل، لما أنه كتب قبل هذا بكثير، كما في أماكن منه جاء التطويل الممل فإن قمتُ بضمه إلى التفسير كما هو الآن فسيكون هذا ظلماً على هذا الكتاب، وعلى هذا فقد صرفتُ النظر عن أعمال واجبة وقعدتُ لكتابة هذه المقدمة، وبيده التوفيق.

١- هدف هذا التفسير وأسباب فهم القرآن

كنت أهدف من تأليف هذا الكتاب أن أكتب تفسيراً للقرآن الكريم، أمل وأحاول فيه أن أكون بعيداً عن كل نوع من الأغراض الداخلية والنيات وعن كل أنواع العصبية والتحزب فأفهم وأفهم من معنى كل آية ما يبدو منها حقاً ولأجل هذا الهدف وما يتطلبه هو ذاته أوليت طبعاً بالاهتمام بما هو موجود في القرآن ذاته من أسباب فهمه ووسائله مثل لغة القرآن ونظمه ونظائره، وأما الأسباب التي هي خارجة منه مثل الحديث والتاريخ والصحف السماوية الأولى وكتب التفسير----

- فقد جعلتها تابعة للأسباب الداخلية للقرآن ولو أني استندت منها ما أمكن لي. فما ظهر من المعنى من كلمات القرآن ونظمه ونظائره اخترته وأخذت عليه بالنواجز وإن وجدت شيئاً يخالفه فقد فحصته على قدر منزلته وأهميته، فإن كانت له أهمية دينية وعلمية فقد انتقدته وحاولت فهمه وتعيين جهته الحق وإن كان لا يوزن بشيء فقد صرفت النظر عنه فلم أحاول الخوض فيه بدون فائدة ولا عائدة.

٢- الأسباب الداخلية لفهم القرآن

والآن أصرّح بالإيجاز كيفية ومدى ما استندت في هذا التفسير من أسباب القسمين المذكورين أعلاه، ابدأ بالأسباب الداخلية:

١- لغة القرآن:

القرآن لغته لغة عربية، لغة بلغت حدّ الإعجاز في فصاحتها وبلاغتها فلا يقدر أحدٌ لا من الجن ولا من البشر على أن يقدّم كلاماً مثله. وليبد الذي هو آخر أصحاب المعلقات السبع والذي سجد لشعر له كافة شعراء سوق عكاظ في زمنه فعَلقت قصيدته على باب الكعبة تكريماً له على تقليد العرب، ترك قول الشعر بعدما آمن بالله وقال: أ بعد القرآن؟ لما سأله بعض العرب عن هذا وغمره العجب. فهذا الإظهار والاعتراف بالخضوع والاستكانة لإعجاز بلاغة القرآن جاء من قبل شاعر كبير كان، كما مضى، علامة ودليلاً على فصاحة وبلاغة العرب كلها فسجوده للقرآن برهان على أنّ فصاحة العرب وبلاغتهم كلها قد خضعت لفصاحة القرآن وبلاغته وعلى ألا يمكن لأحد أن يقوم ضدّ القرآن ولغته. فإن أراد أحدٌ أن يقدر تأثير كلام هذه الدرجة البيانية وخصائصه ولطائفه فلا يمكن له، كما هو ظاهر، أن يفوز في إرادته عن طريق ترجماته وتفسيره ومعاجمه، بل يجب عليه أن يتذوّق تلك اللغة التي نزل بها هذا الكلام. وتذوّق لغةٍ ما ليس بعمل سهل كما يرى بل يجب عليه أن يمارس تلك اللغة بجانب ميل طبعه ولطف ذوقه فالرجل بعدما ينفق سنوات يمارس فيها اللغة ويجتهد لها، يتمتع من تذوّق تلك اللغة، وإن لم تكن تلك اللغة لغته الأمّ فتتضاعف هذه الصعوبة أضعافاً مضاعفة. وزد على ذلك مشكلة أخرى بالنسبة للغة القرآن بأنها ليست لغة متداولة في أي دولة وبلد في هذا العصر فاللغة العربية التي يتمّ تدريسها والكتابة بها في الدول العربية والبلاد الأجنبية

تختلف اختلافاً شديداً عن تلك اللغة التي نزل بها القرآن طبقاً لأساليبها ولهجاتها، ومفرداتها وتعاييرها، فاللغة العربية التي نقرأها نحن في المدارس الدينية هي من نوع عربية القليوبي و"تفحة اليمن" أو زدها درجة من عربية الحريري والمنتبي. وكذلك العربية التي يتداولها الناس في الجزيرة العربية والشام ومصر يمكن تقديرها من الجرائد والرسائل التي تصدر من تلك البلاد. لا شك أنها لغة عربية ولكنها تختلف عن لغة القرآن اختلافاً لا يخلق في الرجل ذوقاً للغة القرآن فحسب بل يبعده من القرآن ذاته. فاللغة العربية التي نزل بها القرآن لا هي لغة الحريري والمنتبي ولا لغة جرائد ومصر والشام بل تلك اللغة العربية المعيارية التي نجدها عند الشعراء مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ولييد والخطباء الكبار مثل قس بن ساعدة الإيادي فمن يرد أن يقدر إيجاز وإعجاز لغة القرآن يجب عليه أن يتذوق فهم محاسن ومعائب كلام شعراء وأدباء العصر الجاهلي، فلا يستطيع أحد بغيره أن يقدر مدى كون القرآن نموذجاً تاماً لمحاسن اللغة العربية ولا أن يفهم سحره الذي أعجز كافة الفصحاء والبلغاء لأبد الأباد.

ولولا شك في أن قدراً كبيراً من كلام شعراء وخطباء الجاهلية قد ذهب به الدهر ولكنه يبقى حتى الآن من تراثهم ما يكفي الهدف الأصيل. وقد صدر في خمسين سنة الماضية دواوين عديدة لكلامهم المنظوم لم تكن في متناول أيدي القراء كما تتواجد مجموعات لإبداعات الشعراء تشتمل على قدر ضخم من كلام العرب ولو أنها ينضم إليها ما تم نحلته من قبل المتأخرين ولكن من تذوق العربية يسهل له أن يتميز بين الخالص والمنحول. وأما الدرر البهية لخطباء العهد الجاهلي، التي كنا نراجع لها كتب الجاحظ والمبرد وابن دريد وغيرهم فقد تم طبعها على حدة. وبالجملية فيتواجد لمن يسعى لتربية ذوقه قدر كبير من التراث العربي القديم، فالشيء الذي نتفقده هو الرغبة والإرادة والعزيمة عليها.

ولا تظن من هذا التطويل في الحديث أنني أريد التصريح عن أنني أتمتع من هذا الذوق فالهدف الوحيد من كلامي هذا هو الصراحة عن نوع لغة القرآن وعن المعيار المطلوب لتقدير محاسنه الأدبية، فما استطعت بأدائه هو أنني، قبل كتابة هذا التفسير، قد قرأت قراءة جادة ما عثرت عليه يدي من تراث الأدب الجاهلي كله وما نرجو منه فائدة ما في حل أي مشكلة أدبية ونحوية ومعنوية للقرآن الكريم، وأريد

أن أعرب بدون تكلف أن ما قمت به من الخدمة يرجع فضلها إلى أستاذي الفراهي لا إليّ فقد قام شيخنا بقراءة هذا النوع من التراث بأجمعه ووضع العلامات على ما يمكن استخدامه لتفسير القرآن، فما قمت به من العمل هو أنني قد قرأت تلك الأشياء وهضمتها فاستقدت منها في حلّ مشكلات القرآن وتمييز أساليبه وتعبيره وتقدير لطائفه ودقائقه.

وليست فائدة أدبهم في قضية اللغة وأساليبها فقط بل هو يوفر معونة لا ترجى من غيره في فهم معروفهم ومنكرهم، وخصائص حياتهم الاجتماعية، ومعايير الخير والشر في مجتمعهم، ونظرياتهم الاجتماعية والحضارية والسياسية، وفعاليتهم وأشغالهم في حياتهم اليومية، وتقاليدهم وعقائدهم الدينية، وأمثالها من الأمور. ولا بد من معرفتها الحقّة لمن يتنّى الفهم الصحيح لإشارات القرآن وتلميحاته، وتعريضاته وكناياته ثم يريد أن يقوم بتفهمها للآخرين فقد تعرض القرآن لمثل هذه الأمور فقام بتتوير ما كان من خيرها كما كشف الغطاء عن شرها ومن ثم محاه عن المجتمع، فيمرّ القارئ كثيراً لدى تلاوة القرآن بإشارات وكنايات يصعب توضيحها ما لم يقف المرء على بدع وخرافات الجاهلية بجانب الإصلاحات التي قام بها الإسلام. وكان يناسبنا للتصريح عن هذه القضية أن نقدّم بعض الأمثلة ولكنه بما يكثر ذكر مثل هذه الأمثلة في هذا التفسير فقد اكتفينا بالإشارة هنا.

ومن الملاحظ أن المواد التي توجد في كتب التاريخ عندنا عن عرب الجاهلية سطحية ومقتصرة في معلومات عابرة فلا نهتدي منها إلى ما أشرنا إليه من الأمور فما قام المؤرخون عامة من تصوير أولئك العرب هو ليس بصورة لمجتمع بشري بل هو لجماعة الحشرات والوحوش فلا نزع من رؤيته أنه صورة لأمة كانت في زمان من ورثة ملة إبراهيم ودين إسماعيل. ارتكبوا هذا لمجرد أن إعجاز الإسلام لم يمكن بروزه بدونه فظنوا من إعجاز الإسلام أنه أخذ جماعة من الحشرات والوحوش فجعلها حاكمة على العالم كله، ولو أن له جانباً حقاً ولكنه قد صُرف النظر عن جانب آخر وهو هل كان من الإمكان لدى العرب أن يحملوا كتاباً معجزاً مثل القرآن مع أنهم مثل الحشرات والوحوش بل أضلّ منها! وبما أن هذا السؤال قد كان يجول في ذهني منذ البداية فقد صرفت النظر عن كتب التاريخ

وحاولت أن أرى حسن وقبح صورة العرب في ضوء أدبهم الجاهلي فما ازددت علماً بفضل هذه المحاولة استفدت منه في هذا التفسير.

فاتضح من هذا التفصيل أنني لم آخذ قصية اللغة في مفهومها الضيق بل وضعتها في مفهومها الأوسع فالشيء المهم الذي يفيد في فهم القرآن هو الذوق الأعلى للغة وأدبها، التي نزل بها القرآن فمن يحرم هذا الذوق فلا يستطيع بأن يقدر محاسن القرآن بمجرد مراجعة المعاجم. ويسألني الباحثون في أغلب الأحيان عن المعجم الذي يوثق به في حل مشكلات القرآن. يبدو من هذا السؤال أن الناس يظنون أنهم سيفوزون بمفتاح حلّ مشكلات القرآن لو عثروا على معجم كما يشاء والواقع أن هذا الظن باطل تماماً. لا شك أن المعجم شيء مفيد لمن يتذوق اللغة ولكن من لم يولد فيه هذا الذوق فالمعجم شيء لا يعود بأي نفع له فالمعجم الذي استفدت منه كثيراً هو "لسان العرب" وهو لأن ابن منظور في معظم الأحيان يوضح جوانب اللفظ المختلفة عن طريق تتبع استعمالات اللغة وشواهدنا ونظائرها. هذا التتبع مفيد للغاية فـ"لسان" مفيد عندي عن هذه الجهة فقط ولأجل هذا الغرض ينبغي مراجعته، وأما سرده في بعض الأحيان لأقوال أرباب التأويل في كلمة قرآنية فهو لا يعاب به ولكن العامة يظنون تحقيقاً جيداً، وكذلك يولي بعض الناس أهمية كبرى لـ"مفردات القرآن" للأصمعي. لا شك أنه مهم لأنه معجم خاص للقرآن ولكني كلما راجعته لحلّ أي مشكلة لغوية قد غمرني اليأس.

٢ - نظم القرآن:

نظم الكلام جزء لا ينفكّ منه ولا يمكن بدونه خيال كلام بليغ، ولكن من العجيب العجيب أن القرآن الذي يعتبر معجزة بلاغية، وهو حقاً كذلك، كتاب لا يوجد فيه شيء من النظم عند كثرة كاثرة من العلماء، فهم يرون أن السور لا يرتبط بعضها ببعض كما لا مناسبة فيما بين آيات سورة. فقد تم جمع آيات في سور بدون مناسبة ولا نظم. نركب العجب عندما نتفكر كيف رسخ هذا الرأي التافه في أذهان الناس عن كتاب عظيم اتفق المؤيدون والمنكرون على أنه قد أثار ضجة في العالم وغير الأذهان والقلوب وأقام أسساً جديدة للتفكير والعمل ووهب الإنسانية نوراً حديثاً.

وإن لم يوجد في القرآن مناسبة ما فكان خيراً أن يرثب حسب ترتيب النزول فتجمع الآيات في المصحف كما تنزل ولكن كل منا يعرف أن ترتيب المصحف ليس حسب النزول بل عيّنت مواضع خاصة لآيات خاصة طبق إرشادات النبي. ولو كان هكذا فكان خيراً أن يرثب المصحف حسب القدر، أي أن تجمع الآيات سواء بسواء في مختلف السور، ولكن كلنا يشهد أنه ليست هذه الصورة بل توجد السور الصغار كما توجد كبار السور، وهناك سور صغار عديدة سبقت السور التي هي أطول منها. فلو كان كذلك لأصبح هذا التحديد الجديد للسور شيئاً لا حاجة إليه وذلك فإن تحديد الأجزاء كان كافياً لسهولة الحقاظ ولكن كل من له أدنى إلمام بالقرآن يعرف أن تحديد السور وترتيبها مما تم حسب إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم مع أن قسمة الأجزاء مما تأخر عنه كثيراً.

ولأجل تفاهة هذا الرأي الباطل لم تزل توجد فينا جماعة من العلماء، كانت عاكفة على وجود النظم في القرآن كما قام بعض أصحابها الكبار بتأليف الكتب على هذا الموضوع فيقول العلامة السيوطي في "الإتقان في علوم القرآن": "أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر ابن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سمّاه "البرهان في مناسبة ترتيب القرآن" ومن أهل عصرنا الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سمّاه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".¹

كما أشار العلامة إلى كتاب له صرح فيه عن كون القرآن معجزة بجانب وجود النظم فيه، فهو يقول معترفاً بأهمية نظم القرآن بهذه الكلمات: "علم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين، فقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".²

ويقول الإمام الرازي في تفسيره مفسراً الآية "ولو جعلناه قرآناً أعجيباً لقالوا" (حم السجدة):

"من تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما إنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته

¹ الإتقان في علوم القرآن، ٩٧٦/٢

² المصدر نفسه، ٩٧٦/٢

ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر^١.
وهناك شخصية مهمة للغاية من هذه الجماعة وهي العلامة مخدوم المهائمي. يعرف تفسيره "تبصير الرحمن وتيسير المنان" بـ"تفسير مهائمي". حاول فيه العلامة أن يكشف عن نظم القرآن حسب ذوقه. ومن حاملي لواء هذا المذهب عالم يسمى بـ"العلامة ولي الدين الملوي". يقول هو عن نظم القرآن:

"قد وهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفارقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً فالمصحف على وفق معاني اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته فالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية: أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جمٌ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها مما قبلها وسيقت له"^٢.

يتضح من هذا التفصيل أنه لو كانت هناك جماعة لها رأي خاطئ عن نظم القرآن فلم تفقد جماعة منذ البداية، كان لها وجهة نظر صحيحة وهي التي حاولت أن تخدم القرآن حسب وجهتها تلك، ولا تنس أن الذين ينكرون النظم لم يفعلوا هذا لوجود دليل على رأيهم أو كانوا يرون عدم وجود النظم حسناً من محاسن الكلام بل فعلوا هذا لمجرد أنهم لما أحسوا بعدم وجود النظم في القرآن ولم يجدوا له حلاً قاضياً لجئوا إلى أو هن الأركان التي ظفروا بها.

وإن كان لهم خيراً أن يتهموا أنفسهم وقصر همتهم بدلاً من أن يتهموا القرآن ذاته، هذا ومن العدل أنهم لم يفعلوا هذا لأمرين؛ الأول إن البحث عن نظم القرآن أمرٌ لا يمكن لكل منا أن يقف حياته على حمل هذا العبء الثقيل والثاني إن الذين ادعوا بوجود النظم في القرآن لا ننال من عزة خدماتهم ولكن نضطر إلى القول

¹ المصدر نفسه، ٩٧٧/٢

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

بأنهم لم يقدروا على تقديم شيء يكون تحريضاً لمن يريد الخوض في هذا المجال. ومن سبق ذكر أقواله وآرائه من العلماء والمفسرين ووقت الاستفادة من مؤلفات ثلاثة منهم. أقول بدون إرادة النيل من عزتهم إنني لم أجد أي معونة في حلّ أي مشكلة من أي كتاب لهم. فقد طالعت تفاسير المهائمي والرازي لمدة غير قصيرة بل حتى الآن أضع أمامي تفسير الرازي، فالنظم الذي يذكره هؤلاء، لا نتجاوز الحق إذا قلنا، يمكن البحث عنه في أمرين لا علاقة خفيفة بينهما.

فكان مما يحتاج إليه أن يبرز للناس ما يكشف عن نظم القرآن كشفاً يصبح صدق لقلب كل قارئ خالي الذهن، ولكن لم يبد شيء كهذا فقط بل الذي ظهر لهم، كما ذكرنا، خلق اليأس فيهم، الأمر الذي جعل البحث عن نظم القرآن شيئاً لن يمكن حمل عبأه الباهض.

فأول من سُد بالفوز في سعيه في هذه الطريق هو أستاذي عبد الحميد الفراهي فلا شك أنه استدل عليه ببراهين قوية ثابتة كما قام بتفسير سور منه، يبدو من دراسته أن كلّ سورة من القرآن صورة جذابة للنظم الأحسن. وأما رسالته في دلائل نظم القرآن فهي تسمّى بـ"دلائل النظام"، وهي لما تر النور¹ إلا أن بعض أجزاء تفسيره بجانب مقدمته للتفسير قد تم طبعها أصلاً كما طبعت ترجماتها الأردوية فمن له ذهن ثاقب أو وفق العدل في رؤيته إذا درسها لم يقعد بدون الاعتراف بأمرين؛ الأول أن إنكار وجود النظم في القرآن لظلم عظيم عليه والثاني أن أمّ خزائن معارف وحكم القرآن لمدفونة في نظمه ولا غير.

فلو أمهل الشيخ الأجل لتكميل تفسيره حسب أصوله لكان دليلاً لكل من لا يؤمن بهذا ولكنه من حرماننا أنه لم يوفق إلا كتابة بعض أجزاء تفسيره لاسيما السور الطوال التي لم يمهلها الأجل لإتمام تفسير أي منها فيخلق هذا شكاً في أذهان البعض بأنه لم يكد يفوز بالكشف عن نظم السور الطوال كما فاز في بيان مناسبة القصار منها. ولا شك أن مشاكل نظم القرآن التي نمرّ بها ظاهراً في السور الطوال مثل البقرة وآل عمران لا نرى مثلها في القصار منها، لاسيما سورة البقرة فإنها مجموع المشاكل المتعبة الفاترة بها العزيمة. ونظراً لذلك فقد بدأت بسورة الفاتحة

¹ تم طبعه على حدة وفي مجموع "رسائل الإمام الفراهي" من الدائرة الحميدية، أعظم كره

عندما خضت في هذا الوادي أن سيكون هذا عاجلاً لرفع شبهة الناس إن فزت في حلّ مشاكل نظم سورة البقرة وآل عمران فمدى ما تكلل سعبي بالنجاح سيقدره حق تقدير من يدرس هذا التفسير، والشيء الذي أريد ذكره للقارئ هو أنني لم أتكلف بيان النظم في أي موضع من القرآن بل كلما كتبته يطمئن إليه ذهني وخاطري، فإن أمكن شيء فهو لأمرين لا أراني بريئاً منهما؛ الأول أن عقلي قد كبا في موضع فلم أفهم الفحوى والثاني أن قلّمي قد قصر عن الكشف عن قضية فبقي الحديث غير تام.

سؤالان والرد عليهما:

ومن لا يعرف درجة النظم خير معرفة يطرحون سؤالين خلال حديثهم عن هذه القضية؛ الأول إذا كان النظم موجوداً في القرآن فهو بمنزلة النكات واللطائف فلا يقتصر فيه فهم القرآن أو عدم فهمه فلا حاجة إلى هذا القدر من التوكيد الشديد فيه، والثاني وإن كان النظم في القرآن فلم نجده مختفياً إلى حدّ لم يظفر بالبحث عنه إلا عددٌ غير كثير وذلك بعد تقديم جهود مضنية لسنوات وإجهاد الذهن لأمد بعيد. فنودّ أن نردّ فيما يلي على السؤالين المذكورين أعلاه بصورة موجزة :

درجة النظم:

هذا الرأي عن النظم باطل تماماً، بأنه شيء يشبه اللطائف العلمية ولا يوزن قدراً بالنسبة إلى هدف القرآن الأصيل فدرجته الأولى عندنا هي أن لا يمكن الوصول إلى علوم القرآن وحكمه إلا بواسطته فمن يدرس القرآن بدون هداية النظم لا ينال إلا بعض الأحكام المبعثرة والإرشادات المبتوتة.

ولو أن لبعض الأحكام المبعثرة لكتاب عظيم وإرشاداته المبتوتة درجة عليا ولكن هناك بون شاسع بين أن تتال أثاراً وخواصّ لعفاير من كتاب طبي للمفردات وأن يرتب طبيبٌ حاذق وصفاً مفيدة للغاية من تلك الأجزاء. فالمصلحات التي تم استخدامها لبناء التاج محل يمكن أن يتم استخدامها لبناء المباني العديدة للعالم ولكنه مع ذلك فيبقى التاج وحيداً في العالم. إنني أقول بدون أي تشبيه إن الكلمات والفقرات التي ركب بها القرآن تتعلق، بدون شك، باللغة العربية وتوجد في المعاجم

العربية ولكن الترتيب الإلهي للقرآن قد أعطاها من الجمال والكمال ما لا يضاهي به أي شيء من هذه الدنيا.

المحاسن والمساوئ لها شجرة النسب كما للعشائر والأسر شجرات النسب ففي بعض الأحيان نعتبر حسنة حسنة عادية مع أن تلك الحسنة تتعلق بشجرة نسب المحاسن التي تفرّعت منها فروع كافة المحاسن الكبرى وكذلك نعتبر سيئة سيئة تافهة مع أنها تنتمي إلى شجرة نسب المساوئ التي تلد كافة المساوئ الخلقية القاتلة. ومن يريد فهم حكمة الدين يجب عليه أن يكون خير عارف بهذه المنازل والمراحل للخير والشر وإلا فيمكن أن يظنّ المرض العارض على الدقّ مقدّمة للزكام كما يعتبر عرض الزكام رائد الدقّ. لا تتضح هذه الحكمة القرآنية من أجزاء الكلام بل من نظم الكلام بأسره. فإن كان رجل عارفاً بآيات منفردة لسورة ولكن لم يكن عارفاً بما فيها من المناسبة الحكيمة فلن يقف على الحكمة التي تختفي فيما بينها.

وهكذا فقد استدللّ القرآن في سورة المختلفة بدلائل الآفاق والأنفس والتاريخ على الأمور الجوهرية الشتى، جاءت هذه الدلائل بترتيب حكيم للغاية، فمن يتضح له هذا الترتيب إذا تلا تلك السورة متدبراً فيها شعر بأنه قد قرأ خطبة جامعة مبرهنة شارحة للصدر على الموضوع المذكور وبالعكس من ذلك فمن لا يعرف هذا الترتيب يحرم تلك الحكمة التي جاء ذكرها في هذه السورة ولو أنه وقف قليلاً على أجزائها.

هذا هو الجانب العلمي والنظري لتلك القضية، وأما جانبها السياسي والاجتماعي فهو أيضاً مهمٌ للغاية.

كلنا يعرف أن جُمِعَتْ شمل هذه الملة الإسلامية من حبل الله المتين الذي هو القرآن المجيد وقد أرشد كل مسلم إلى أن يستمسكوا به جيداً ولا يتفرقوا. وهذا من متطلبات هذا الإرشاد البديهي أن كل اختلاف ينشأ فيما بيننا نرجع إلى القرآن لقطع دابره ولكن من سوء حظنا أننا لا نتفق آراءنا عن القرآن فهناك أقوال وآراء لا تحصى في تأويل آية آية منه بل في معظم الأحيان نجد القول الأول يناقض الآخر فلا نجد ما يفصل بينها أيها حق وأيها باطل. وإن وقع خلاف في تأويل كلام فالشيء الأكثر اطمئناناً إليه هو سياقه وسباقه وبعبارة أخرى نظامه، وأما في شأن القرآن فهم لا يقولون بنظام في داخله، الأمر الذي أنتج شدة الاختلاف والعكوف

عليها فقد وقع خلاف كثير في الفقه الإسلامي لمجرد الغفلة عن سياق الحديث ونظمه فإن نعتن بالسياق والنظم ففي غالب المواضع لا نجد فسحة لقول آخر. والشيء الأخطر من الاختلافات الفقهية هو قضية ضلال الفرق الباطلة فما نشأ من الفرق الضالة فينا لجأ معظمها إلى الآيات القرآنية. فقطعت آية من سياقها وسبقها ثم أولتها كما شاءت ومن البديهي أنك إذا قطعت آية من سياقها وسبقها فلك أن تأولها تأويلات تحبها بينما بعضها لا يمكن خيالها لدى قائلها. ولولا مخافة التطويل لذكرت كثيراً من الآيات يتم استخدامها لمعان باطلة مضلة في الخطب والكتابات ومع ذلك لا يجد أحدُ الفرصة للرجوع إلى موقعها ومحلها وسبقها وسبقها. ففي قضية القرآن، كما ذكرت، لا يولون بالنظم وموقع الآية أي أهمية. وبما أنني أوليت من الأهمية ما كان النظم يقتضيه فقد اخترت قولاً واحداً لا غير بل وإن أذكر الحقيقة بكلماتها المناسبة أي قد اضطررت إلى خيار قول واحد فحسب فإن عناية النظم تبعد القارئ من الهيمان في مختلف الأودية وتقطع له كافة الطرق المضلة. فيظهر الحق ويتجلى بحيث لو لم يكن الرجل متعصباً أعمى وأصمّ لأمكن أن يضحي نفسه ولا يصبر على العدول.

إشكال النظم:

الآن تعال نتفكر في هذا السؤال: إذا كان النظم مهماً إلى هذا الحد في فهم القرآن فلم أخفي إلى حد لم ينجح حتى الإمام الرازي في الكشف عنه كشفاً تاماً. للإجابة على هذا السؤال أوجه كما يلي:

أولاً: إن إشكال القرآن هذا ليس بإشكاله ذاته بل هو إشكالنا أنفسنا فالذين خاطبهم القرآن بادئ ذي بدء لم يشكل عليهم نظمهم شيئاً فكانت اللغة لغتهم، وكان الجوَّ جوَّهم، وكانت الظروف والقضايا والاعتراضات والأسئلة كلها لهم ومن قبلهم. والأحزاب التي خاطبها القرآن كانت حاضرة لهم والنظريات والعقائد التي امتلكوها كانت معلومة لهم ومعروفة عليهم فلم يشكل عليهم فهم ألطف إشارات القرآن وأخفى كنياته فقد وصلت أذهانهم إلى أصحاب ومواقع كل إشارة وكناية حينما نزلت الآية بينهم وفهموا ما احتوى عليه الكلام من المعنى والتلميح، وعلى الأقل لم يشكل فهمها على من كان له علاقة مباشرة بكافة الظروف وكانوا قد رزقوا حدةً في

الذهن وذكاءً في العقل. ومن البديهي أننا نختلف نحن وظروفنا عما كان في ذلك العصر فاللغة ليست لغتنا كما ليست الظروف ظروفنا وأما العصر فهناك فرق للقرن بيننا وبينهم ففي هذه الحالة فطرياً ما نمرّ به من المشاكل في فهم القرآن. وصرفاً عن الإرشادات والتعاليم العملية والخلقية الضرورية فمن يريد أن يفهم لطائف المناسبة والنظام وسلسلة الكلام المنطقية وأسرارها وحفائقها يجب عليه أن يطرد منه أعجمية اللغة بل أن يرتفع ذهنًا وفكرًا فيغلب على الشقة الزمانية التي تحول بينه وبين نزول القرآن، ولا يمكن هذا إلا بعد جهاد علمي وفكري كبير.

وثانياً: إن هناك فرقاً بعيداً بين أجزاء شيء وتركيبه فعلم الأجزاء سهل للغاية ولكن علم التركيب يتطلب جهداً جهيداً فإن علم النظم لهو علم التركيب فهو لا يعرفك مناسبة آية من أخرى بل هو يوضح هدفها الأصيل وهو ارتباط أجزاء الدين والأخلاق فيما بينها فالبديهي إن هذا الهدف هدف علمي عالٍ للغاية فهذا الذي نسميه بـ"الحكمة". فالحكمة خزينة خفية يتطلب نيلها جهداً جهيداً فإن أراد أحد أن يعرف الأحكام التي ذكرها القرآن للحياة العملية فلا يطلب منه جهد جهيد ولكن إذا أراد أحد أن يعرف حكمة الدين فعليه أن يعتكف على القرآن وأن يضحّي حياته الثمينة الكاملة.

وثالثاً: وأن للغة العربية (اللغة التي نزل بها القرآن) خصائص وميزات تمتاز بها ففي اللغة العربية الفصحى يقتصر القائل لأداء ما في ضميرها، في الكلمات إلى حد لا مناص منها فإن تجاوز أحد ذلك الحد فهذا عيب للكلام، يعتبر دليلاً على عجز القائل وبما أن العرب كانوا على شدة في الذهن فكانوا يحذفون من أجزاء الكلام ما كان فهمه سهلاً للسامع الذكي أو ما ينبغي له فهمه فنرى لدى دراسة أدب عهد نزول القرآن ودراسة القرآن ذاته أصولاً عديدة لمثل هذا الحذف، جمعها أستاذي الإمام عبد الحميد الفراهي بأسلوب فني في كتابه "أساليب القرآن" وحصر كافة تلك الأساليب صعب للغاية هنا فأشير إلى واحدٍ منها يمكن به تقدير أهميتها وهو أن بيننا وبين العرب فرقاً واضحاً وهو أننا إذا قلنا شيئاً كدليل على شيء سالف أو مثال له أو نتيجة منه أو تكملة له أو استدراك عليه أو من جانب آخر مثل هذه فنقوم نذكر الرابط بينهما ولأداء هذا عندنا كلمات وأساليب لا نتقدم شيئاً بدون اللجوء إليها وأما العرب فهم مختلفون عنا في هذا اختلافاً واضحاً. ففي

مثل هذه المواقع يعتمدون على ذكاء السامع حاذفين الرابط أن يملأه ذهن السامع ذاته وهم يرون هذا الحذف أو الإيجاز حسناً للكلام وبلاغته ولكن هذا الذي يخلق لنا مشاكل في نظمه فنفهم كل حديث على حدة لأجل غفلتنا عن حلقات الكلام الخفية.

ورابعاً: أن القرآن كتاب الله وهو حافل بعلم الأولين والآخرين فهو يخلد لقيام القيامة ويهدي الناس ولا تنقضي عجائبه، هو يهدي الناس إلى يوم القيامة كما هو هدى العالم بكل صلاحية الهدى والإرشاد قبل اليوم بأربعة عشرة عاماً فتأتي الأقوام بعد أقوام وينال من هداه كل من يرجع إليه حسب ذوقه وصلاحيته ولكن بعد هذه كلها لا تنفذ خزينته للعلم والحكمة فلا يستطيعون حتى قيام يوم القيامة من خزينة علمه إلا بما تأخذ الإبرة من ماء البحر فكل هذه الخزائن العلمية قد ودعها منزل هذا الكتاب في كلماته ونظامه فهو ليس ككتاب سطحي تقدر على نيل ما فيه بعدما تقراه مرتين أو ثلاث بل هو كمعدن تبرز خزينته كلما تحفره ولذلك فلم يؤمر بقراءته مرة أو مرتين بل تم التوكيد على تلاوته مراراً وفي صور مختلفة وكميات شتى كما أمر بالتدبر والتفكر فيه.

نظام القرآن بأجمعه:

وما ذكرناه من قبل يتعلق بنظم داخلي لكل سورة وذلك فإن كل سورة وحدة مستقلة بها، فلها موضوع مستقل نسميه بـ"العمود" وتتعلق كافة أجزاء كلامها بذلك العمود علاقة وطيدة، والآن أودّ أن أقول إن في القرآن بأسره نظاماً خاصاً يظهر جانب منه على كل فرد ظهوراً تاماً كما له جانب يظهر بعد تدبر طويل فأريد أن ألقى الضوء الموجز على كلا الجانبين فما هو الجانب الظاهر منه.

الجانب الظاهري لنظام القرآن بأجمعه: إن تلق نظرة خاطفة على ترتيب السور الذي يوجد في المصحف ترّ شيئا واضحاً فيه وهو أن القرآن قد اختلطت سورته المكية والمدنية و تحزبت في سبع أحزاب التي يبدأ كل حزب منها بواحدة أو أكثر من السور المكية وتنتهي على واحدة أو أكثر من السور المدنية وفي كلّ منها تنصدر السور المكية فتتبعها السور المدنية.

فالحزب الأول يبتدئ بسورة الفاتحة وينتهي على سورة المائدة فالفاتحة فيه مكية وما تتلوها من السور مدنية.

والحزب الثاني يبتدئ بالسورتين المكييتين؛ الأنعام والأعراف وينتهي على السورتين المدنييتين؛ الأنفال والتوبة.

والحزب الثاني يبتدئ بأربع عشرة سورة مكية وهي من يونس حتى المؤمنون وينتهي على سورة النور وهي مدنية، وقد عدّ بعض الناس سورتي الرعد والحج من هذا الحزب مدنييتين ولكنه رأي خاطئ وسنبحث عن هذه القضية في تفسيرهما.

والحزب الرابع يبتدئ بسورة الفرقان وينتهي على سورة الأحزاب فنشأ سور منه مكية وأما سورة الأحزاب فهي مدنية.

والحزب الخامس يبتدئ بسورة سبأ وينتهي على سورة الحجرات فثلاث عشرة سورة أولى منه مكية وأما ثلاث سور نهائية منه فهي مدنية.

والحزب السادس يبتدئ بسورة ق وينتهي على سورة التحريم فسوره الثماني الأولى مكية وأما سوره العشر الأخرى فهي مدنية، وقد عدّ بعض الناس سورة الرحمان، وهي من هذا الحزب، مدنية ولكنه سنفند هذا الرأي في تفسير هذه السورة.

وأما الحزب السابع فهو يبتدئ بسورة الملك وينتهي على سورة الناس فترتيب السور المكية والمدنية في هذا الحزب يوجد كما رأينا في غيره من الأحزاب، وبما أن هناك خلافاً في سورة الدهر وبعض السور النهائية فسنبحث عنها في تفسير تلك السور.

هذا الترتيب للسور، كما يعرف كلُّ منا، ليس اتفاقياً بل هو توقيفي فهذا هو الترتيب الذي يبقى عليه القرآن في اللوح المحفوظ، وعليه تم عرض القرآن في شهر رمضان، كما جاء في الأحاديث، بين محمد صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام، وطبق هذا الترتيب قد تلا الصحابة القرآن على المؤمنين، وعلى هذا أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه بنقل القرآن ثم أرسله في الدول الإسلامية. وعلى هذا فلا يخلو هذا الترتيب من حكمة بالغة.

الجانب الخفي لنظام القرآن بأجمعه: إن تتل الأحزاب السبعة المذكورة أعلاه مراراً بتدبر وتفكر تبد لك حكّم عديدة في هذا الترتيب، نشير إلى طرف منها فيما يلي:

١- كما أن لكل سورة عموداً ترتبط به كافة أجزاء كلامها فكذا لكل حزب عموداً جامعاً تشتمل كافة سورته على جانب خاص له، ولو أن المحتويات تتشابه في كل حزب ولكن مع هذا التشابه يوجد طابع خاص لذلك العمود الشامل على كل حزب، وبما أنه ليس هنا موقع مناسب للبحث عن عمود كل حزب على حدة، وهو مذكور في مدخل كل حزب في تفسيره فلا ننس، كمثال، أنه في حزب يغلب عليه طابع القانون والشرعية كما يغلب على آخر تاريخ ملة إبراهيم وأصولها وفروعها، وفي ثالث يبرز النزاع بين الحق والباطل وذكر السنن الإلهية فيه، وفي رابع يتجلى طابع النبوة والرسالة وخصائصهما وميزاتهم، وفي خامس يبدو التوحيد وما يلزمه ويفتضيه، وفي سادس ترى البعث بعد الموت وحشرهم يوم القيامة وما يتعلق بهما. وأما الحزب الأخير فهو يختصّ بالسور المنذرة مشتملاً على معظم السور المكية التي تتميز بالتنبيه والإيقاظ، والتي أثارت ضجة في العرب كلها.

٢- وما يأتي ذكره من السور المدنية في كل حزب تتوافق وطبيعة حزبها العامة فهي تتعلق بسور حزبها المكية علاقة فروع شجرة مع أصلها.

٣- ولكل سورة صاحبها أي لكل سورة زوجها وثانيتهما، وتوجد فيها مناسبة كمناسبة الزوج بزوجتها أي تملأ الأولى ما يوجد في الأخرى من الفراغ فتجلى الأولى ما يخفى في الأخرى وهكذا فترتبط إحداها بالأخرى وتبدو مثل الشمس والقمر. وافهم هذا بسورتي البقرة وآل عمران من الطوال وبسورتي المعوذتين من القصار فهذا النظام الموجود في القرآن مثل النظام الفطري الموجود في الكون ولكل شيء زوجه في هذا الكون، ولا ننس هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عادةً كان يعتني بهذا الترتيب في تلاوة القرآن في الصلوات فكان يتلو سورتي القيامة والدر، وسورتي الصف والجمعة، وسورتي الأعلى والغاشية معاً في الصلوات.

٤- ونستثني منها سورة الفاتحة فإنها بمنزلة المقدمة للقرآن بأسره فقد أوضحنا في تفسيرها أنها قد جمعت ما يحتويه القرآن من الحقائق الجوهرية وهي كذلك مقدمة لحزبها كما هي مقدمة للقرآن كله، ولأجل ذلك سميت بـ"الكافية"،

الاسم الذي يشير إلى أنها تستقل بذاتها فهي لا تحتاج إلى أن تلتحقها سورة أخرى لإتمامها.

٥- وهناك سور تضمن هذه السور أي أنها لا تأتي كزوج لسورة بل نزلت لتوضّح جانباً لما سبقها من السورة، ومن نوع هذه السور "الحجرات" التي توضح آية من السورة التي تسبقها، سنشير إليه في تفسيرها.

٦- وإن تدبر كل حزب على حدة ترّ أنه تظهر في كل حزب كافة أدوار الدعوة الإسلامية، من بدئها إلى نهايتها، إلا أن جانب الظهور مختلف في كل منها كما هناك خلاف بالنسبة للإيجاز والتفصيل.

٧- وكذلك يبدو أن حزب القانون والشرعية يتصدر لكافة الأحزاب الأخرى في هذا الترتيب كما وضع حزب السور المنذرة في النهاية، وهذا يشير إلى أن الإنذار يهدف إلى لفت الناس إلى الطريق الحق عن الطريق الباطل وأن الطريق الحق هو طريق الشريعة فالذي هو الهدف والغرض الأصيل يجدر بأن يلتفت إليه بادئ ذي بدء فالثروة التي تم وهبها للأمة باعتبارها أمة مسلمة هي الشريعة التي تم نقلها من أهل الكتاب إلى هذه الأمة وذلك فقد ذكر عزل أهل الكتاب في الحزب الأول كما جاءت التفاصيل عن الشريعة الإسلامية. تدبر هذا الترتيب ترّ أن النسبة بين الحزب الأول للقرآن والحزب الثاني له هي التي تكون بين المبنى وأصله، وأما البناء فيسبّقه الأصل ولكن الذي يبدو للعيان بعد إتمام بناء المبنى هو المبنى فالأصل يكون في الخفاء.

وإذا بدا لي هذه الأحزاب السبعة للقرآن وظهر لي كون سورة منها زوجاً لسابقتها فيبادر إلى ذهني قوله تعالى: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم" (سورة الحجر: ٨٧) وبما أن هناك أموراً تحتاج إلى النقاش حول هذه الآية فسنبحث عنها بالتفصيل في تفسيرها وهو أجدد موقع به.

٣- تفسير القرآن بالقرآن:

والشيء الثالث الذي وضعته بمنزلة الأصول في هذا التفسير هو أن نفسّر القرآن بالقرآن نفسه فقد عرّف القرآن نفسه بقوله "كتاباً متشابهاً" فقال تعالى:

"الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني". (سورة الزمر: ٢٣)

وكذا أوضح القرآن كثيراً أن الله ذكر حكمه وآياته في صور مختلفة وأساليب

متعددة واستعمل لهذا التعبير كلمة "تصريف" التي تعني تحريك الشيء بطرق عديدة فإن قمت بتلاوة القرآن تشعر أن محتوًى يأتي مراراً في مختلف السور، فتخيّل طالبٌ حين النظر إليه أن هناك تكراراً لشيء واحد ولكن من رزق التفكير في القرآن يعرف أن القرآن لخالٍ من التكرار المخلّ فما يتمّ تكراره في القرآن لا يأتي بنفس السياق والسباق ولا بنفس المحتويات والمشتملات بل تتعدّد جوانبه وروابطه في كلّ مكان فتتبدّل الروابط بتبدّل المواقع والمواضع ففي مكان يتضح ما يختفي في مكان آخر من جانب وفي مكان يتعيّن جانب الشيء الأصلي الذي لا يكاد يتضح في مكان آخر بل قد جربت شخصياً منذ مدة بعيدة أن كلمة تكون غير واضحة في آية تتجلى واضحة في آية أخرى وكذلك لا نقدر على فهم دليل على حديث في مكان، نفهمه بوضوح في مكان آخر.

فالبديهي أن هذا الأسلوب القرآني تم استخدامه لكي يرسخ كل حديث للقرآن في ذهن الطالب فأقول، في التحديث بالنعمة، أنه لم يتضح لي مشاكل القرآن من الأسباب الأخرى كما اتضحت هي لي من القرآن ذاته، فتكرار القرآن لمحتوياته بمختلف الأساليب والطرق يسهل لمن له عقل سليم فهمها وأخذ معناها. وسيشعر قراء هذا التفسير أنني لم اقتصر في شواهد القرآن ونظائره في الكشف عن نظم الآيات وتعيين مرادها الصحيح فحسب بل استفدت من القرآن وحده في حل مشاكل كلمات وأساليب القرآن، ليس هذا لأنني لم أقدر على ذكر الشواهد من المعاجم وكتب النحو وما شابهها بل لأن القرآن لهو خير مرجع ومصدر لحل مشاكله الأدبية والنحوية كما هو مصدر مهمّ للوصول إلى معانيه وحقائقه وقد اعترف بهذا الواقع السلف من علمائنا.

٣ - الأسباب الخارجية لفهم القرآن

من أسباب فهم القرآن الخارجية التي استفدت منها في هذا التفسير من أي جهة ما هي مذكورة بالإيجاز فيما يلي:

١ - السنة المتواترة والمشهورة:

وما يتعلق بمصطلحات القرآن مثل الصلاة والصوم والحج والعمرة

والأضحية والمسجد الحرام والصفاء والمروة والسعي والطواف وغيرها قد فسررتها
مائة بالمائة في ضوء السنة المتواترة وذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لهو
يستحق بأن يذكر مفهوم القرآن ومصطلحاته فكان معلّمه ومبيّنه كما كان من نزل
عليه وكان هذا التبیین والتعيين جزءاً من واجبه للرسالة، والآن يبقى سؤال عن أن
مصطلحاً فلاناً قد بيّنه النبي هو ذاته فكما يتعلق بالمصطلحات الدينية المعلومة لا
يخلج هذا السؤال في قلوبنا وذلك فإن المفهوم الحق لمثل هذه المصطلحات كلها قد
تم حفظها بصفة عملية في السنة المتواترة التي تثبت بالوسائل القطعية التي يثبت
بها القرآن نفسه فقد وصل إلينا المفهوم القطعي لكافة المصطلحات الدينية بنفس
التواتر الذي نقل به القرآن إلينا. وإذا كان هناك فرق فهو أن الأول تم نقله إلينا
بالتواتر القولي والثاني بالتواتر العملي. فإن وجب علينا الإيمان بالقرآن فقد وجب
علينا الإيمان بالصور العملية لكافة المصطلحات التي تم نقلها إلينا من السلف إلى
الخلف، وإن يوجد في صورتها اختلاف طفيف فلا أهمية لذلك للاختلاف في الدين،
فكلنا يعرف ويؤمن بالصلوات الخمس المكتوبة بنفس القطعية التي يعرفون
ويؤمنون بها بالقرآن الكريم وإن جاء فرق في بعض أجزائها فلا يعنى بهذا الفرق
الخفيف وليختر كل منا ما اطمئن إليه قلبه في ضوء الدلائل والبراهين.

وأما جراءة المنكرين بالأحاديث بأنهم يريدون بيان مفاهيم الصوم والصلاة
والحج والزكاة والعمرة والأضحية من عند ذاتهم ويهون إجراء التعديل في
صورها التي وصلت إلينا بتواتر الأمة، فهو عين الإنكار بالقرآن فإن التواتر الذي
نقل به القرآن إلينا نقلت به إلينا صوراً تلك المصطلحات العملية فإن لم يؤمنوا بها
فلا يبقى لهم دليل على الإيمان بالقرآن، وكذلك فيها الاعتماد على مجرد المعاجم
شيء خاطئ فلو كان ذكر مفهوم للصوم والصلاة في المعاجم ولكنه لا يوثق من
مفاهيمها في الدين إلا ما فصلها النبي صلى الله عليه وسلم. يقول الإمام الفراهي
عن هذه المصطلحات الدينية في الفاتحة لتفسيره:

"وكذلك حفظ الاصطلاحات الشرعية كالصلاة والزكاة والجهاد والصوم
والحج والمسجد الحرام والصفاء والمروة ومناسك الحج وأمثالها ما يتعلق بها من
الأعمال المتواترة المتوارثة الماثورة من السلف إلى الخلف والاختلاف اليسير فيها
لا اعتبار له، ألا ترى أن اسم الأسد مثلاً معلوم معناه مع اختلاف يسير في صورة

الأسود من بلاد مختلفة فالصلاة المطلوبة منا مثلاً هي صلاة المسلمين ولو اختلفت هيئاتها اختلافاً خفيفاً ومن يلتمس التدقيق فيها فقد جهل مكان الدين القويم الإلهي الذي علمه القرآن----- فإذا نظرت إلى ألفاظ مصطلحة في الشرع ولا تجد حدّها وتصويرها في القرآن فلا تجمد على أخبار الآحاد فتسقط في الريب وتحكم على عمل أخيك بالبطلان وتشاققه ولا حكم بينكما بل اقنع بالقدر الذي اجتمعت عليه الأمة ولا تؤاخذ إخوانك فيما ليس فيه نص صريح ولا عمل مأثور من غير خلاف فهذا هو السبيل الواسع والمعنى الواضح من القرآن في اصطلاحاته الشرعية^١.

فنفس المذهب الذي ذكره الفراهي أراه صحيحاً واخترته فيما يتعلق بالمصطلحات الدينية كلها إلا أنني حاولت أن اكشف الغطاء عن أسرارها ومصالحها مستمداً من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

٢- الأحاديث وآثار الصحابة:

الأحاديث والآثار أشرف وأظهر من المآخذ الظنية للتفسير ولو كنا نطمئن إلى صحتها لكان لها من الأهمية في تفسير القرآن ما أشرنا إليها في شأن السنة المتواترة ولكنه بما ليس بإمكاننا أن نطمئن إليها كما فعلنا بشأن السنة المتواترة فنستفيد منها قدر ما توافق تلك الأصول القطعية التي ذكرت من قبل، ومن يولي إلى الأحاديث من الأهمية ما تجعلها حاكمة على القرآن لا يعرفون ما هي درجة القرآن وما هي المنزلة للأحاديث بالعكس ممن لا يحتجون بها فهم يحرمون أنفسهم النور الذي هو الأعلى درجة بعد القرآن. إنني أرى الأحاديث مما تم استنباطه من القرآن فلم استفد من الأحاديث التي وردت مصرحة عن علاقتها بالقرآن فحسب بل استفدت ما أمكن لي من تراث الأحاديث كله، لاسيما ما استفدت منها في قضايا حكم القرآن لم أجده لدى غيرها من المآخذ. وإن وجدت حديثاً يضادّ للقرآن توقفت عليه لمدة وتركته حينما انكشف لي أن الإيمان بذلك الحديث إما يلزم مخالفة القرآن أو يهدم أصلاً من أصول الدين، وأما الأحاديث الصحاح فلم أجدها تخالف القرآن إلا قليلاً حيث فضّلت القرآن عليها مبيّناً الأسباب التي كانت وراء تفضيلي لموقف القرآن.

^١ فاتحة نظام القرآن وتأويل القرآن بالقرآن، ص ١٢

٣- أسباب النزول:

ومذهبي عن أسباب النزول والذي سلكته في هذا التفسير أريد أن أبيته بكلمات أستاذي الفراهي فهو يقول في فاتحة تفسيره:

"ليس شأن النزول كما قيل تسامحاً سبباً لنزول آية أو سورة بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة فلك أن تلتبس شأن النزول من نفس السورة فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه كما أن الطبيب مثلاً يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كتبت له تلك النسخة فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتتناسب اللباس والجسم بل كتتناسب الجلود والأبدان والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجوداً حين نزول السورة لكي يعلم أن الآيات كانت لها دواع ومواقع. قال السيوطي قال الزركشي في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع" قلت والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه" انتهى قول السيوطي. وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا" حيث قال: ولي ههنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه" فإن الأمر عندي كما علمت أن الله تعالى حين أنزل سورة ما كان إلا لبيّن الأمور التي اقتضت التبيان بكلام لم يلتبس نظامه كما يفعل الخطيب الحكيم فإنه ينزل كلامه ويسوقه على حسب دواعي خاصة بين يديه فكثيراً ما لا يذكر أمراً خاصاً ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات وقليلاً ما يسمي أمراً خاصاً أو شخصاً خاصاً فيأتي بكلام على سابغ كغيث مطبق وكان نزول القرآن هكذا.

فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن فيهم عليك الأمر ويغادرك في متفرق السبل لا تدري أيها تسلك

بل تجسس شأن النزول من القرآن ثم خذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبذّر نظامه¹.

نفس المذهب قد اتبعته في أمر أسباب النزول فقد أوليت بالاهتمام إلى تفسير الآيات التي جاء فيها صراحة عن حادث أو تلميح منه بالاحتراز عن التفاصيل غير الضرورية التي لا يؤيدها كلمات القرآن أو إشاراته.

٤- كتب التفسير:

من كتب التفسير التي استفدت منها في أغلب الأحيان ثلاثة؛ تفسير ابن جرير وتفسير الرازي وتفسير الزمخشري فتفسير ابن جرير مجموع لأقوال السلف كما أن تفسير الرازي يحوي ما ناقشه المتكلمون وما أدلوا به وأما تفسير الزمخشري فهو يتحدث عن قضايا النحو والإعراب، ولو أنني لم أزل أدرسها منذ بدأت بالدراسة والتفكير ولكني نظرت فيها بالاختصاص عندما بدأت تأليف هذا التفسير. وأما كتب التفسير الأخرى فقد راجعتها حينما اتفق أن أشكل عليّ أمرٌ صعبٌ احتجت فيه إلى أن أبحث عن كل جانب يمكن فيه الهداية لي. وكذلك لم استفد من هذه التفاسير بحيث أنني كتبت شيئاً بمجرد الاقتصار فيها بل اخترت منها ما صدق لتلك الأصول التي ذكرتها في السابق. ومسلكي في التفسير، كما ذكرته في السابق، أنني أفكر في كل سورة وآية في ضوء كلماتها، وسياقها وسبقها، ومناسبتها ونظمها، وشواهدا من القرآن الكريم فما أفهمه من هذه كلها أنظر عنه في التفاسير فإن أيدت هي ما وصلت إليه اطمئنّ إليه اطمئناناً وإن لم تؤيده أو اصل التفكير فيه حتى يتضح خطأي بالدلائل أو يظهر لي أسبابٌ ووجوهٌ ضعف ما ذهب إليه هذه التفاسير. وهذا هو الطريق الصحيح عندي للاستفادة من التفاسير، ولذلك فلا تجد في هذا الكتاب تردد الذكر للتفاسير فلم أذكرها إلا حيث احتاجت خطورة القضية إليها أو شعرت بضرورة وأهمية الاستدلال بها، نظراً لاطمئنان القارئ. وأما المواضع الخطرة التي لم أقدر على الاستدلال بأي مصدر يوثق به ذكرت فيها من الدلائل على موقفي ما سيكفي لخلق الاطمئنان في قلب القارئ.

¹ فاتحة نظام القرآن وتأويل القرآن بالقرآن، ص ٨-٩

٥- الكتب السماوية الأخرى:

قد أكثر القرآن الإشارة إلى الكتب السماوية الأخرى مثل التوراة والزبور والإنجيل كما ذكر في غير موضع منه سير أنبياء بني إسرائيل وجاء الردّ على ما قام به اليهود والنصارى من تحريف الكلم عن مواضعه والنقد على ما ذكروه من التاريخ فلم يقتصر في مثل هذه المواضع في الروايات التي تم ذكرها في كتب التفاسير المتداولة. وبما أن هذه الروايات تشتمل في الغالب على الأقوال التي سمعوها عن أسلافهم فلا كانت حجة على أهل الكتاب ولا خلقت الاطمئنان في قلوبنا، وفي مثل هذه المواقع بنيت بحثي ونقدي في المصادر الأولى، أي التوراة والإنجيل فقد كشفت عن التوافق والتشابه الذي يوجد في القرآن والصحف السماوية كما أوضحت دليل بيان القرآن وقوته في المواضع التي يختلف القرآن فيها عن الصحف السماوية، وستجد من مثل هذه النماذج في المجلد الأول من هذا التفسير لدى تفسير سورتي البقرة وآل عمران، ما يقدر القارئ بعد دراستها أنه تتضح قوة القرآن لاسيما حينما نقارن بيانه في أمر من بيان التوراة والإنجيل.

وبجانب هذه الدراسات المقارنة فلا نحتز أن التوراة والزبور والإنجيل مما أنزله الله كما نزل القرآن الكريم فإن لم يرتكب أصحابها سوء تحريف الكلم عن مواضعها لكانت هي رحمة وبركة لنا مثل القرآن ولكنه بصرف النظر عن هذه التحريفات فتوجد فيها خزائن الحكمة فإن قعد أحد بقراءتها ظهر له كالشمس أن مصدر تلك الصحف لهو الذي نزل القرآن الكريم. أقول بعدما درستها مراراً وتكراراً إنما أعانني الصحف السماوية في فهم حكمة القرآن لا ظفر به عند غيرها من المصادر لاسيما الزبور والأمثال والأنجيل فإنها إذا قرأتها وجدت غذاءً للإيمان لا تجده في غيرها سوى القرآن والحديث، وأنداك نقعد حيارى من أن الأمم التي كانت تملك هذه الصحف لم حرمت تعاليم القرآن والنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم.

٦- تاريخ العرب:

في القرآن جاء ذكر دمار أقوام العرب الماضية مثل عاد وثمود ومدين وقوم لوط بجانب الإشارة إلى عقائدها، ودعوة أنبيائها، وردود فعلهم على تلك الدعوة كما

ذكر بمختلف الأساليب ورود إبراهيم وإسماعيل في جزيرة العرب، وضحيته، ودعوتهما، وبناء بيت الله بأيديهما، وتغيير حالات العرب الخلقية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية بمجرد بركتهما، وكذلك كثرت الإشارة إلى تحريف دين إبراهيم من قريش، وتبديل بيت الله المركز للتوحيد ببيت الأصنام، ومن ثم ورود التقاليد والبدع فيهم. ولفهم هذه كلها فهماً صحيحاً يحتاج المرء إلى إمعان النظر في تاريخ هذا العهد ولكن من سوء الحظ أنه لا يوجد فينا تاريخ موثوق به لهذا العهد فجزء تاريخ إبراهيم وإسماعيل الذي يتعلق بورودهما في جزيرة العرب وبناء بيت الله، كما سيظهر من تفسير سورة البقرة، قد قام اليهود بالتحريف فيه، والمعلومات المتفرقة التي نتناولها من مختلف الكتب لا تقنع الباحث ولو هي مفيدة على حدٍّ ما. وأما كلام شعراء العرب وخطبائهم فهو مجموع إشارات محضّة تفيد بلا شك ولكن لا تقوم مقام التاريخ المدوّن فقد حاولت أن أصل حيث تنسّمْتُ وجودَ مثل هذه المعلومات ولا شك أنني فزت بهذه المحاولة، بمعلومات قيمة استقدت منها في التصريح عن بعض إشارات القرآن ولكن من الواقع أنني اضطررت إلى أن اقتصر فيه في القرآن ذاته فأخذت من روايات التاريخ ما قد أيّده القرآن نفسه، وهذا من توفيق الله وعونه الموهوب.

٤ - إرشادات لطلبة القرآن

كلما ذكرته سابقاً من الأسباب الداخلية والخارجية لفهم القرآن يتعلق بالجانب العلمي والفني، وقد اعتنيت بها في تفسيري هذا وأرى أن من لا يعتني بها لا يستطيع بأن يستفيد من القرآن كما يشاء ولكنها على كل حال مجرد أسباب لأداء أيّ عمل فهي لازمة لفهم القرآن كما أن الأسلحة لازمة للخوض في الحرب. ولكن نعرف حقاً أن مجرد الأسلحة لا تكفي للحرب بل الذي يقوم بدور مهمّ في الفتح أو الهزيمة فيها هو القلب فإن لم يمتلك المرء قلباً قوياً شجاعاً فلن يهزم الأعداء ولو تعطيه عديداً وحديداً من الأسلحة. فأمرُ فهم القرآن كأمر الخوض في الحرب فلو نحتاج إلى هذه الأسباب شديداً ولكن الأمل منها حاجة هو أن يجعل المرء قلبه طاهراً ومستقيماً فإن لم يكن القلب طاهراً ومستقيماً فيثبت كل شيء ما لا عائد تحته. فأذكر فيما يلي بعض الأشياء لاستقامة القلب:

١ - خلوص النية:

فأول شيء نحتاج إليه هو خلوص النية والمراد من خلوص النية لديّ هو أن يقرأ المرء القرآن لمجرد طلب الهداية فلا يقرأه لهدف آخر فإن كان هناك هدف آخر في قلب المرء دون طلب الهداية فلا يحرم فيض القرآن فحسب بل يخاف أن يبتعد منه أكثر مما كان من قبل، فإن كتب المرء عن القرآن لأجل أن يعتبره الناس مفسراً للقرآن وأن يكتسب العاجل من تأليف تفسير له فيمكن أن ينال ما أراد ولكنه سيكون محروماً من علم القرآن. وكذلك إذا كانت له نظريات يريد أن يظفر بدلائل عليها فيدرس القرآن فيمكن أن يستخرج من القرآن دلائل ثابتة أو غير ثابتة ولكنه بذلك يخلق عليه باب القرآن الكريم.

أنزل الله القرآن ككتاب الهداية كما أودع كل إنسان الرغبة في طلب الهدى فإن توجه المرء نحو القرآن بهذه الرغبة فيستفيض منه حسب سعيه وحسب توفيق الله له وإن يرد أن يستغل القرآن لرغبة أخرى رذيلة أو هدف آخر قبيح فيظفر بما ينوي "ولكل امرئ ما نوى". وبهذه الخصوصية للقرآن عرّف به الله قائلاً: يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً" كما ذكر أصل هذه الهداية والضلالة فقال: وما يضلّ به إلا الفاسقين" أي من ينحرف عن الطريق السوي للفطرة ويرد الضلال من الهدى فيعطيه الله ما يرغب هو فيه، وذلك فإذا أراد أحد أن يعبد الأصنام وهو يسافر إلى كعبة الله فهو لا يجدر بأن يتلذذ توحيد الإله وإذا أراد أحد أن يجمع الأشواك من الأزهار فهو لن يحرق أن يشم رائحتها، ومن يجعل المداواة المرض لفساد طبيعته فهو يستحق أن يزداد مرضه بدلاً من أن يشفيه الله. إلى هذه الحقيقة أشار القرآن بهذه الكلمات:

"أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين".

(سورة البقرة: ١٦)

٢ - اعتبار القرآن كلاماً أعلى:

والشيء الثاني أن نتفكر في القرآن باعتباره كلاماً أعلى فنفهمه فإن لم يكن القلب مليئاً بعظمة القرآن وأهميته فلا يمكن أن يألو المرء في فهمه والعتور على حقائقه ومعارفه جهداً يلزم للاستفادة من خزائن حكمته، فإن أخبر الرجل عن أي

أرض ومساحتها أنه لم يزل الذهب خارجاً منها وأنه قد خرج منها قدرٌ كبيرٌ من الذهب في زمن من الأزمان فالمتوقع أن يخرج منها الذهب إذا تم حفرها فيجمع الإنسان أسبابه ويجتهد للاستفادة منها معتنياً بأهميتها تلك ولكن إذا اعتبرنا معدناً مزبلةً أو ما لا يخرج منه إلا الفحم والنورة إذا جاهدنا فيه فلن يرغب أحدٌ في تضییع الوقت فيه أو فيجتهد فيه قدراً يرجو منه النفع.

في بادئ ذي بدء يتعجب بعض الناس من أن نعتبر القرآن كتاباً أرفع وأعلى قبل أن نفهمه ولكنه إذا تفكرت وجدت أن حسن الظن هذا عن القرآن ليس عجباً بالنسبة له فإن له تاريخاً عظيماً فإن آمن أحدٌ به أم لم يؤمن به لا ينكر بأن ثورة أثارها هذا الكتاب في العالم لم يقدر على مثلها كتابٌ آخرٌ حتى اليوم فقد أثر القرآن شديداً في كل قسم من أقسام حياة الإنسان في العالم؛ فقد غيّر مجرى تفكير الناس، وبَدَّل الأفكار والنظريات، وحوَّل الثقافات والحضارات، وغيّر القوانين والأصول، وغيّر الأديان والمذاهب. فالكتاب الذي جاء بهذه التغييرات الواسع نطاقها يمكن أن يكون جميلاً لأحد أو غيرَ جميل ولكنه لا يكون غيرَ مهمٍّ فكل من يتفكر في قضايا الحياة ولا يتعوّد على أن يلتفت عنها غيرَ معتنٍ بها لن يصرف النظر عن هذا الكتاب وهو ليريد أن يعثر على الدافع المختفي في هذا الكتاب الذي قلب هذا العالم ظهراً لبطن، وليريد أن يفهم السحر الكامن فيه الذي بفضلهِ بلغ العرب الذين لم يكن لهم شغل إلا رعي الإبل، إلى درجة رعي البشر، وليحاول أن يعلم عن خزينة الحكمة المدفونة فيه، التي بفضلها بدأ القوم الذي لم يلد إلا أناساً بدرجة امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى، قد انطلقوا يخلقون رجالاً مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وزدٌ على هذا اعتبار جزء كبير من أقوام العالم إياه كتاباً ربّانياً نزل من اللوح المحفوظ بدلاً من ظنه كتاباً عادياً، فيعتبرونه معجزة عيٍّ عن تقديم مثلها الإنسان والجنّ على السواء. فالكلام الذي نجد عن ماضيه وحاضره، مثل هذه الانطباعات والشواهد لا شك في أنه مهمٌ إلى حدٍّ ولا يقدر المرء على أداء حقِّ فهمه الصحيح ما لم يتفكر فيه معتنياً بأهميته تلك. فإن لم يعتبره كما ذكرنا فيمكن أن لا يولي به ذهنه الاهتمام الذي يستحقه هو.

نَبَّهْتُ إلى هذا لمجرد أنه يوجد في زماننا في عقول الناس سوءُ التفاهم ذلك الذي لا يمكن معه أن ينال القرآن الاعتناء والاهتمام الذي لا بد منه للاستفادة الحقة

منه. يوجد هذا السوء فيمن يؤمن به ومن لا يؤمن به على السواء. فمن ينكر به يعترف إلى حدّ أن هذا الكتاب قام بإصلاحات في زمن محدّد ولكنه يعتقد أن ذلك الزمن قد مضى فكان من الممكن أن يكون هذا الكتاب مفيداً لبداية العرب الذين لم يكن لهم إلا قضايا ساذجة ولكنه لا يكفي لحلّ القضايا المعقّدة في العصر الحديث.

ومن يؤمن به يظنّ معظمه أنه مجموع قوانين فقهية لتمييز الحلال عن الحرام ولذلك حينما تم ترتيب أحكام الفقه على حدة لم تنبأ عندهم أهمية له سوى أن يتبرك به أحدٌ كما يزعمه كثيرٌ من الناس مجموعاً للأدعية والكلمات المباركة التي يجب إكثار ذكرها ولكن لا يجب التفكير فيها، ويعتقد بعض الناس أنه كتاب يسهّل الحالة الصعبة للنزع أو يوصلون به الثواب إلى أمواتهم فلا يتوجهون نحوه إلا لذلك الغرض الوضيع، وهناك جماعة من الناس ترى أنه تميمة لدفع البلاء والآفات فلا يهتمون به إلا عن هذه الجهة----- فلن يمكن للمسلمين الذين قد تلطخوا بهذه الأنواع من سوء التفاهم أن يستفيدوا من القرآن ما نزل لأجله، مثلهم مثل الذي أعطي مدفعاً لتدمير حصن الشيطان فزعمه آلة لقتل البعوضة.

٣- العزم على تبديل النفس حسب متطلبات القرآن:

والشرط الثالث للاستفادة الحقيقية من القرآن أن يعزم المرء على تبديل ظاهره وباطنه حسب متطلبات القرآن. فإذا قرأه أحدٌ بالتدبّر شعر في كل مكان بأن متطلبات القرآن تختلف عن أمانيه كل الاختلاف كما يرى أن أخيلته ونظرياته تضادّ ما للقرآن من الأفكار كما أن معاملاته وعلاقاته منحرفة عن الحدود التي وضعها القرآن الكريم فهو يجد باطنه بعيداً عن القرآن كما يجد ظاهره منصرفاً عنه فإذا شعر بهذا الاختلاف رجلاً عادلاً عازماً على أن يسعى لتبديل ذاته طبق متطلبات القرآن ولو أصابه أي مشكلة فهو يقدّم كل نوع من الأضاحي، ويمرّ بكل نوع من الآفات، ويصبر على كل نوع من الكره ثم يحاول أن يبدّله حسب القرآن ويوقّعه الله له قدر نيته ولكن الذي يفقد العزيمة لا يجترئ على أن يضيق هذه الفجوة التي يجدها بينه وبين القرآن فهو يشعر بأنه لو حاول تبديل عقائده وأخيلته بمثل ما للقرآن لاحتاج إلى خلق له جديد بالنسبة للذهن والفكر فهو يرى أنه لو

حاول صوغ أعماله وأخلاقه في قالب القرآن لأصبح جوّه غريباً له فهو يخاف أنه لو سعى في نيل الأهداف التي يطلبها القرآن منه لأمكن أن يمرّ بالقيّد والإعدام ودع ترك التمتع بالفوائد واللذات التي يحظى بها فهو يرى أنه لو وضع أسباب معيشتة على مقياس القرآن للحلال والحرام لأمكن له أن يفتقر إلى رغبة خبز بجانب حرمة من رفاه العيش الذي يتمتع منه اليوم فالصعود ضد هذه المخاطر والتشمير عن ساق الجدّ لمقاومتها ليس بوسع كل جاء وآتٍ فلا يقدر على قطع هذه المفازات إلا من رزق الشجاعة والعزيمة ويغيّر مجرى حياته من يفقد العزيمة والاستقامة، فمنهم من لا يريد إخفاء عيوبه يسير وراء هوى نفسه قائلاً: إنما يهدي إليه القرآن مستقيم وصحيح ولكن السير عليه صعب للغاية بالنسبة لنا فلا نترك السبيل الذي سلكناه منذ مولدنا ولكن من يرغب في تقديم وهنه كعزيمة وعرض نفاقه كإيمان يحاول أن يلقي هواه بمختلف الحيل فمنهم من يحلّ الحرام ويحرّم الحلال لأجل الضرورة والاضطرار ومنهم من يزور الحق بتأويلاته الباطلة ومنهم من يأوي إلى ما يقتضيه الوقت والمصلحة ومنهم من يحاول بما ارتكبه أهل الكتاب من التحريف في كتاب الله ومنهم من يبحث عن سبيل آخر من بين الكفر والإيمان فيختار ما يجده ملائماً لهواه ويترك ما لا يوافق وهواه.

هذه الطرق كلها مما استخرجها الشيطان فالسبيل الذي يختاره الإنسان يضلّه إلى حفرة التهلكة فسبيل النجاح ليس إلا أن يحاول المرء صوغ نفسه في قالب القرآن وأن يضحّي له بكل نفيس، يمتحنه الله لمدة وجيزة إذا حاول فيها أن يثبت نفسه مستقيماً بدأت تفتح له سبل الفوز والنجاح فإن يغلق باباً فيفتح الله له باباً آخر وإن يطرد جوّاً يرحّب به جوٌّ آخر وإن تتكرّر منطقة بالجائه تفتح له منطقة أخرى حجرها. إلى تلك الحقيقية أشار القرآن بالكلمات التالية:

"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين". (سورة العنكبوت: ٦٩)

٤ - التدبّر:

والشرط الرابع للاستفادة الصحيحة من القرآن هو التدبّر فيه وقد ذكره القرآن مراراً وتكراراً فقال: أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها" الصحابة

الكرام الذين قد خاطبهم القرآن أولاً كانوا يقرءون القرآن بالتدبر فيه وكانوا يمتازون عن غيرهم بفهم القرآن قدرما تدبروا فيه حتى شهد بعضهم أنه أنفق ثماني سنوات كاملة في تدبر سورة للقرآن، وكذلك كانوا قد عقدوا حلقات لدراسة القرآن، يجتمع فيها أهل القرآن ويتدبرونه جميعاً لكي يستفيدوا من تفكير وتدبر الآخرين. كان النبي صلى الله عليه وسلم يرغب في مثل هذه الحلقات ويبدو من الروايات أنه كان يرجح حلقات التفكير هذه على حلقات ذكر الله تلك، وممن رغبوا فيه من الخلفاء عمر بن الخطاب الذي كانت له علاقة شخصية خاصة مع أصحاب هذه الحلقات، ومهما شجع ابن عباس من مختلف الطرق لو قمنا بذكرها لطال الحديث.

فتلاوة ألفاظ القرآن لمجرد التبرك بدون الاعتناء بمعانيها لم تكن عادة الصحابة الكرام، وذاعت هذه الطريقة لما بدأ الناس يعتبرون القرآن كتاباً لنيل البركة بالعكس من اعتباره كتاباً للهدى، ولما لم يتعلق القرآن بقضايا الحياة إلا قدرما تسهل به حالة النزاع ويصل به الثواب إلى الميِّت، ولما لم يكد القرآن هادياً في رفع الحياة وخفضها وبدأ به تدشين كل ضلالة نركبها لكي يبارك فيها ويجعلها هدى، ولما بدأ الناس يستعملونه كتميمة لكي يصونهم القرآن إذا خرجوا للحصول على منافعهم العاجلة وينجيهم من كبوة طارئة.

ولعلّ القرآن هو الكتاب الفريد في العالم، الذي أكد بشدة على أن فائدته الحقة تكمن في طيات التدبر فيه ولكن من العجب العجائب أنه كتاب وحيد كلما يقرأه الناس يغلقوا أبواب عقولهم فإذا فتح الناس كتاباً عادياً للغاية لكي يقرءوه أحضروا عقولهم أولاً وأما القرآن فهم بالعكس من فتح عقولهم يغشون الثياب على أبصارهم إذا أرادوا قرأته.

٥ - الاستعانة بالله:

والشرط الخامس للاستفادة من القرآن أن لا تفتر عزيمة المرء لدى مشكلاته ولا يقنط منه ولا يسيء الظن به ولا يعترض عليه بل أن يقدم مشكلته إلى ربه تعالى ويستعين به ويسترشد منه ففي بعض الأحيان يشعر المتدبر في القرآن بأنه قد جاء تحت ضغط "قول ثقيل" لا يكاد يحمله كما يشعر في أحيان أخرى بأن يمرّ بقول يشكل عليه تأويل يطمئن إليه قلبه، والسبيل الصحيح والمجرب للخروج من

مثل هذه المشاكل والتعقيدات أن يواصل دعاء الله لمعاونته وهداه بجانب بذل جهده الجهد. وترتيل القرآن في النصف الأخير من الليل سيفيده في حل هذه المشكلة، وأما ما يتعلق بالحكمة فلا تفتح أبوابه بدون ترداد الذكر في هذا النصف الأخير، وكذلك لندعو الله كما يلي:

"اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أن تجعل القرآن ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همِّي وغمِّي".¹

٥ - كلمات عن هذا التفسير

وفي النهاية أودّ أن أقدم كلماتٍ عن هذا التفسير خاصة وهي كما يلي: بدون شائبة من الفخر أقول لبيان الواقع إن هذا التفسير نتيجة محاولتي لأربعين سنة فقد قضيت شبابي الثمين في جمع المعلومات لإعداده والآن وقد اشتعل رأسي أقضيه في كتابته وقد مررتُ خلال هذه المدة المديدة بكثير من رفع الحياة وخفضها وبمصائب وشدائد جمة ولكني مع ذلك أشكر ربي أن لم تنقطع في أي عصر علاقتي العقلية والقلبية عن هذا الكتاب فكلما قرأته طوال حياتي وضعت هذا الكتاب مركزاً له، وكل ما فكرته وضعت هذا أمامي، وكلما كتبتُه كان يتعلق به مباشرة أو غير مباشرة. قد اعتكفت على كل سورة من القرآن، وقضيت مدة في تدبر آيات منه فحاولت أن أبلغ حيث رجوت وجود حلٍّ لأي كلمة قرآنية أو مشكلة أدبية ونحوية وأصدع بأني لم يصبني نصب أو عنت في هذا الأمر بل قد حظيت من لذة لذيذة وشعرت براحة دائمة.

وبجانب جهودي الممتدة على أربعين سنة ينضمُّ إليها نتائج محاولات أستاذي المشتملة على أكثر من ستين سنة، وكنت أشعر بالفخر العالي لو كنت أدعي بأن كلما يحويه هذا الكتاب مما استفدت من أستاذي وهذا هو الواقع، ولكني أحذر هذه الدعوى أن يعزى خطأ إليه وقد ارتكبته. لم استفد من الشيخ بحيث قد حفظت رأيه

¹ المؤطأ، كتاب الجنائز: ١٦ ومسند أحمد، ٣٩١/١ و٤٥٢

عن كل آية بالتيقن بل تعلمت عليه ما هي أصول التفكير في القرآن وقضيت خمس سنوات في استخدام هذه الأصول تحت إشرافه وأعمل حتى الآن في ضوء تلك الأصول. وعلى هذا لا أتجاوز الحق إذا قلت إن هذا كله مما استفدت منه ولكنه بما أنه يشمل ما استفدت منه بدون مباشرة بجانب الاستفادة المباشرة فأقول إنما تجده محكماً ومبرهنأ هو من فيض أستاذي وما تجده مفككاً أو خاطئاً هو قصر علمي.

ولأجل الإيجاز في التفسير ناقشت تحت كل آية قدر ما ظننته ملائماً لإيضاح فحواه فقد حذرت بوعي أن أخوض فيما تتضمنه الآية من الأمور الأخرى وذلك لأنه إذا اتضح معنى الآية الصحيح لقارئ ذكي سهل له أخذ ما يتعلق به من المفاهيم الأخرى، ويمكن الاختلاف في كلام ما لم يحدّد موقعه من السورة فيمكن أن نفهم من كل كلام أكثر من عشرين معنىً ويصبح عمل الاجتهاد والاستنباط صعباً ومعدوماً ولكنه إذا تعين الموقع تضيق السبيل وأشارت كل آية إلى ما تلزمها من الأمور البعيدة بجانب مفهومها البدائي، والشيء الذي نحتاج إليه هو أن يكون ذهن القارئ يقظاً وهذا شرط لا بد منه لدراسة كل كتاب علمي، دعه ككتاب لتفسير القرآن.

لا تجد فيه تردد الإشارة إلى التفاسير الأخرى وهذا، كما ذكرت بشأن أصول التفسير، لأنه لم يبين على كتب التفاسير كما هو المعتاد في هذه الأيام بل على أسباب فهم القرآن الأصلية مباشرة ولكنه مع ذلك أشرت في المباحث المهمة إلى التفاسير وأرباب التأويل التي ظفرت بها. ولو أردت أن أذكر الدلائل في غير تلك المواضع لاستطعت ولكني لم أحاولها لأنني أودّ أن يقبل الناس حديثاً أو يرفضوه في ضوء دلائله الأصلية.

ولأجل وضع الكتاب عن التطويل لم أكثر الاستشهاد بكلام العرب إلا حيث احتجت أو القدر الذي كفاني. وبما أن الكتاب بالأردوية وسيكون معظم قرائه من الذين لا يعرفون العربية فنقل الأبيات العربية سيكون غريباً لهم وغير مفيد. سددت هذا النقص من شواهد القرآن ونظائره. ومن المعترف به أن تفسير القرآن بذاته أوثق به وأكثر اطمئناناً إليه، ومع هذا لم أصرف النظر عن كلام العرب البتة فقد استفدت منه خيراً حين وقوع المشاكل الأدبية والنحوية المهمة فأشرت إليه ونقلته.

أقسم بالله وأشهد أني لم أفسّر آية ما في هذا الكتاب تفسيراً أتردّد فيه فقد
أشرت إلى حيث تردّدت فيه وكذا أني لم أحاول في مكان أن أصرف آية عن
مفهومها الحقّ إلى تأييد نظرية مني أو فكرة. لم أعلق أبداً بشيء غير القرآن علاقة
قلبية وعقلية فإن تعلقت به فهو للقرآن ذاته وتحت القرآن نفسه. سيشعر قراء هذا
التفسير أني ذكرت كلما خالف رأيي رأي أستاذي.

إنني أقدم هذا التفسير كخدمة وضيعة لكتاب الله العزيز إلى من يقدره خير
تقدير ولا يستطيع قلبي ببيان ما يموج في خاطري من العواطف. اللهم تقبل هذه
الخدمة المتواضعة، واعف عن الزلات والنقصيرات، واجعله نافعا لعبادك وإمائك،
ونجّني بفضلها يوم القيامة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي

سلسلة نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض المباحث الهامة^١

- الإمام عبد الحميد الفراهي

الجزء المتقدم من الأحوال التي سنتعرض لها في هذا الباب، يتفق فيها تاريخنا وتاريخ اليهود في الأدوار المتقدمة. وهناك خلافات في أمور عديدة. وإلى جانب هذه الخلافات، اختلق النصارى - نتيجة التعصب والتنافس الديني - مطاعن جديدة. و لذلك وجب الرد على شبهات اليهود والنصارى. ولكن لا نتعرض لهذه الأشواك في بداية الأمر، بل نقوم أولاً بجمع حقائق الأحوال بصورة بسيطة ثم بعد الفراغ منها سنتعرض، إن شاء الله، لشبهات المعارضين بقدر الضرورة.

سلسلة النسب:

سلسلة نسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام كما يلي:
محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عمرو (الملقب بـ"هاشم") بن عبد مناف بن قصي الملقب بـ"مجمع" بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد [بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قidar] بن إسماعيل بن إبراهيم بن أزر بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عبر بن سالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لامك بن متوشالغ بن أخنوخ بن يارد بن صهلانيل بن قبنان بن أنس بن شيث بن آدم.
وتذكر التوراة سلسلتين لنسب آدم عليه السلام، إحداها سلسلة إلى نوح عليه

^١ نشر هذا البحث في عددي ديسمبر ١٩١٦م ويناير ١٩١٧م لمجلة "معارف" الصادرة عن "دار المصنفين" بمدينة أعظم كره بالهند. وكان الأستاذ الإمام آنذاك عميد كلية "دار العلوم" بحيدرآباد الدكن. ويبدو أنه كتب هذا البحث ليستفاد به في "سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني وكذا يبدو من نهايته أنه لم يكتمل. (المترجم).

السلام، وهي التي ذكرناها آنفاً. أما الثانية فمنقطعة وهي كما يلي:
يابال، يوبال، توبال، أبناء لامك بن متوشائيل بن محويائيل بن عيراد بن
حنوك بن قايين بن آدم^١.

وهناك تشابه كبير بين هاتين السلسلتين. وهما روايتان منفصلتان في ظاهر
الأمر. وبما أنّ هناك مجالا واسعا للتغيير في الحروف العبرانية فلذلك أُجري تغيير
خفيف في هذه الأسماء لدرء التناقض. وسلسلة النسب من إبراهيم إلى آدم عليهما
السلام، المستمدة من التوراة، تتكون من ٢٠ جيلا فقط وهو أمرٌ مخالف للقياس.
ورغم أنّ التوراة تقول إن أعمار البشر في القرون الأولى كانت كبيرة جداً، إلا أنّ
هذا لا يحلّ هذه المشكلة.

عدد السنين من آدم إلى إبراهيم:

٣٤٠٧ سنة طبقاً للتوراة العبرانية

٢٣٢٢ سنة طبقاً للتوراة السامرية

٣٤٠٧ سنة طبقاً للتوراة السبعينية

عدد السنين من آدم عليه السلام إلى الطوفان:

١٦٥٦ سنة طبقاً للتوراة العبرانية

١٣٠٧ سنة طبقاً للتوراة السامرية

٢٢٦٢ سنة طبقاً للتوراة السبعينية

عدد السنين من الطوفان إلى هجرة إبراهيم:

٣٦٥ سنة طبقاً للتوراة العبرانية

١٠١٥ سنة طبقاً للتوراة السامرية

١١٤٥ سنة طبقاً للتوراة السبعينية

إنه لا يمكن الاعتداد بهذه الأرقام مطلقاً، وذلك لأنّ هناك شواهد تاريخية
قوية جداً تدلّ على أنّ وجود بني آدم أقدم بكثير من القرون التي تفترضها التوراة.
والحقيقة هي أنّ سلسلة النسب التي توفرت لليهود كانت تنقصها حلقات
كثيرة. وكان الأبناء يسمّون بأسماء أجدادهم المشهورين. وفي التوراة أمثلة كثيرة

^١ التكوين ٤.

لذلك، فذكرَ "بنو إسرائيل" في مواضع كثيرة باسم "إسرائيل". وهكذا ذكرَ شعيب عليه السلام باسم "يُزُو" مرة وباسم "حباب" مرة أخرى. ونتج عن هذه العادة أن بقيت أسماء أجداد القبائل في أحيان كثيرة داخل سلسلة النسب بينما سقطت أسماء أخرى من الوسط. ويجب أن نحضرنا هذه النقطة حيث أنها تحلّ معظم مشكلات الأنساب.

ولُقّب قصي بن كلاب بـ"مجمع" لأنّ هذا الشخص المعروف استعاد سدانة الكعبة من جرهم أخوال بني إسماعيل، الذين استولوا على الكعبة بعد وفاة نابت بن إسماعيل، كما قام قصي بن كلاب بجمع أولاد فهر بن مالك المشتتين فأسكنهم داخل بطحاء مكة وخارجها فسمّيت هذه القبائل منذ ذاك اليوم باسم "قريش". ولم تزل سدانة الكعبة التي كانت ميراث إبراهيم ورمز السيادة الدينية في أيدي قريش وحدها.

وبرز أبناء معد بن عدنان فكان فيهم الشرف والنباهة والعدد، وانتشر من القبائل العدنانية ما لا تعد ولا تحصى في أنحاء الجزيرة العربية. ولكن الفروع الواقعة بين عدنان وإسماعيل عليه السلام لم تثمر كثيراً أو انقرضت، ولذلك قلّ عدد من يحفظ سلسلة النسب من عدنان إلى إسماعيل فانحصرت في ذاكرة بعض علماء الأنساب. وكانت النتيجة اللازمة لهذا أن طرأ بعض الخلاف في هذا الجزء من سلسلة النسب فيما يتعلق بتلفظ الأسماء وتعدادها وتقدّمها وتأخرها. وسنتناول هذا الجانب بالمزيد من البحث عند الردّ على الشبهات. ويكفي الآن أن نعرف أنه ليس من المستبعد أن يقع خلاف كهذا في الأجزاء العليا من سلاسل النسب. ويوجد مثال له في التوراة نفسها في فترة ما قبل نوح عليه السلام. وهكذا هناك اختلاف في سلسلة النسب بين عيسى وداود عليهما السلام رغم أن زمنهما ليس بقديم كثيراً كما أن سلسلة النسب بينهما ليست بطويلة أيضاً.

والحقيقة هي أن التاريخ ليس بمسؤول عن ذكر الأسماء التي لا ترتبط بها واقعة جديرة بالاعتبار. ومن العبث أن نتوقع أن لا يحدث خلاف ما في ضبط أسماء كهذه وترتيبها. ولكن هذا الاختلاف لا يؤدي إلى أية شبهة فيما يتعلق بمنتهى النسب، كما لا يؤثر في تواتره. فكل يهودي اليوم يؤمن بأنه من "بني إسرائيل" لأنه سمع هذه النسبة أباً عن جد، رغم أنه لا يحفظ سلسلة نسبه. وهذه هي حال كل

شعوب العالم. وهكذا لم يكن أنهم لم يحفظوا الجزء الأعلى من سلسلة نسبهم. ويسمى هؤلاء العدنانيون بالعرب "المستعربة" لأن جدهم إسماعيل عليه السلام وفد على الجزيرة العربية من الخارج.

علاقة بني إسماعيل ببني جرهم:

كان بنو قحطان يحكمون الجزيرة العربية قبل مجئ العرب المستعربة. وهم من نسل (عبر) الذي يقع في الجيل السادس قبل إبراهيم عليه السلام. وكان هؤلاء من سكان الجزيرة العربية منذ مدة طويلة ولذلك يسمون بالعرب "العاربة". وقد أنشأ بنو قحطان ممالك واسعة وقوية ودامت حكوماتهم من اليمن إلى شمال الشام، ومن دجلة إلى النيل، لمئات السنين فأنشأوا بها حضارات راقية ونهض من بينهم الملك الصالح المشهور "ذو القرنين"، ومنهم ذلك الحاكم الذي سمي في التوراة "أبا ملك" والذي رحب بإبراهيم عليه السلام و جعله من حلفائه. وفيهم تزوج إسماعيل عليه السلام في أسرة كريمة كانت تسمى ببني جرهم وتحكم الحجاز.

وليست هناك من شبهة -في ضوء القرائن التاريخية- في أن هاجر عليها السلام كانت من بني جرهم وغالب الظن أنها كانت بنت أبو ملك المذكور آنفاً.

اندماج بني قحطان وبني إسماعيل في شعب واحد:

دخل عنصر بني قحطان في سلسلة نسب بني إسماعيل منذ البداية، وأخذ الدم القحطاني يجري في عروقهم. وكان بنو إسماعيل حديثي عهد بموطنهم الجديد ولكن أكرمهم بنو قحطان. وكان إكرام الضيف عادة قديمة من عاداتهم لدرجة أنها أصبحت جزءاً من جبلتهم. وكان يكفيهم لإكرام الأجانب أن يلجأوا إلى بلادهم.

وبما أن تاريخ إكرامهم لآل إبراهيم طويل وأدى إلى نتائج في غاية الأهمية،

فلذلك نذكر بعض الوقائع الخاصة بهذا الإكرام:

١ - حين هاجر إبراهيم من بابل ووصل بلاد بني قحطان، مروراً بكنعان،

عاهد معه أبو ملك عهد الأخوة وقدم إليه هاجر.

٢ - تزوج إسماعيل -حين كبر- في هذا الشعب، وترعرع أخلافه هنا. وقد

ذكر الطبري أن إسماعيل عليه السلام تزوج "السيدة" بنت مضاض بن

عمر الجرهمي، فولدت له اثني عشر ابناً، هم: نابت، وقيدر، وأدبيل،

وميشا، ومسمع، ودما، وماس، وأدد، ووطور، ونفيس، وطما، وقيدمان^١.
انتشر العرب من قيدمان ونابت وقيدر. وقد ذكر الطبري الاختلاف الوارد
في ضبط الأسماء مثل قيدر = قيدار، وأدبيل = أدبال، وميشا = ميشام،
ودما = أدما، وماس = مسا، وأدد = حداد، وطما = تيم، ونافس = نفيس،
وقيدمان = قادمين. وهناك اختلافات أخرى مثل نفيس = قيس وقافيس^٢.

٣ - حين هرب موسى عليه السلام من مصر قبل نبوته لجأ إلى عربي
قحطاني هو شعيب عليه السلام من سكان يثرب فمكث في تربيته عدة
سنوات وتركه بعد أن تزوج ابنته. وحين خرج موسى عليه السلام مرة
أخرى من مصر مع بني إسرائيل جاء إلى هذا البلد نفسه وعلمه شعيب
عليه السلام أسرار الحكم على بني إسرائيل^٣.

٤ - حين أجبرت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهجرة من وطنه
دعاه العرب القحطانيون من يثرب هذه ذاتها - رغم أنف قريش - أن يأتي
إليهم وأكدوا له أنهم سيينصرونه وبايعوه على حرب الأسود والأحمر،
وصدقوا ما قالوا فلقبهم الله بـ"الأنصار".

وهكذا أصبح العدنانيون والقحطانيون شعباً واحداً بالمصاهرة والمعاشرة.
ولهذا التشابك في الأرحام كان أهل يثرب القحطانيون يعدونه صلى الله عليه وسلم
من أولادهم ، وكانت دعواهم صحيحة بالنسبة لسائر بني إسماعيل إلا أنها كانت
قوية بصورة خاصة بالنسبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأن أحوال عبد المطلب
من يثرب.

توطن بني إسماعيل في الحجاز وبناء الكعبة:

لكي يستقرّ في أذهاننا الوقائع المتعلقة بتوطن بني إسماعيل في الحجاز
وإنشاء مركز للتوحيد في بطحاء مكة بصورة مرتبة يجب علينا أن نبدأ بسيرة

^١ تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣، ٢٢٠/١-٢٢١ (المترجم)

^٢ المرجع السابق، ص ٢٢١ (المترجم).

^٣ لم يذكر لنا المؤلف كيف قرّر أن شعيب عليه السلام كان من سكان "يثرب" التي عرفت فيما بعد بالمدينة المنورة، كما لا نعلم كيف يقرّر المؤلف أن بني إسرائيل بعد فرارهم من مصر لجأوا إلى هذه "المدينة".
فشعيب عليه السلام، كما ورد في القرآن الكريم غير مرة، كان من سكان "مدين" التي يعتقد أنها كانت تقع
في شمال غرب الجزيرة العربية، ولم يقل أحد من المتقدمين والمتأخرين أنها هي "يثرب" مهجر الرسول
صلى الله عليه وسلم (المترجم).

إبراهيم عليه السلام لأنه هو مصدر هذه البركات.

حين خرجت الشعوب السامية من جزيرة العرب وأسست دولة في بابل خرج أجداد إبراهيم عليه السلام أيضاً فأقاموا هناك. وحين غلب رجس الشرك على دين الفطرة، بمضي الزمن، بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام.

وكان بابل مركز الحضارة آنذاك، وكان أبو إبراهيم من رجال البلاط المكرمين لدى الملك. وكان أهل بابل قد صنعوا أصناماً للكواكب وأقاموا هياكلها في المرتفعات، وكان الملك يعتبر مظهراً -أي "أوتار" بلغة أهل الهند- لتلك الكواكب المعبودة، وأصبح هو المعبود بالفعل. وبدأ إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد وظلّ يعظهم لمدة طويلة.

وجادل إبراهيم قومه، والملك، وأباه، واستمرّ الجدل. ولكن زاد هؤلاء قسوة بمرور الزمن إلى أن ضاق إبراهيم عليه السلام من معاداة أهل وطنه لدعوته ولم يعد يرجو هدايتهم، فعقد العزم على الهجرة. فاصطحب ابن أخيه لوطاً وزوجه سارة اللذين كانا قد آمنا، واتجه إلى بلاد العرب التي هي المركز الأصلي للشعب السامي لكي يبحث في حياة تلك البلاد البسيطة والحرّة -التي تعادي عبادة الإنسان- عن مركز التوحيد الأصلي الذي هو المعبد الخاص بالله تعالى. وكان إبراهيم مشمئزاً بطبعه من الأماكن العالية المتخذة لعبادة الكواكب، وكارهاً لنظام حياة الشعوب المستحضرة. ولذلك اتجه في بادية الأمر نحو الغرب فأقام بضع سنين بكنعان (البلاد الواطئة) وبارك الله فيه هنا فزاد خرافاً ونعاجاً وخدماء وأصبح من الرؤساء الأثرياء. وهنا في بعض السهول اتخذته رئيس عربي بتلك النواحي -يسمى أبا ملك- حليفاً له وقدم لخدمته السيدة هاجر. وحفر إبراهيم هناك سبع آبار وزرع بها بعض الأشجار فعرف ذلك المكان بـ"بئر سبع".

وكان عمر إبراهيم عليه السلام قد جاوز الثمانين ولم يرزق مولوداً فدعا ربه ونذر على نفسه التضحية بابنه الأول لله تعالى فأعطاه الله تعالى ابناً من بطن هاجر فسمّاه بـ"إسماعيل" (أي "سمع الله").

وكانت هناك بلدة تبعد بعض الشيء من بئر سبع ناحية الشمال وكانت بها وفرة الثراء والفواحش، فبعث إبراهيم لوطاً عليه السلام إليهم لهدايتهم فأخذ يعظهم مدة طويلة ولكن سكان البلدة لم يقلعوا عن عقائدهم الباطلة وأفعالهم الشنيعة بل

أخذوا يؤذون لوطاً عليه السلام . فأوحى إلى إبراهيم ربه بأن العذاب سينزل ببلدة قوم لوط . وألحَّ إبراهيم في دعائه لربه بأنه قد يكون هناك عبد صالح في البلدة فأجيب بأنَّ الكل مذنبون ما عدا بيت لوط، وقد قدَّر لهم العذاب. ورافقت هذا الردَّ بشارة لإبراهيم بأنه ستكون له أولاد من بطن سارة أيضاً وسيتكاثر نسله. وكان إبراهيم يبلغ من العمر آنذاك تسعاً وتسعين سنة. ومن ناحية أخرى بلغ لوطاً الوحي الإلهي بأن يخرج مع أهله وأولاده من تلك البلدة لأنها ستدمر غداً. فخرج لوط في الليلة نفسها. وجاءت عاصفة في الصباح فدفنت تلك البلدة كلها تحت الأحجار .

وبلغ إبراهيم خبر نزول العذاب على تلك المدينة فعرف أنَّ من العبث البحث عن مركز التوحيد الذي كان يتمناه في تلك النواحي. ولكن حبلت سارة فولدت إسحاق في السنة التالية حين كان إبراهيم يبلغ من العمر مائة سنة وسارة تسعين سنة.

وبعد قليل من الانتظار والتريث، ترك إبراهيم عياله ببئر سبع واتجه نحو الجنوب، يهديه التوفيق الإلهي، فوصل بطحاء مكة فرأى أنَّ الجبال تحيط بها من الجوانب الأربعة ولكن الطرق مفتوحة في كل جانب، والأرض منخفضة ويابسة وغير مأهولة يتوسطها عين (سمَّيت بـ"زمزم" فيما بعد) فارتاح بها بعض الوقت (وسمَّى ذلك المكان للأبد بـ"مقام إبراهيم") ووجد وادي بطحاء كلها صورة للهدوء والصمت والسكينة. فهبَّ نسيم الأمل من جهة الغيب وامتلاً قلبه بهجة وسروراً، ورأى في المنام أنه يضحى بإسماعيل لربه بكل رغبة وسرور، فتذكر نذره وعلم أنَّ هذا تعبيره وأنه يقع هنا البيت العتيق أي المعبد القديم لله الأحد.

وكان "البيت العتيق" هو أوَّل بيت لله في ذلك الوادي، وكان مما قدَّر له أنَّ ينبذ عباد الباطل بعيداً. ولذلك حين تحوَّل سكانه إلى عبدة أصنام وانتشروا من جوار مكة أخذوا أحجار ذلك المعبد ليعبدوها. وحين جاء إبراهيم عليه السلام لم يكن قد بقي من البيت العتيق إلا حجر واحد لامع فاتخذته تذكّاراً وجعله علامة لذلك المكان وعاد من فوره إلى بئر سبع، ثم رجع إلى بطحاء مكة مع ولده إسماعيل الذي كان يبلغ من عمره ستّ عشرة سنة آنذاك فروى له رؤياه، فقال إسماعيل: افعل ما تؤمر فستجدني صابراً و ثابتاً. فترك إبراهيم مركبته وخدمه عند جبل الصفا وأخذ إسماعيل إلى ذلك المكان فأطافه حوله سبع مرّات على سبيل النذر

واستعد لذبحه على الجبل المواجه المعروف بمروة فجاءه النداء بأن يكفّ، فقد كان هذا امتحاناً وقد نجحتم كلاكما -أنت وإسماعيل- في هذا الامتحان، فلا تذبح إسماعيل وانظر: هذه فدية موجودة ويكفيك ذبحها، وسيظل هذا تذكيراً دائماً.

وكانت هناك غابة تبعد قليلاً عن ذلك المكان فتوجه إليها إبراهيم فوجد كبشاً في أحراشها (يوجد هنا مسجد الكيش) فأحضره وأدى منك التضحية وألهمه الله تعالى بعد ذلك أن يبني معبداً في ذلك المكان وأن ينادي في الناس بأن يأتوا للشهادة بوحدانية ربهم ويقدموا النذور باسمه تعالى، أنّ هذا هو مركز التوحيد، وأنّ إسماعيل الذي نذر به سيكون خادم هذا المركز وسأجعل منه شعباً كبيراً وستخرج اثنتا عشرة أمة من نسله وأنّ سمّ هذا المكان ببكة (أي المكان العامر) وطهراً أنت وإسماعيل هذا المعبد.

وأخذ إبراهيم وإسماعيل يحفران تحت ذلك الحجر التذكاري فوجداً أساساً قديماً فرفعاه، ووضعوا الحجر -الذي رماه البناؤون- في ركن من المعبد. وحين اكتمل البيت أسكن إبراهيم هاجر وإسماعيل في جهة الشرق منه وترك سارة وإسحاق يسكنان ببئر سبع. وكان كثيراً ما يأتي ليقم عند إسماعيل. وقد جاء في التوراة أنه حين توفيت سارة لم يكن إبراهيم موجوداً عندها، وحين سمع بالخبر عاد فدفنها. ولم يرض اليهود بأن يكتبوا أنه كان عند إسماعيل آنذاك.

انتشار بني إسماعيل في الحجاز ونواحيه:

سرعان ما تحقق الوعد الإلهي بمباركة إسماعيل. وبينما كان بنو إسحاق لا يزالون عبارة عن بضعة نفوس، ظهرت جماعة كبيرة من بني إسماعيل. وتقول التوراة (التكوين، الأصحاح ٣٧ : ٢٥-٢٨) أنّ يوسف بن يعقوب بن إسحاق لما ألقاه إخوته في "بئر فارغة ليس فيها ماء"، مرّت بها قافلة من الإسماعيليين والمديانيين فأخرج أبناء يعقوب أخاهم يوسف من البئر وباعوه للإسماعيليين بعشرين درهماً من الفضة.

وأخذ بنو إسماعيل يتكاثرون وانتشروا في كل أنحاء الحجاز. وتقول التوراة إن هؤلاء سكنوا بحويلة إلى شور، التي هي قبالة مصر، وعرفت بلادهم وقلاعهم بأسمائهم. وهذا يعني أنّ كل القبائل من بني إسماعيل سبقت بني إسحاق في الرقي،

وأقامت حكومات. ولذلك لا تزال بعض مناطق الجزيرة العربية تعرف بأسمائهم. ولكن هؤلاء انقروا تدريجياً أو اندمجوا في بعض أخوانهم. وبقي بنو نابت وقيدار مدة طويلة، ولكن لم يبق من بني إسماعيل في المراحل التالية من التاريخ إلا معد بن عدنان ثم اختصت ولاية الكعبة بقبائل قريش من بني معد. وحين تكاثرت بطون قريش انحصرت معظم الخدمات الدينية في أيدي بني هاشم. وهكذا لم تزل ولاية الكعبة من بداية أمرها في سلسلة نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وتقلص دور الفروع المختلفة في خدمة الكعبة بقدر بعدها عن عمود النسب، لدرجة أن خدمات طواف الكعبة، وبئر زمزم، والصفاء والمروة ظلت في أيدي قريش، يسمحون بها لمن شاؤوا ويمنعون من شاؤوا. ونظراً إلى هذه الخاصة لقب هؤلاء بـ"أهل الله" و"عيال الله". وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لا يذهبون في الحج إلا إلى المزدلفة -التي هي في حدود مكة- وكانوا يميزون أنفسهم عن عامة الناس بالقول بأننا أهل الله وبالتالي لا يجوز لنا أن ننفك عن بيته. ولولا أن بيئة جزيرة العرب تعادي عبادة الإنسان لصار هؤلاء آلهة يُعبدون كما حدث في بابل وغيرها. وكانت الأحوال قد وصلت إلى هذه النقطة وكادت بطحاء مكة، نتيجة خاصيتها القديمة، على وشك أن تنبذهم منها، لولا أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم برحمة إلهية محضة فلم يقض على الشرك والبدع وحدها بل قضى على القدسية الخاطئة لعشيرته وجعلها مساوية لكل أبناء آدم في العبادة والتقرب إلى الله، ولفظ آخر أعاد الكعبة إلى غرضها الأصلي، وطبق من جديد ما أمر به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تطبيقاً عملياً.

شبهات اليهود والنصارى:

والآن نتوجه إلى اعتراضات اليهود والنصارى. يدعي اليهود: أولاً: لم يدخل إبراهيم جزيرة العرب ولا استوطن بالحجاز وأن بئر سبع القريبة من بيت المقدس كانت هي موطن إبراهيم. ثانياً: كان إسحاق هو الذبيح وأن الجبل الذي اختير لذبحه هو جبل موريا ببيت المقدس.

ثالثاً: كان إبراهيم قد طرد إسماعيل وأمه هاجر من البيت فتوجه إلى

صحراء فاران التي تقع في شمال الجزيرة العربية خارج الحجاز وتوطنا هناك.
رابعاً: كانت هاجر أمة مصرية وأنها زوجت إسماعيل أيضاً من امرأة مصرية.

هذه هي أقوال اليهود. وكان قدماء النصارى أيضاً يؤيدونهم في هذه المزاعم. وكان اليهود يتوحدون إثبات تفوقهم على بني إسماعيل حسداً عليهم. فكانت الأقوال الأنفة الذكر تكفي للحط من شأن بني إسماعيل وانتقاص قدرهم. ولكن تنبه المتأخرون من النصارى إلى أن هذه السهام كلها طائشة لا تصيب الإسلام في شيء فاخترعوا اعتراضات جديدة وهي كما يلي:

خامساً: لا شأن للكعبة بإبراهيم عليه السلام بل هي كانت معبداً لعباد الأصنام العرب، ولأنّ هدمها كان يشقّ على العرب فلذلك حطم محمد (صلى الله عليه وسلم) الأصنام وقضى على عبادتها ولكنه أبقى على المعبد مع طوقسه على وجه الاضطرار واكتفى بالإصلاح الضروري.

سادساً: العرب ليسوا من أولاد إبراهيم، إذ لم يرد هذا الادعاء إلا في القرآن كما جاء فيه أنّ إبراهيم رفع قواعد الكعبة.
سابعاً: سفر التثنية الذي يقول إن النور الإلهي تلاًلاً من جبل فاران، ليس بكتاب موثوق به.

ثامناً: القصص القرآنية حكايات مسموعة من اليهود والنصارى، وهي في معظمها لا تطابق الأصل عمداً أو سهواً، وبالتالي كل الحكايات التي تخالف التوراة لا أساس لها من الصحة.

وإن تكلمنا على هذه الشبهات بالتفصيل خرج هذا الكتاب من مجال التاريخ وتحول ميداناً للمناظرة، وهو أمر لا مكان له هنا. لقد ألف المسلمون كتباً مستقلة رداً على اليهود والنصارى وقضوا على الشبهات قضاء كاملاً. ولا نريد هنا إلا إزالة ما قد يختلج في نفوس القراء، وباختصار شديد. وبما أن هذه الاعتراضات جاءت من أهل الكتاب فقد استندنا من ردها على كلامهم عموماً.

نظرة على الشبهة الأولى:

ذكرت هجرة إبراهيم عليه السلام في الأصحابين ١٢-١٣ من سفر

التكوين، ويتضح منها بصورة جلية أنه لم يتوجه مطلقاً إلى القدس بل توجه إلى الحجاز. وخلاصتها أنه جاء من حاران -ومعه لوط وسارة- إلى كنعان ثم مرّ بـ"شكيم" في طريقه إلى مورة فلما وصل إليها أنشأ بها مذبحاً، وضرب خيمته في شرق بيت ايل (أي سكن بها). ثم ارتحل ارتحالا متوالياً نحو الجنوب، ومرّ بـ"مصر".

ثم تأتي رواية أخرى تقول إن إبراهيم خرج من مصر متوجهاً إلى الجنوب ووصل بيت ايل وأرسل لوطاً ناحية الشمال. وفي الروايتين اضطرابٌ غيرُ يسير في ترتيب الوقائع. ثم أضيف الأصحاح ١٤ في محاولة لإثبات أن بيت ايل (أي بيت الله) ليس في الحجاز.

إنه ليس في وسعنا هنا أن نتناول هذه التصرفات بشرح وافٍ، مخافة أن يطول الحديث غير أن الكلام على النقاط الهامة منها سيأتي في غضون البحث. أما الذي يهمنّا هنا فهو تعيين هجرة إبراهيم. وإن تأملت في القصة بأسرها اتضحت لك معالم سفره، من توجهه إلى الجنوب بصورة متوالية، ومروره بمصر، وذهابه إلى المروة، وإقامته في شرق بيت الله، ولفظ آخر إن كنعان مبدأ سفره ومصر ممرة، أما المنتهى فهو بيت الله والمروة. وستكشف الحقيقة بكل جلاء إذا قمنا بتحديد هذه المواضع.

تعيين كنعان:

المراد بكنعان في الرحلة الإبراهيمية الأجزاء الشمالية والغربية من الجزيرة العربية. فكان المركز الأصلي لكنعان في جزيرة العرب. ولكن بما أن مساكن الكنعانيين أخذت تمتد إلى بلاد بعيدة فتوسعت كلمة "كنعان" وأخذت تطلق على سواحل الشام. وكانت لهم علاقات حرب وصلاح مع مصر في قديم الزمان. وكانت قوافل التجارة العربية المتجهة إلى مصر تمرّ بكنعان. وهنا كان مسكن يعقوب عليه السلام، ومن هنا أخذت قافلة الإسماعيليين يوسف عليه السلام إلى مصر. وقد ورد في النقوش المصرية أن الشعب العبري الذي كان من العرب الرحّل سمح له بالتوطن في مصر. وهذا يصدق توطن بني يعقوب في مصر كما يوضح أن الشعب العبري فرع من العرب، وأنه خرج من بلاد العرب إلى مصر. وإلى هذه البلاد جاء موسى عليه السلام هارباً من مصر وإليها عاد مرة أخرى ببني إسرائيل، ومن

هنا أرسل كلباً (بني كلب) إلى الشمال. وكثيراً ما نسب اليهود عيوباً إلى أنساب الشعوب التي حاربوها. وهناك أمثلة كثيرة على هذا. ومن هنا جاء في سفر التكوين (الأصحاح ١٠ : ٦-٧) أن بني حام هم كوش و"مصرائم" وفوط وكنعان، وأن بني كوش هم سبأ وخويلة وسبته ورعمة وسبتكا.

وجاء في دائرة المعارف^١ عن هذا: "أنه إذا كان المراد من كوش اثيوبيا (الحبشة) ومن "مصرائم" (مصر) ومن فوط ليبيا، وإذا كانت كلمة "حام" هي الصورة العبرانية لكلمة "كامت" القبطية فإنّ عبارة سفر التكوين هذه عبارة عن مجموعة من المشكلات، ولكن إذا كانت كوش ومصرائم وفوط في شمال الجزيرة العربية وكان حام اختصاراً لكلمة برحم (جرهم) زالت كل المشكلات. أما بكنعان فتنتبين بوجه خاص أنه اسم عربي. ومن المحقق أن موجة من بني سام خرجت - كموجة- من بلاد العرب قبل نحو أربعة آلاف سنة قبل المسيح وطغت بابل على وجه اليقين بالإضافة إلى الشام وفلسطين على الغالب، وأن موجة أخرى خرجت من بلاد العرب بين سنوات ٢٨٠٠-٢٦٠٠ ق.م. فاستغرقت الشام وفلسطين إلى جانب بابل، والراجح أنها غلبت على مصر أيضاً. ونرى بعد مدة قليلة من هذا أنّ مؤسس الإمبراطورية والحضارة حمور ابي (أبو جرهم) أصبح أول ملك للممالك البابلية كافة. ومما يجدر ملاحظته أن الجزء الأول من اسمه الذي ورد في سفر التكوين "حام بدر كنعان" يدلّ على كونه عربي الأصل".

وبالإضافة إلى الاعتراف الموجود في هذه العبارة بأن كنعان من العرب وأن بلاد العرب هي الوطن الأصلي لبني سام، نفهم أيضاً: كيف وصلت أسرة إبراهيم إلى بابل وأنه حين رأى أن الثراء والسلطة جعلاً قومه غير قابل للإصلاح عاد إلى وطن آبائه ومركزه القومي والديني فوصل كنعان أولاً ثم استمر متوجهاً نحو الجنوب إلى أن وصل بيت ايل فأحيا من جديد مركز التوحيد القديم.

تعيين "مصر":

نزع أن المراد من "مصر" هنا هو الجزء الشمالي والغربي من جزيرة العرب، فهذه هي المنطقة التي تقع "جنوب" كنعان وليس مصر النيل. وقد جاء في

^١ لم يحددها المؤلف ولعل المراد طبعة قديمة من دائرة المعارف البريطانية (المترجم).

دائرة المعارف^١ أنّ من الواضح من نقوش آشور أن المراد من مصر هو الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب، بينما التوراة تشير إلى مصر النيل. وقد جرت مناقشات طويلة حول هذه القضية بين العلماء، وقد سلموا آخر الأمر بأن كلمة "مصر" كانت تطلق على الجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب. ويرى بعض أهل النظر أن المراد من مصر في جميع المواقع هذه المنطقة. ولكن هذا التعميم ليس صحيحاً (ملخصاً). ونحن لا نقول إنّ المراد بكلمة "مصر" -كلما وردت في التوراة- الشمال الغربي من جزيرة العرب، ولكن حين نجد في قصة رحلة إبراهيم أنه خرج من كنعان واستمر في مسيرته نحو "الجنوب" ماراً بمصر فكيف يمكن أن يكون المراد هنا هو مصر النيل الواقعة بعيداً جداً في جهة الغرب؟

بيت ايل:

كون بيت ايل عند بيت المقدس في فلسطين -كما يدعي أهل الكتاب- لا يمكن أن يكون صحيحاً، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: حصل اليهود على قوتهم أول الأمر في بلاد العرب، ثم فتحوا ممالك الشمال رويداً رويداً. ولم تكن فلسطين قد فتحت حتى زمن داود عليه السلام وبقي الشعب اليهودي في شمال بلاد العرب وغربها. وحين تمت السيطرة على فلسطين أنشأ سليمان عليه السلام بيت المقدس هناك، وقد أدخل اليهود فيما بعد روايات كثيرة في صحفهم لإثبات قدسية هذه المدينة الجديدة. و كان من عادة اليهود اختراع روايات حول الأشخاص وأسماء الأمكنة وكانوا يغيرون الأسماء القديمة ويطلقون عليها أسماء جديدة. وبما أنّ وضع هذه الروايات وإقحامها تمّ على أيدي مختلفة وفي أزمنة مختلفة، ينكشف تناقضها وعدم ترابطها بكل سهولة. ولقد أدخلوا قصصاً عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أنهم سافروا من بئر سبع إلى الشمال وجاءوا إلى بيت ايل بالقرب من بيت المقدس. وجاء في دائرة المعارف أنّ هذه القصص الثلاث قائمة على روايات مزيفة وهي تخالف القياس نظراً إلى حالة فلسطين آنذاك، ولاسيما الرواية التي تقول إنّ إبراهيم ذهب إلى بيت المقدس بمناسبة الحرب وأنه قابل في القدس ملكاً نبياً يسمّى "ملك صديق"^٢ وأدّى له عشر

^١ لم يحددها المؤلف هي الأخرى (المترجم).

^٢ اسمه كما ورد في التوراة (التكوين ١٤ : ١٨) هو "ملكى صادق ملك شاليم" (المترجم).

مال الغنيمة فيرى أهل النظر أنها قلقة في موضعها وقد أدخلت فيما بعد. ولم يتوفر دليل على صحة هذه القصة أو قدمها من نقوش الحروف السكافية ولا في غيرها¹.
 ثانياً : اشتبه الأمر بشأن "بيت ايل" نتيجة روايات اليهود المتضاربة لدرجة أنهم أنفسهم لم يتمكنوا من تعيينه وعيّنوا آخر الأمر مكاناً على بعد أحد عشر ميلاً شمال بيت المقدس، وذلك لكي يقرّروا أنّ بيت المقدس هو المذبح الإبراهيمي، فإنّ عندهم رواية جاء فيها أن إبراهيم عليه السلام خرج من بئر سبع صباحاً ووصل المذبح في اليوم الثالث. ولكنها رواية باطلة أساساً فلم جعل المذبح بعيداً بهذه المسافة عن بيت ايل؟ ثم لو كان بيت ايل هو المعبد الأصلي فكيف يمكننا أن نسلم أنّ سليمان ترك المعبد الذي بناه إبراهيم وأسس بيت المقدس على بعد أحد عشر ميلاً منه.
 ثالثاً : كتبوا أنّ بيت ايل في حبرون (الخليل)، وكتبوا في مكان آخر أنّ حبرون كانت تسمّى في قديم الزمان بـ"قرية عربا".

تعيين موقع المروة:

بما أنّ المروة هو عين المذبح الإبراهيمي، ولذلك من الأهمية بمكان أن نعيّن موقعها بدقة. وقد حاول اليهود كثيراً أن يثبتوا أنّ هذا المكان في بيت المقدس ولكن هناك اختلافاً كبيراً حول موقعه. وقد جاء في سفر التكوين (الأصحاح ٢٢ : ٢):
 "واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك".
 ونلخص هنا أولاً بحث الأسقف كولينز حول هذا الأمر، فهو يذكر اختلاف نسخ التوراة حول هذه الكلمة كما يلي:

نسخ التوراة	مكان ورود هذه الكلمة	صورتها
العبرانية	التكوين، الأصحاح ٢٢ : ٢	إلى أرض موره
العبرانية	التكوين، الأصحاح ١٢ : ٦	على قرب ميدان موره
العبرانية	التثنية، الأصحاح ١١ : ٣٠	ناحية ميدان موره
العبرانية	القضاة، الأصحاح ٧ : ١	عند جبل موره

¹ يرى نولدكه وغيره من أهل النظر أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة. ولا يمكن، نظراً إلى الإشكالات الداخلية لهذه القصة، إلا القول بأن هذه القصة أضيفت في فترة متأخرة جداً، وهو ما يرى فيلهاؤزن وغيره من الكتاب (دائرة المعارف بشأن رحلة إبراهيم إلى الشمال).

الترجمة السبعينية	التكوين، الأصحاح ٢٢ : ٢	إلى الأرض العالية
الترجمة السبعينية	التكوين، الأصحاح ١٢ : ٦	البلوط العالية
الترجمة السبعينية	التثنية، الأصحاح ١١ : ٣٠	قريب البلوط العالية
الترجمة السبعينية	القضاة، الأصحاح ٧ : ١	عند جبل موره
ترجمة أقولا	التكوين، الأصحاح ٢٢ : ٢	إلى الأرض المستعلية
ترجمة سماخوس	التكوين، الأصحاح ٢٢ : ٢	إلى أرض الرؤيا

ثم يقول الأسقف كولينز إن كل صفح التوراة لما بعد سليمان وكل صفح الأنبياء والمزامير الأولى تطلق على الجبل الذي أنشئ عليه بيت المقدس اسم "مهيون" ولم يسمّ مقام الهيكل بـ"موريا" في أي منها. ويدعي اليهود أن "موريا" تقع حيث أنشئ (مسجد بيت المقدس) فيما بعد، أما النصارى فقالوا إنه المكان الذي صلب فيه المسيح عليه السلام وقد ورد في المذبح الإبراهيمي أن إبراهيم رآه من بعد وأنه جاء من المشرق^١ ولا تنطبق هذه الصفة على هيكل اليهود لأنّ القادم من الشرق يمرّ عبر وادي هنوم^٢ وتقع عيناه على الهيكل حين يقترب منه اقتراباً كبيراً. انتهى قول الأسقف ملخصاً، ثم يقول: إن استأنلى أورد رأيه المنقح هكذا:

"خرج إبراهيم من خيمته الواقعة في بئر سبع ذات صباح وتوجه إلى المكان الذي أمره الله تعالى بالتوجه إليه، وليس هذا هو المكان الذي يدعي اليهود أنه يقع على جبل موريا ببيت المقدس. وأبعد من ذلك ما زعم النصارى أنّ هذا المكان يقع بالقرب من القبر المقدّس^٣ وأبعد من هذا ما يدّعيه المسلمون أنه يقع على جبل عرفات. ويقع جبل جريزيم على شكل مذبح، ولعل المذبح الإبراهيمي هو جبل جريزيم الذي معظمه على شكل المذبح، وكان الجبل المذكور معبد اليهود السامريين وهو مقام واسع ومسطح. ويقول كولينز: ولذلك يرى استأنلى أنّ أفضل موضع ليكون مذبحاً هو هذا الجبل".

يتخلّص هذا الكلام في النقاط الآتية:

^١ الإشارة إلى ما جاء في التوراة (سفر التكوين ٢٢ : ٤) أن إبراهيم "أبصر الموضع من بعيد"، ولكن التوراة لا تقول هنا أنه جاء من جهة "المشرق" (المترجم).

^٢ هو وادي هينوم Hinnom الذي يتكون منه الجزء الغربي من القدس القديمة (المترجم).

^٣ يقصد كنيسة القيامة بالقدس حيث يعتقد المسيحيون أن عيسى عليه السلام دفن بعد صليبه ثم قام حياً (المترجم).

أولاً: يختلف العبرانيون واليهود السامريون والنصارى في تحديد موقع المذبح الإبراهيمي.

ثانياً: الجبل الذي أطلق عليه اليهود اسم "موريا" في بيت المقدس لم يكن هو هذا اسمه القديم ولا تنطبق عليه صفات المذبح الإبراهيمي.

ثالثاً: يمكن اعتبار جبل حريزيم الذي كان معبد اليهود السامريين بأنه هو المذبح الإبراهيمي لأن شكله يناسب هذا الغرض أكثر من جبلي صهيون وعرفات.

رابعاً: هناك اختلاف شديد في نسخ التوراة حول اسم موقع المذبح الإبراهيمي. لا أرى داعياً للتعليق على النقطتين الأولى والثانية، أما النقطة الثالثة فإنه لم يشرح علاقة المذبح الإبراهيمي بالمكان المقترح ولا السبب في اختيار مكان فسيح لذلك الغرض، وهو أمر ليس بضروري للمذبح، كما أنه لا ينطبق على جبل حريزيم وحده. أما جبل عرفات فلا يدعي أحد من المسلمون البتة أنه المذبح الإبراهيمي، ولذلك لا نحتاج إلى الرد على هذه النقطة. أما النقطة الرابعة فتتطلب شيئاً من التفصيل وينبغي أن نكشف عن وجه الحقيقة ثم نرى كيف طرأت هذه الخلافات.

نظرة على الشبهة الثانية:

ما قلناه آنفاً، رداً على الشبهة الأولى، يقضي تلقائياً على الشبهة الثانية. فبعد أن ثبت أن المذبح الإبراهيمي هو جبل المروة ببطحاء مكة فلا علاقة لإسحاق عليه السلام بالأمر لأن أهل الكتاب أنفسهم لا يدعون أن يكون لإسحاق أية علاقة بمكة. ولكن هناك أدلة أخرى مستقلة على ما قلنا ونوجزها فيما يلي:

أولاً: التوراة تصرح بأن إبراهيم عليه السلام أمر بالتضحية بابنه الوحيد. وهي تصرح - كذلك - بأن إسحاق عليه السلام ولد حين كان إسماعيل يبلغ من العمر ١٤ سنة. فكيف يمكن أن يكون إسحاق هو الابن الوحيد؟

ثانياً: التوراة تصرح بأن إبراهيم حين بشر بولادة إسحاق، قيل له أيضاً أن نسله سيتكاثر، فكيف يمكن أن يقال لإبراهيم في الوقت نفسه أن يذبح ابنه هذا؟ ومن العبث هنا أن يقال أن إبراهيم أمر بذبح إسحاق حين أصبح الأخير صاحب أولاد. وقد جاء في التوراة نفسها أن إسحاق رزق ولده الأول حين بلغ من العمر ستين

سنة، بينما صرح في قصة التضحية أن الولد الذي استعد إبراهيم لذبحه كان غلاماً. ومثله في القرآن الكريم أيضاً.

أما البشارة بالبركة في أولاد إسماعيل ورقية فلم يرد في التوراة أنها جاءت قبل ولادته أو بعد ولادته تواء، وإنما وردت في التوراة بشارة لإبراهيم عليه السلام بالكلمات الآتية: "وقال : بذاتي أقسمت يقول الرب. إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمال على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي"¹.

ويرى أهل الكتاب أن هذه البشارة لصالح إسحاق بينما الحقيقة أنه قد سبقتها البشارة الخاصة بإسحاق، ومن المعلوم أن بني إسرائيل لم يتمكنوا من ردّ أعدائهم من اقتحام أبوابهم، وأسروا مرة بعد أخرى وأخذوا إلى بابل ومصر وداسهم أعداؤهم دائماً. وبصرف النظر عن أن هذه البشارة لا تصدق مطلقاً على بني إسرائيل، وهي من حق ذلك الولد الذي كان الذبيح بالفعل. ونريد أن نقول إنه لا يمكن الأمر بذبح ولدٍ بُشِّرَ بكثرة نسله قبل التضحية به.

ثالثاً: رغم أن القرابين تمثل الجزء الأعظم من عبادات اليهود الدينية إلا أن التوراة لم تذكر في أي مكان أنها تذكر لإبراهيم وإسحاق بل جاء فيها أن موسى هو الذي وضع أساسها، وجاء تفسيراً لذلك أنه بما أن الرب أهلك أباك قوم شعب فرعون فعليهم أن يشكروا ربهم بالتضحية بأول كل إنتاجكم، وأن يذبحوا الحيوانات بدل البشر. أما نحن المسلمين فالحج عندنا فريضة معلومة، ولم يزل قائماً بين العرب من لدن إبراهيم عليه السلام، وبقي في كل مناسك الحج تذكاً لسنة إبراهيم. وسنتناول ذلك بشئ من التفصيل فيما بعد².

نظرة على الشبهة الثامنة:

نسلم بأن هناك بعض الخلاف في قصص القرآن الكريم عما ورد في صحف اليهود. ولكن هذا لا يشكك في القرآن الكريم بل يزيدنا ثقة به واعتماداً عليه. وقد

¹ سفر التكوين: الأصحاح ٢٢ : ١٦-١٨.

² يبدو من هذه الملاحظة أن الأستاذ الإمام -رحمه الله- كان ينوي مواصلة هذا البحث ولكنه لم يتمكن من ذلك (المترجم).

ظل المحققون من أهل الكتاب يصرحون منذ مدة طويلة بأن صحف اليهود غير موثوق بها، ولكن حين ظهرت النقوش القديمة في هذا القرن في مصر وبابل والشام وبعض نواحي الجزيرة العربية وانفتح باب جديد لدراسة العصور القديمة، وقع نوع من المصالحة بين ناقي التوراة وأتباعها. وبينما صدقت الكشوف الجديدة التوراة إلى حد ما أصبح من المسلم به في الوقت نفسه أنّ في التوراة الموجودة تحريفاً كثيراً وإقحاً لوقائع لا أصل لها. وهذا تصديق لعقيدتنا نحن معشر المسلمين. فنحن نؤمن بالتوراة الأصلية ونقول بأنها خضعت لكثير من التحريف والتغيير بحيث إنّ التمييز بين حقها وباطلها قد أصبح غاية في الصعوبة.

ومما يجدر ملاحظته أن القرآن الكريم يخلو من الروايات التافهة المتناقضة، وأن الوقائع التاريخية - غير قصص اليهود - التي وردت في القرآن الكريم تصدقها النقوش القديمة. أما الروايات فهي من نوعين: أحدهما من مصادر عربية خالصة والآخر مستمد من اليهود. فالتّي هي مستمدة من اليهود ليست جديرة بالاعتماد عليها في الغالب. أما الروايات المأخوذة من مصادر عربية فتصدقها أيضاً النقوش القديمة. ومن أمثلة ذلك ما كتب بعضهم يقول: "العرب يروون أن فرعون يوسف كان من العماليق وكان يسمّى ريان بن وليد.... وقد اكتشف تمثال في مصر كتب عليها بالحروف الهيروغليفية اسم ريان. ولذلك يقول الدكتور رين والمستر كوب دايتهاؤس إن هذه الرواية العربية مبنية على الواقع".

ومنها أنّ مصادرنا تقول إن زوجة فرعون موسى كانت تسمّى آسية وأنها كانت من المؤمنين. وعرف من النقوش المصرية القديمة أيضاً أن زوجته الخاصة كانت تسمّى آسية وأنها كانت تختلف عنه قوماً وديناً.

وتدلّ هذه الشهادات على أمرين، أولهما: أن التوراة ليست هي مصدر القرآن الكريم بل هو مصدر مستقل بذاته للوقائع التي يذكرها. والأمر الثاني هو أنه لا مجال للاعتراض على القرآن الكريم إذا خالف التوراة بل هي نفسها موضع الاتهام وعرضة النقض والإبرام.

ترجمة من الأردوية: د. ظفر الإسلام خان

الاسم

- د. صالح البلوشي

تعريف الاسم:

ذكر ابن منظور أن الاسم في الأصل هو العلامة توضع على الشيء فيعرف بها. ولكن ابن فارس أوضح أن هناك خلافاً بين النحويين بشأن اشتقاق الاسم، فالكوفيون يقولون إن الاسم مشتق من الوسم أي العلامة أما البصريون فيميلون إلى أنه مشتق من السمو والعلو.

الأسماء في القرآن الكريم:

ذكر القرآن الكريم كثيراً من الأسماء منها على سبيل المثال:

١. أسماء الله عز وجل مثل الرحمن الرحيم (سورة الفاتحة: ٣)، العزيز الغفار (سورة ص: ٦٦)، مالك الملك (سورة آل عمران: ٢٦)، الحكيم الخبير (سورة الأنعام: ١٨)، وغيرها.
٢. أسماء الأنبياء مثل محمد صلى الله عليه وسلم (سورة الفتح: ٢٩)، زكريا (سورة مريم: ٢)، موسى (سورة إبراهيم: ٨)، إسماعيل وإدريس وذا الكفل (سورة الأنبياء: ٨٥)، وغيرها.
٣. أسماء أعضاء الجسم مثل القلب (سورة آل عمران: ١٥)، الأعناق (سورة الأنفال: ١٢)، أرجل وأيد وأعين وآذان (سورة الأعراف: ١٩٥)، وغيرها.
٤. أسماء الحيوانات مثل الخيل والبغال والحمير (سورة النحل: ٨)، وغيرها.
٥. أسماء الطيور مثل النمل (سورة النمل: ١٨)، الهدد (سورة النمل: ٢٠).
٦. أسماء الحشرات مثل النحل (سورة النحل: ٦٨).
٧. أسماء النباتات مثل الزرع والزيتون والنخيل والأعناب (سورة النحل: ١١)، وغيرها.

٨. أسماء الملابس مثل القميص (سورة يوسف: ١٨ و ٢٥ - ٢٨ و ٩٣)، وغيرها.
٩. أسماء الألوان مثل الأبيض والأسود (سورة البقرة: ١٨)، والأخضر (سورة يس: ٨٠).
١٠. أسماء الأعداد مثل ثلاثة وأربعة وخمسة وستة وسبعة وثمانية (سورة الكهف: ٢٢).
١١. أسماء النجوم مثل النجم (سورة النجم: ١).
١٢. أسماء أخرى مثل القلم (سورة القلم: ١).

الاسم في الهدي النبوي:

اهتم الإسلام بالإنسان اهتماماً عظيماً ووضع أوامر ونواهي وسنن سنناً عديدة لترفع من قدره وتحرم النيل من آدميته، ومن بين هذه التشريعات وضع أحكاماً تنظم عملية تسمية المواليد حادثة على أن يكون الاسم حسناً جميلاً محبباً للنفس لا أن يكون قبيحاً منقراً، لذا فإن الأحاديث والهدي النبوي في هذا السياق كثيرة لا مجال لسردها كلها ونكتفي بسرده بعض منها على سبيل المثال لا الحصر.

- روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم".^١

- كذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن".^٢

- حض الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين في أن يتسموا بأسماء الأنبياء، وبعبد الله، وعبد الرحمن، وما شابهها من الأسماء المعبدة لله. فقد روى أبو داود والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "تسموا بأسماء الأنبياء،

^١ عون المعبود شرح سنن أبي داود، باب في تغيير الأسماء، رقم الحديث: ٤٩٤٨

^٢ صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢١٣٢

وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث، وهمام، وأفبحها: حرب ومرة" (مرة تعني قوة وشدة وبطش)^١.

- يجب تجنب الاسم القبيح الذي يمسّ كرامة الإنسان، ويكون مدعاة للاستهزاء به والسخرية منه. روى الترمذي^٢ عن السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان يغيّر الاسم القبيح". لذا قام صلى الله عليه وسلم بتغيير اسم ابنة عمر من "عاصية" إلى "جميلة" (رواه الترمذي وابن ماجه)، وغير أسماء مثل "عتلة" (تعني الشدة والغلظة) و"حرب"، و"شيطان"، و"حباب" (نوع من أنواع الحيات وقيل اسم شيطان).

- يجب تجنب الأسماء التي لها اشتقاق من كلمات فيها تشاؤم. روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده قال: "أتيت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: ما اسمك؟ قلت: حزن (ما غلظ من الأرض)، فقال: أنت سهل، قال: لا أغيّر اسماً سمّانيه أبي. قال ابن المسيب: فما زالت تلك الحزونة (يعني الغلظة) فينا بعد"^٣.

- تجنب الأسماء المختصة بالله سبحانه مثل (الصد)، و(الخالق)، و(القيوم)، و(الرحمن)، وغيرها. في ذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه: رجل تسمّى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله"^٤.

- كذلك نهى عن الأسماء المعبدة لغير الله تعالى مثل عبد العزى وعبد الكعبة وعبد النبي^٥.

من الجدير بالذكر أن بعضاً من علماء المسلمين من أمثال الشيخ عبد الله علوان أشار بضرورة تجنب أسماء فيها تميّع وتشبه وغرام مثل أسماء هيام، وميادة، وناريمان، وغادة وما شابهها وذلك حتى "تتميز أمة الإسلام بشخصيتها وتعرف بخصائصها وذاتيتها"^٦.

^١ سنن أبي داود، رقم الحديث: ٤٩٥٠

^٢ سنن الترمذي، رقم الحديث: ٢٨٣٩

^٣ صحيح البخاري، رقم الحديث: ٥٨٤٠

^٤ صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢١٤٣

^٥ الفروع لابن مفلح: ص ٥٦٠

^٦ تربية الأولاد في الإسلام، ص ٨١

أهمية الاسم:

يعدّ الاسم واحداً من أكثر الأمور أهمية في حياة الإنسان فيه يتميز عن غيره وتعرف الأمة التي ينتمي إليها، وهو هوية الإنسان والشعوب والجماعات وجزء لا يتجزأ من حياته وشخصيته حيث يستخدمه في حياته طوال عمره ويتوارثه من بعده أبناءه وأحفاده. لا شك أن الحياة من دون أسماء ستكون صعبة وحتى يمكن الاستدلال لشخص ما فإنه يلزم ذكر ملامح وجهه أو طوله أو وزنه أو صفاته حتى يمكن للسامع أن يميزه.

إضافة لذلك فالاسم يخبر الكثير عن حامله ووالديه وخلفياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية والمذهبية وما يحبونه وما لا يحبونه، وما يفضلونه وما يتجنبونه. على سبيل المثال عندما نسمع عن شخص اسمه أحمد فإننا نعلم أنه لا شك مسلم، أما اسم جورج فيدل على أن حامله غير مسلم.

أهمية الاسم في المجتمعات ذات الأعراق المتعددة:

يمكن فهم أهمية الاسم عند تفحص دولة يعيش بها عدة أعراق وأجناس ويحتفظ كل عرق وجنس بخصائصه اللغوية وعاداته وتقاليده وثقافته ويحافظ عليها. في مثل هذه الدول نجد أن الاسم يلعب دوراً محورياً في تحديد هوية الأفراد ومعرفة جذورهم. فماليزيا على سبيل المثال دولة مجزأة جغرافياً لجزئين: الأول شبه الجزيرة ويقع في الغرب وأغلب سكانه من الماليزيين الأصليين (يطلق عليهم اسم أورانج أصلي) وبشاطرهم الصينيون والهنود، والجزء الثاني يقع في الشرق ويتكون من ولاية صباح (يسكنها بصفة رئيسة عرق يسمى كادازان) ومن ولاية ساراواك (تسكنها العديد من الأعراق مثل إيبان، وبيدايوه، وغيرهما). على الرغم من أن اللغة الرسمية في ماليزيا هي اللغة الماليزية والدين الرسمي هو الإسلام إلا أن سكانها يتحدثون عدة لغات ويدين بعض السكان بأديان غير الإسلام مثل المسيحية والبوذية والهندوسية.

لذا فإنه من الاسم فقط يمكن تحديد هوية الشخصية دون معرفة أية تفاصيل أخرى غير الاسم. على سبيل المثال اسم مثل "عبد الله" أو "أمينة" يفيد أن حامل الاسم مسلم بغض النظر عن العرق الذي ينتمي إليه (ماليزي أو صيني أو هندي،

إلخ). أما اسم مثل "تينج سوي هوك" (Teng Swee Hock) فإنه يفيد أن حامل الاسم صيني ذكر سواء كان مسيحي الديانة أم لا، أما "تينج لي تي" فهي صينية أنثى مسيحية أو غير مسيحية (Teng Lee Ti). أما بالنسبة لأسماء الهنود الماليزيين فإن أسماءهم بغض النظر عن دينهم (هندوس أو مسيحيين) تكون مثل "راجوناثان راماسامي" (Ragunathan Ramasami) للذكور و"سوميتا راماسامي" (Sumitha Ramasami) للإناث. كما يحدث أن يستخدم الصينيون المسلمون أسماء تتوافق مع الأسماء الإسلامية مثل ألكساندر بن أبراهام (Alexander Bin Abraham) للذكور، وأمى بنتي باتريك (Amy Binti Patrick) للإناث.

دلالات التسمية:

تشير التسمية لعدة أمور يمكن إيجازها في النقاط التالية:

١. بعض الأسماء تشير إلى أن حامل الاسم ولد في بقعة جغرافية معينة أو نشأ فيها أو أمضى فترة من حياته فيها أو أقام فيها أو رحل إليها، ويحدث أن يورث الاسم لذريته من بعده فيصبح اسماً لسلالته، مثال ذلك أسماء مثل العسقلاني أو الخوارزمي. يتشابه ذلك مع بعض أسماء العوائل الغربية والأمريكية حيث نجد أسماء مثل "ويست" أي الغرب، و"ثورث" أي الشمال، و"إيست" أي الشرق بمعنى أن العائلة في الأساس قدمت أو استوطنت جهة الغرب، والشمال، والشرق على التوالي.
 ٢. يشير الاسم في أحيان أخرى إلى المهنة التي كان يقوم بها الجد الأكبر مثل الخياط أو الصباغ أو الصائغ أو الدهان. نجد أن هناك تشابهاً في أنماط التسمية في الأسماء الأوروبية والأمريكية فمثلاً هناك أسماء عوائل مثل "باربر" أي الحلاق، و"بلمبر" أي السمكري، و"بيكر" أي الخباز.
 ٣. يمكن أن يكون من بين أسماء الأفراد أو العوائل ما يشير إلى فكره أو دينه أو مذهبه الفقهي أو عالم جليل يحترمه مثل الشافعي.
 ٤. الاسم يشير إلى ما يتمناه الوالدان أن يصير إليه وليدهما والصفات التي يحبان أن يكتسبها مثل سعيد وثابت للذكور، وشيخة وسليمة للإناث.
- أنماط التسمية:

تلعب عوامل عدة مثل البيئة، والثقافة، والمناخ، وتضاريس الأرض، وغيرها دوراً بارزاً في تأسيس نظام التسمية عند الشعوب والمجتمعات، وهذا النظام قابل للتغير خلال فترات التاريخ ومن وقت لآخر، لذا فإن كل مجتمع يؤسس نظام التسمية الخاص به حسب حاجاته ومعتقداته وتطلعاته، ومجمل القول أنه لا يوجد نظام تسمية واحد لمجتمع ما يستمر معه طوال التاريخ دون إدخال أي تغييرات عليه وإن كانت طفيفة.

تختلف أنماط التسمية من مجتمع لآخر ويحدث أن نجد في المجتمع الواحد عدة أنماط مختلفة للتسمية، ويرجع السبب في ذلك لعدة عوامل مثل المنشأ، والدين، والمذهب، والعرق، والمكان، والزمان، وتاريخ المجتمع، والتجارب التي مرّ بها أفراد المجتمع.

من ناحية أخرى فإن تسمية المواقع الجغرافية تتبع في الأساس في أن الاسم يعكس صفات وطبيعة الموقع. بمعنى آخر فإن الاسم عبارة عن رسالة للسامع الذي حالما يسمعها فإنه يبني تصوراً عن المكان حتى قبل رؤيته، ويتضح ذلك جلياً في أسماء مثل آيسلاند (Iceland) أي أرض الثلج وجرينلاند (Greenland) أي الأرض الخضراء وغيرهما.

على الرغم من الاختلافات الحاصلة في أنماط التسمية من مجتمع لآخر إلا أنها كلها مبنية على حقيقة واحدة تتمثل في أن الاسم يؤكد وجود الشخص أو الشيء وأنه عبارة عن كيان منفصل عن غيره. في هذا السياق لا يفوتنا أن نذكر أنه على الرغم من الشبه الشديد بين التوائم لدرجة أنهما يبدوان كما لو أنهما شخص واحد في جسدين مختلفين إلا أن لكل فرد منهما اسماً مغايراً لاسم الآخر، ويتجه الكثير من الوالدين إلى إطلاق تسميات متشابهة للتوأم ليصدر الاسمان صوتاً موسيقياً عند ذكرهما مثل عبد الرحمن وعبد الرحيم، طارق وطاهر، وسلمان وسليمان، ومريم وماريا، زهرة وزهور، وسلمى وسليمة، ... إلخ. كذلك هو الحال في المجتمعات غير العربية والإسلامية فنجد أن أسماء التوأم متقاربة مثل باتريك وباتريسيا، ريتشارد وروبرتس، ريكي وروبي، وجوزيف وجوديث ... إلخ.

اتجاهات تغير الأسماء:

يحدث خلال فترات من التاريخ أن يكون لاسم ما شعبية كبيرة بين الناس في

مجتمع ما، ولكن بعد فترة من الزمن ينكمش هذا الانتشار لسبب أو لآخر. مثلاً، يحدث صعود نجم قائد أو حاكم أو شخصية شعبية محبوبة ومعروفة في مجتمع ما فإن أفراد المجتمع يتشرفون بإطلاق اسمه على أبنائهم، فإن أقل نجمه بعد فترة من الزمن أو فقد شعبيته لسبب من الأسباب فإن تسمية المواليد الجدد باسمه سينخفض وقد يحدث أن يختفي تماماً من ذات المجتمع. أما الشخصيات التي لم يعرف عنها سوى الجوانب السلبية فلا غرابة أن اسمه يعدّ اسماً شاذاً. على سبيل المثال فإنه من النادر أن يخلو بيت مسلم من ذكر اسم "محمد" وذلك تيمناً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

تسمية المواليد في سلطنة عمان:

عند رغبة الوالدين في تسمية مولود جديد لهما فإنهما في العادة يختاران اسماً له أهمية كبيرة لهما يتوافق مع رغباتهما وتطلعاتهما مع مراعاة البيئة التي ينتميان إليها، وليس من الضروري أن تكون الأسماء المفضلة في مجتمع ما هي ذاتها في مجتمع آخر، وكما أنه ليس بمستغرب وجود أسماء مفضلة بين شريحة من أفراد مجتمع ما لكن ذات الأسماء مرفوضة لدى شريحة أخرى من المجتمع ذاته؛ ففي سلطنة عمان تكاد معظم الاسماء تؤخذ مما يلي:

١. من القرآن الكريم (مثل: سلسبيل، استبرق).
٢. من أسماء النبي محمد صلى الله عليه وسلم (مثل: محمد ، أحمد).
٣. اسم أحد نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم (مثل: خديجة).
٤. اسم بنت من بنات النبي محمد صلى الله عليه وسلم (مثل: فاطمة).
٥. اسم أحد الأنبياء (مثل: عيسى، موسى، ... إلخ).
٦. اسم أحد الصحابة (مثل: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، ... إلخ).
٧. اسم ظاهرة طبيعية (مثل: مطر، غيث، رعد، ... إلخ).
٨. اسم نجم أو كوكب (مثل: هلال، بدر، كوكب، ... إلخ).
٩. اسم سلاح (مثل سيف).
١٠. اسم نبات (مثل: زهرة، ياسمين، ... إلخ).
١١. اسم أحد الوالدين أو كبار السن.

١٢. اسم أحد الأعمام المتوفين (مثل: أخ، أو أخت، أو خال، أو عمّة، ... إلخ).
١٣. اسم أحد الشهور الهجرية (مثل: رجب، رمضان، ربيع، ... إلخ).
١٤. اسم من أيام الأسبوع (مثل: خميس، جمعة، خميسة، ... إلخ).
١٥. اسم حيوان (مثل: فهد، ريم، ... إلخ).
١٦. اسم وقت من أوقات اليوم (مثل: ضحى، فجر، ... إلخ).
١٧. اسم من أسماء العفة (مثل: طاهره، معصومة، ... إلخ).
١٨. أمنية للوالدين (مثل: محفوظ، منصور، ثابت، مرزوقة، جميلة، ... إلخ).
١٩. رؤية يراها أحد الوالدين خلال فترة الحمل.
٢٠. نصيحة أو مشورة أحد كبار السن من أفراد العائلة بإطلاق اسم معين على المولود.
٢١. اسم شخصية من شخصيات التاريخ (مثل: صلاح الدين).
٢٢. الأسماء الحديثة (مثل: لقاء).
٢٣. اسم من أسماء الأماكن الجغرافية (مثل: قدس، هند، ... إلخ).
٢٤. اسم مناسبة دينية (مثل: إسراء، معراج، ... إلخ).
٢٥. اسم مكان في الجنة (مثل: الريان، الكوثر، ... إلخ).
- وغير ذلك من المصادر والمعاني والدلالات التي يتم اختيار الاسم بالاشتقاق منها أو تكون سببا للتسمية بها تيمنا أو تزامنا مع حدوثها.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور: لسان العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٥م
٢. مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٧م
٣. الصاحبى: الصاحبى فى فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب فى كلامها، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٧م
٤. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م
٥. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي: سنن أبى داود، دار ابن حزم، لبنان، ١٩٩٨م
٦. محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك الترمذي: سنن الترمذي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٩م
٧. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠١م
٨. علوان، عبد الله ناصح: تربية الأولاد فى الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م

التأثيرات الحضارية بين عمان والهند في النصف الأول من القرن العشرين - الثقافة والفنون أنموذجاً¹

- د. عفاف السيد عبد المجيد العلي

توطئة:

يموج العالم اليوم بنظريات تمحورت إلى خطوط سياسية استراتيجية عديدة، تتبع جميعها من فكرة واحدة هي "السيطرة الاستعمارية" ولكن في صور أخرى، إما ثقافية كما في نظرية "صراع الحضارات" لصامويل هانتجتون، وإما أيولوجية كما في نظرية "نهاية التاريخ" لفوكوياما، أو من وجهة نظر متعددة الأبعاد والأركان كما في طوفان العولمة الذي يفرضه القطب الأوحّد الآن.

وبعيداً عن هذه النظريات والتطبيقات وتلك التكهّنات، فإننا من وجهة نظر أكاديمية وعلمية نحاول تتبع مسار التاريخ والواقع للوصول إلى الحقيقة، ونحاول أن نرصد المسار الذي يحدث من جراء التفاعلات بين الحضارات والثقافات على مختلف منابعها شرقاً وغرباً.

فموضوع التأثيرات الحضارية بين الثقافات في شقي القارة الآسيوية وما ينتج عنه من تأثير حضاري متبادل بين الشعوب والأمم والإثنيات والأيدولوجيات هو الذي يبيّن مدى ما بين الحضارات، سواء أكان صراع صدام، أم تفاعل وتلاقح. ومن هذا المنطق تحاول الورقة البحثية أن تقدم أنموذجين لثقافتين مختلفتين، وإن كانتا جميعاً تتدرجان تحت لواء حضارات آسيا، لكن ثمة اختلافات عظيمة

¹ هذه المقالة قدمت في الندوة الدولية حول عمان والهند: آفاق و حضارة، المنعقدة في فبراير- مارس ٢٠١١م بمركز الدراسات العمانية، جامعة السلطان قابوس

بينهما، ورغم ذلك فقد لوحظ كثير من التأثيرات المتبادلة حتى درجة التطابق في بعض العادات والتقاليد والسلوكيات والاتجاهات، مما يؤكد أيضاً على أن عمليات التفاعل ما زالت مستمرة، ويؤكد أيضاً أن ثمة تأثيرات أخرى بين الحضارات تتم في الواقع وفي التاريخ بعيداً عن تلك الدائرة التي يريد أن يحصرنا فيها منظروا الغرب من: العولمة -الصدام - ونهاية التاريخ-

ولعل الخطوة الأولى في أي عمل علمي أن يعرف الباحث بالظاهر موضوع الدراسة، وأن يبين جوانبها المختلفة، وأن يحاول ربطها بالظواهر الأخرى المحيطة، مما يسهم في تقديم فهم أوفى وأدق لهذه الظاهرة، وفي مجتمع مثل المجتمع العماني في النصف الأول من القرن العشرين، تكشف العادات والتقاليد عن جوهر التراث الثقافي الذي امتزجت فيه قيم المجتمع العماني ومبادئه وأخلاقه، التي تميّزت بسمات عامة أهمّها المرونة، بحيث استطاعت استيعاب قدر كبير من ثقافات مجتمعات الجوار.

ويمكن القول باطمينان شديد أن هذه الثقافة أهّلته دائماً لقبول الآخر، وهي ثقافة منشودة في كافة الأوساط الدولية اليوم ولعل مجتمع الهند يأتي في مقدمة تلك المجتمعات، نظراً لطبيعة العلاقات التاريخية البحرية والتجارية بين البلدين، وقد استوعب المجتمع العماني الثقافات التي اكتسبها عن طريق الاحتكاك وطورها بما يتماشى مع النسق العام لعاداته ومعتقداته، دونما تفريط أو إفراط ولعل أهم ما يميز الثقافة الاجتماعية لكل من المجتمعين بساطتها وقدرتها على التعبير عن الممارسات اليومية، بحيث جعلت من تلك التجارب الإنسانية عادات وتقاليد، يعتقد بها أفراد المجتمع ويؤمنون بصحتها، وأن هناك ثمة تجليات متبادلة فيما يخص الفنون الإبداعية.

وهذا ما تحاول محاور الورقة البحثية أن تقدّمها، كمحاولة منها لتبرهن على أن هناك حواراً راقياً وتبادلاً محموداً وتزواجاً ثقافياً وفنياً رائعاً، وليس بالضرورة التسليم بوصف العلاقة بين الحضارات بمصطلح (صراع طبيعي) كما قال هانتجتون.

المنهج البحثي المستخدم:

وقد اتبعت في ورقتي البحثية تلك المنهج التاريخي الذي يهتم بالمصادر الأساسية والوثائق لتفسير الظاهرة، أي أنه يتخطى رصد الظاهرة إلى النقد

والتحليل، وهو منهج يرفض التجريد، ويتجاوز الحواجز بين الأفكار والنظم السياسية، ويركز على دراسة الواقع. وقد تضمنت الورقة جانبين مهمين من جوانب التأثير الحضاري بين الهند وعمان وهما:

أولاً: التأثيرات الحضارية في النواحي الثقافية:

واشتملت على محورين:

- التأثيرات الهندية العمانية المتبادلة في جانب اللغة.
- التأثيرات الهندية العمانية المتبادلة في جانب الأدب.

ثانياً: التأثيرات الحضارية في الفنون والعمارة:

واشتملت على محورين:

- الفنون الشعبية.
- الفنون المعمارية بين الهند وعمان.

إن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الهند وعمان يجدها قديمة عميقة ممتدة، تلك العلاقات التي تركت تأثيرات حضارية قوية على كلا الجانبين في جميع مجالات المجتمع (الاقتصادية- والاجتماعية -الثقافية) ما زالت قائمة حتى الآن، حيث نرى كثيراً من تجليات الحضارة الهندية تلقى بظلالها على الحضارة العمانية والعماانيين الذين عاشوا المهاجرين الهنود على أرض عمان، تلك التأثيرات الحضارية التي تعد نموذجاً للمؤثرات المتبادلة بين العرب والهنود ولعل أبرز تلك التجليات المتبادلة للحضارة الهندية فيما يخص النواحي الثقافية (بكافة روافدها) على نظيرتها العمانية، وقبل التبحر في تلك التجليات وجدنا من المناسب أن نتوقف أمام مصطلح الثقافة قبل رصد تأثيراتها.

مصطلح الثقافة في اللغة العربية: هي الحذق والتمكن، و(المثاقفة) أي الملاعبة بالسيف، وتقف الرمح أي قومه وسواه، ويستعار بها للبشر فيكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب، ومصطلح الثقافة من أكثر المصطلحات استخداماً في الحياة العربية، وبالتالي فهو من أكثر المصطلحات صعوبة على التعريف؛ ففي حين يشير المصدر اللغوي والمفهوم المتبادر للذهن والمنتشر بين الناس إلى حالة الفرد العلمية الرفيعة المستوى، فإن استخدام هذا المصطلح كمقابل لمصطلح (Culture) في اللغات الأوروبية تجعله يقابل حالة

اجتماعية شعبية أكثر منها حالة فردية، فوفق المعنى الغربي للثقافة: تكون الثقافة مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري، بغض النظر عن مدى تطور العلوم لديه أو مستوى حضارته وعمرانه. والتأثيرات الثقافية في أيّ مجتمع تعدّ من أهمّ نواتج العلاقات (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية) بين المجتمعات، وتعدّ التأثيرات الثقافية بين الهند وعمان من أبرز الأمثلة على ذلك.

بعض من تجليات اللغة الهندية على اللغة العمانية:

كان من الطبيعي بعد هذا التواجد الهندي في عمان لفترات طويلة، وبعد الاحتكاك اليومي بين الجماعات الهندية الوافدة والسكان الأصليين أن تتأثر بعض مظاهر الحياة بهذا الوجود، وكانت اللغة - لغة الحياة اليومية- من أبرز تلك الأمور، التي بدا فيها بوضوح التأثير الهندي، حيث دخلت مفردات اللغات الهندية إلى لهجة أهل عمان.

وفي نفس الوقت تأثرت اللغة الهندية في المناطق الساحلية والمدن الكبرى أكثر منه في الداخل، ويرجع ذلك للصلات التاريخية بين الهند وعمان منذ أقدم العصور وخاصة تلك الصلات ربطت بين الطبقة التجارية وبين المناطق التي سكنتها الجاليات الهندية في مسقط، فبناء على الاحتكاك التجاري نتج احتكاك آخر، إذ حدث تبادل لغوي- إذا جاز لنا التعبير، فتجار عمان الذين قاموا بزيارات منتظمة إلى "بومباي" قد عرفوا كلمات هندية نتيجة احتكاكهم بالمجتمع الهندي، حيث استخدم هؤلاء كلمات هندية لقضاء أمورهم، وإنجاز معاملاتهم التجارية، لأنهم في كثير من الأحيان لم يجدوا لها مقابلاً في لغة التعامل مع الجالية الهندية المقيمة في مسقط، الأمر الذي دفعهم إلى استخدام الكلمات الدالة على تلك الاحتياجات مثل "سبتيال" بمعنى "مستشفى" و"الترام" بمعنى "القطار"، و"ريس" بمعنى "سباق الخيل" الذي كان يقبل عليه العمانيون أثناء تواجدهم في بومباي.

علاوة على أن لغة الهنود في بلادهم الأصلية قد تأثرت بمصطلحات أجنبية من اللغة الإنجليزية- بحكم الاستعمار البريطاني للهند- وقد نقل الهنود هذا التأثير معهم في هجراتهم إلى عمان، حيث أصبحت لغة التداول والتعامل اليومي بين الجاليات الهندية على اختلاف أنواعها، وبين السكان الأصليين.

ومع مرور الوقت أصبحت لغة التداول والتعامل بين أهل البلاد أنفسهم مثل كلمة "Seat" بمعنى مقعد، و"Light" بمعنى ضوء، وليس بمعنى رخصة قيادة. علاوة على كلمات فارسية الأصل نقلتها الجاليات الهندية التي استوطنت عمان، وتأثرت بها اللهجة العمانية، بل وأصبحت من مفردات أفرادها اليومية مثل "استكانة الشاء" والتي تطلق على "كوب الشاء" المصنوع من الزجاج، و"بشكار" بمعنى الخادم؛ بل والأكثر من ذلك أن اللغة العربية بشكل عام قد تأثرت باللغة الهندية، فكلمة البارجة أي البواخر الحربية- والموز، والصندل، كلها كلمات هندية الأصل^١

ويبدو التأثير الهندي فيما يخص النواحي اللغوية، كلما حدث اتصال هندي بوجه من وجوه الحياة في عمان، فكلما زاد الاحتكاك والاتصال زاد التأثير في استخدام مفردات من لغتهم مثلما حدث في تجارة اللؤلؤ، حيث لوحظ أن العمانيين استخدموا كلمات من أصل هندي.

جدول يوضح تأثير اللغات الهندية على وجوه الحياة العمانية فيما يخص النواحي التجارية^٢

الكلمة الهندية المستخدمة	معناها	نواحي أوجه استخدامها	ملاحظات
دانة Danna	اللؤلؤة المنيرة الغالية جداً	صيد اللؤلؤ	
جيوان Jiwan	اللؤلؤة المستديرة البيضاء	صيد اللؤلؤ	
البوكا Buka	لؤلؤة صغيرة رخيصة	صيد اللؤلؤ	
السنقباس Sinkpsy	لون لؤلؤ يشد فيه الأزرق ويميل إلى الرمادي	وزن اللؤلؤ	لفظ هندي يستخدم لدلالته على لون
التشا أو الجو Joe	الوحدة المستعملة	لبيع اللؤلؤ	

^١ آثار العمالة الأجنبية على الثقافة العربية، ص ١٢

^٢ المصدر نفسه، ص ١٣

		للتداول	
	المعاملات التجارية	وحدة وزن اللؤلؤ	بالراتي Plarate
المن يساوي ٥٧٠٦ رطل إنجليزي	المعاملات التجارية	وحدة وزن البضائع	المن Mnn
عملة الهند	المعاملات التجارية	العملة الهندية	روبية "رانة"
	المعاملات التجارية	عملة نحاسية	بيزان

وفيما يلي جدول يوضح تأثير اللغات الهندية على وجوه الحياة العمانية فيما يخص النواحي الملاحية^١

الكلمة الهندية المستخدمة	معناها	نواحي أوجه استخدامها	ملاحظات
بلم	القارب	فنون الملاحة	
هوري	مركب صغير	فنون الملاحة	
كوتيه	سفينة خشبية	فنون الملاحة	
براونة	مروحة المركب	فنون الملاحة	
كولي	الحمال	فنون الملاحة	
التنديل	الشخص المسئول عن العمال	فنون الملاحة	

وفيما يلي جدول يوضح التأثير على النواحي الحياتية داخل المنازل العمانية^٢:

اللفظ الهندي	استخدامه في اللغة العربية	ملاحظات
تبكة	مروحة الهواء	داخل المنازل العمانية
تاوه	آنية عمل الخبز	
موري	حوض غسيل اليد	
بنات	مفاصل الباب	
وتيه	ورقة	مشتقة من الكلمة الهندية

^١ تاريخ صناعة السفن، ص ٣٦٨، ومعجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات والساحل العماني، ص ١٢-١٧،
والعرب في بومبائ، مجلة البعثة، ص ٢٩

^٢ جولة في الخليج العربي، ص ١٧

		"بته" بمعنى رزمة ورق
جوبت	مسحوق الزهرة	يستخدم لتزهير الملابس
أوتي — إستري	المكواة	
كمجه	ملعقة	محرفة عن الكلمة الهندية جمجمة
سامان	أثاث	
تجوري	الصندوق الخشبي	
كجره	القمامة	
استكنة	كوب الشاي الزجاجي	من أصل فارسي
سيدا	اتبع الطريق المستقيم	عند السؤال عن الطرق "اتجاهات"
سم سم	نعم	في الحياة اليومية

وبتحليل ما جاء في الجداول من معلومات يتضح ما يلي:

- المصطلحات التي استخدمت في عمان خاصة وفي الخليج العربي بشكل عام في صيد وتجارة اللؤلؤ كلها ألفاظ ذات أصل هندي.
- الأوزان التي استخدمت في وزن حبات اللؤلؤ كانت أوزان هندية مخصوصة لهذا الغرض.
- عملة التداول فيما يخص تجارة اللؤلؤ كانت العملة الهندية.
- مثلث التجارة الملاحية قاسماً مشتركاً بين الهند وعمان، وكانت من أيسر الأمور التي اتضح من خلالها التأثير الحضاري المتبادل بين البلدين.
- لقد كان العمانيون منذ القدم "رواد البحر" وكانت لهم ريادة عربية وسيطرة قديمة على التجارة الملاحية وركوب البحر، وكانت الهند الشريك الأول في هذا لإنجاز تلك الريادة العمانية.
- تأثرت اللغة العربية بالمصطلحات الهندية الخاصة بالملاحة وأنواع السفن العاملين عليها.

وقد لوحظ أيضاً أن التأثيرات اللغوية الهندية لم تقف فقط عند النواحي الاقتصادية والملاحية؛ بل تطرقت تلك التأثيرات أيضاً إلى النواحي الحياتية، فقد انتشر

كثير من الكلمات الهندية داخل المنازل العربية في عمان، واستخدمها العمانيون في حياتهم العادية اليومية.

وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك ثمة تأثيرات للغة العربية على اللغات الهندية، وليس أدلّ على حدوث تأثير حضاري في اللغة بين الجانب العربي العماني والهند أكثر من كتاب الشيخ المقدس "جورو جرننت صاحب" كمثال حي على تأثير اللغة العربية على الثقافة الهندية، حيث وجد به حوالي ١٣٤٣ كلمة عربية، وقد تضمنت الورقة بعضاً من هذه الكلمات التي تسلط الضوء على التفاهم اللغوي الثقافي بين الهند وعمان^١.

^١ جدول يوضح تأثير اللغة العربية على لغات الهند:

ملاحظات	معنى الكلمة	اللفظ الأصلي للكلمة باللغة العربية	الكلمة العربية بالطريق التي وردت في كتاب الشيخ المقدس
	الرحمن	رحمن	RAHMAN
	الرحيم	رحيم	RAHIM
	الرسول	رسول	RASULEY
	شهر الصيام	رمضان	RAAMJANA
		رمضان	RAMADANA
	المنزه	سبحان	SUBHAN
	السجدة	سجدة	SAJDA
	التحية	سلام	SALAM
	الشريعة الإسلامية	شرع	SARA
	المرشد	شيخ	SHAIKH
	الذي ينتمي إلى الطريقة	صابري	SABRI
	الصابرية	صوفية	SOPHIA
	جمع الصوفى	فقر	PHAKRU
	الفقر، الزهد، الزاهد	فقير	PHAKIRA
	الزاهد	قادر	KADIR
	القدير	كريم	KARIM
	الكريم	مسلم	MUSLIM
	المسلم	مسلمان	MUSLMAN
		مسلمانى	MUSLMANI
	جمع الشيخ	مشائخ	MASA'IK
	المعرفة	معرفة	MARPHART
	اسم للنبي	موسى	MUSA
	لقب العلماء	مولانا	MOLANA
	النعم	نعمة	NIYAMAT

(أ) التأثيرات الهندية العمانية المتبادلة في الأدب

أولاً: تجليات الشعر الهندي على نظيره العماني:

على أي حال كان لا بد من إعطاء لمحة عن الشعر الهندي مقوماته وتأثيره الحضاري، حيث يعد القرن العشرون مرحلة انتقال عظيمة الأهمية بالنسبة للهند العصرية، وفيه نهضت الهند نهضتين: نهضة سياسية وأخرى علمية وأدبية، وقد سارت النهضة العلمية الأدبية بخطوات بطيئة، احتلّ فيها الشعر مكانة عظيمة في النهضة الأدبية، وأشهر شعراء الهند وفلاسفتهم في هذا العهد المصلح الكبير "رابندرانات طاغور"¹ والذي كان شعره يحمل النزعة الدينية والاجتماعية، ظهر شعراء عرفت قصائدهم الشعرية بالشعر الحماسي ومنهم الشاعر "نيرالا" ومن أهم أعماله قصيدة "السيل"²

والجدير بالذكر أن الشعر في الهند قد تأثر بالاستعمار البريطاني للبلاد، حيث ظهر مجموعة من الشعراء يكتبون شعرهم باللغة الإنجليزية، مثال الشاعرة: (ساروجيني نايدو)، وكان لمجهوداتها أثر كبير في رفع مستوى الفتاة الهندية³.
على أي حال لا خلاف على أن كل أدب من آداب الدنيا يمتاز بنزعات وخصائص تعطيها شخصيته المميزة والتي تميزه عن غيره من الآداب الأخرى،

للمزيد حول ما جاء في الجدول من معلومات راجع: أحمد الفاروقي: المرشد نانك في المنظور الإسلامي، مقال منشور في مجلة ثقافة الهند، ١٩٩٢م، ص ٨١-٨٣

¹ ومن نماذج شعره الذي يفيض بالعشق الإلهي:
حقاً إن فرحتي لغامرة فقد هبطت إليّ من عليائك يا ملك السموات!
أين يكون حبك إذا لم أكن أنا موضع ذلك الحب. لقد أشركتني في كل هذا الملكوت حقاً إنك ملك الملوك وقد نشرت كل هذا الجمال والبهاء لكي تأسر فؤادي وهل لهذا يملأ حبك شفاف قلبي وحنايا وجداني

² نيرالا: هو الشاعر "كيرال نيرالا" ولد سنة ١٨٩٦م، ولعب بباعث مجد الهند القديم، ومن أهم أشعاره:

إيه أيها السيل العرم يا من لا تصده قوة علي وجه الأرض

أنت اليوم تكتسح لكل ما يعترضك من عقبات

وأنت اليوم تحرّر الروح الثائرة ولا أحزان ولا دموع بعد اليوم

لقد مسح الليل كل شئ فلتنقف الدنيا وليشهد العالم

علاوة على باقي أشعاره التي أثرت في إشعال روح الحماسة ضد الاستعمار مثل قصيدة جاء فيها بيت شعر كان له تأثير حماسي قوي: "هبوا هبوا يا نيام... أشرق في الكون أضواء الفجر". للمزيد يمكن الرجوع إلي:

الهند وتاريخها، ص. ١٩

³ ساروجيني نايدو: هي شاعرة هندية ولدت في يومئذ سنة ١٨٨٠م، تلقت تعليمها في لندن، وكانت شاعرة ومصلحة اجتماعية، وكانت قائدة لحركة نسوية، حيث كانت رئيسة للمؤتمر النسائي الهندي لتعليم الفتاة عام ١٩٢٥م. راجع: الهند وتاريخها، ص ١٩٠. وثقافة الهند: العدد الأول من المجلد ٢٣. يناير ١٩٧٣م، ص ١٥٧

وخاصة إذا كان ذلك الأدب أصيلاً ونابعاً من جوهر إنساني خصب، والدارس لأدب عمان الحديث بصفة عامة والشعر بصفة خاصة يلمح مجموعة من الخصائص المتلازمة والمتشابهة مع الأدب والشعر الهندي، وخاصة (الشعر الأردوي)، حيث جاء الأدب في كلا البلدين معبراً عن شخصيته الحضارية وعن مناقبهما الخلقية وتطلعاتهما المستقبلية.

وليس معنى ذلك أن هذه الخصائص والنزعات لا توجد في آداب أخرى، فهي موجودة بشكل متفرق في آداب عديدة، ولكن أنصارها معاً جاء واضحاً في الأدب العماني، وملحوظاً في شبيهه من الأدب الهندي.

وإذا أردنا أن نجمل النزعات والخصائص في كلا البلدين وجدنا أن هناك مجموعة من الظواهر الهامة التي من أبرزها:

١. شعور الغربة والحنين إلى الوطن.
 ٢. نزعة التحرر الفكري والتأمل الفلسفي.
 ٣. نزعة الالتزام والمشاركة الاجتماعية.
 ٤. النزعة الإنسانية المتسامحة.
 ٥. الاهتمام بتصوير الأجواء المحلية.
 ٦. التأكيد على النزعة العربية والدينية الراسخة.
- والجدير بالذكر أن هناك عدة عوامل موضوعية تمثلت في المكان والأرض، وعوامل ذاتية في الشعب والأفراد أدت إلى ظهور تلك النزعات في الأدب والشعر العماني - الهندي وتلك العوامل يمكن إجمالها فيما يلي:

١. ان شعب عُمان تجاري بحري ينزع إلى التجارة والحركة والهجرة.
٢. وجود جاليات أجنبية في عمان مثل: الإيرانية، والهندية بصفة خاصة؛ خلق نوعاً من ردة فعل نفسية؛ لذا جاء الشعر والأدب عند تلك الجاليات، وخاصة الجاليات الهندية التي استوطنت عمان، يتميز بشئ من "الغربة".
٣. ارتباط الشعر الحديث في كل من البلدين بالدعوة الإصلاحية والنهوض الثقافي والاجتماعي، ليس من قبيل المصادفة أن نلاحظ أن أوائل الشعر في العصر الحديث كانوا على صلة وثيقة بالحركات الاجتماعية والإصلاحية مثل المصلح السياسي والأديب الهندي (محمد إقبال).

٤. تمثل عمان منطقة جذب لكثير من المؤثرات المتسربة من بعض الهجرات التي أتت إليها من بعض مناطق آسيا وخاصة من الهند، لذلك نجد الأدب فيها يحمل نزعة عربية ودينية راسخة ضد تلك المؤثرات، وعلى الجانب الآخر نجد الأدب والشعر الهندي جاء كذلك نظراً لهجرات عديدة قام بها الهنود خارج وطنهم، فجاء أيضاً أدبهم يحمل نزعة الحفاظ على الهوية ومتضمناً نزعة التمسك بالخصائص والميزات القومية لديهم، حيث يمكننا اعتبار أنه ثمة نوع من "أدب المهجر" قد نشأ في كل من القطرين، الهند وعمان.

٥. غير أن هناك ميزة أخرى ميّزت الأدب العماني عن غيره، فقد جاء الأدب والشعر في عمان خالياً من طابع التعصب، فعلى الرغم من الموقف الحذر للإمامة الإباضية تجاه كل المؤثرات الخارجية؛ إلا أن هذا لم يمنع تسرب وقبول التأثيرات الحضارية والتيارات الفكرية، وكل جديد بغض النظر عن جنسه ومصدره، حيث عكس الأدب العماني خصائص الشخصية العمانية المتقبلة لجميع التأثيرات الحضارية، وخاصة الآتية من المجتمعات الآسيوية.

٦. كما جاء الشعر والأدب معبراً عن طبيعة الشعب، حيث إنه شعب بحري تجاري عربي، أخذ من العروبة روحها السمحة، وأخذ من البحر الثقافة، ومن التجارة مرونتها وذكائها أضف إلى ذلك تعدد العناصر التي سكنت أرضه وتنوع المعتقدات الدينية والآراء الاجتماعية (في نطاق عروبة البلاد وإيمانها الإسلامي) خلق مناخاً يساعد على التحرر الفكري والنظر الفلسفي مبيناً كذلك في الأدب الهندي.

ثانياً: تجليات الهند على الأدب القصصي وأدب الرحلات في عمان:

سوالف البحر العمانية وتأثرها بالأدب الهندي:

لقد كان هناك تأثير حضاري آخر بين عمان والهند فيما يخص الأدب، والذي يتمثل فيما يعرف بـ"سوالف البحر" فلا شك أن العلاقات التجارية القديمة من عمان والهند وخاصة "التجارة الملاحية" حيث مثل البحر ورحلاته التجارية

حلقة وصل بين البلدين، وبقيت الدولة العمانية في مركز الصدارة فيما يخص التجارة البحرية.

ولقد أدى التواصل التجاري هذا وما تبعه من ارتباط سياسي — نظراً لوقوعهما معاً تحت تأثير الأطماع الاستعمارية والسيطرة البريطانية، أن يتبع هذا كله تأثيرات ثقافية.

فالعلاقات التجارية بين عمان والهند، والتي تطلبت السفر بالسفن عبر عباب المحيط لأيام وربما لشهور لنقل بضائعهم على سفن الأسطول العماني الضخم، تلك السفن التي مثلت هي الأخرى مظهر من مظاهر التأثير الحضاري بين البلدين، والتي لم تكن تحمل البضائع فحسب بل نقلت أيضاً المشاهدات والعادات والتقاليد والأفكار. ولقد مثل أدب الحكايات البحرية والذي يعرف بـ "سوالف البحر" أحد أهم ركائز الأدب العماني في تلك الفترة، أقصد أحد روافد الأدب العماني الذي اتضح فيه التأثير العماني بالحكايات الهندية وما تحويها من خيال وسحر وتشويق، فجاءت سوالف البحر تحفل برواية أحداث ومغامرات وغرائب تجعل السامع لها يفترض أنها من وحي الخيال فقط، ولكنها جاءت خليط ما بين الواقع في الحياة وعالم الخيال، فنجدها مليئة بحكايات عن الغواصين "غواصي اللؤلؤ" وحكايتهم مع البحر، وحكاية عن "الرجرجور العنيد" ومغامرات الملاحين والبحارة معه¹

وكانت تلك السوالف دائماً ما تقدم في نهاية الحكاية عبرة وعظة أخلاقية أو دينية مثلما كانت القصص والحكايات الهندية عن الآلهة وصراعها وانتصار الخير دائماً على الشر، وقصص الوفاء خاصة بين الزوجة وزوجها، التي كان يحفل بها الأدب الهندي البراهمي.²

¹ جرجور البحر: هي نوع من أنواع سمك القرش الذي ورد ذكره في الروايات العمانية كثيراً، فقد ذكرت إحدى السوالف ما حدث لأحد نواخذة البحر أثناء عودته إلى السفينة عندما نزل يقتلع إحدى المحار من قاع البحر، وبعد أن نجح في اقتلاعها حدث أثناء عودته إلى السفينة أن أحس بسمكة "القرش" قد ابتلعت نصفه الأسفل وقضمت عليه بأنيابها، فتمالك نفسه وسكن في مكانه وألقى إليه من السفينة بخشبة أمسك بها جيداً وطلب من رفاقه ألا يسحبوه، وبعد فترة تخلت السمكة عنه بعد أن رأت يقع الدم في الماء، فتركته بحثاً عن ذلك، وقام رفاقه بسحبته بعد أن مزقت السمكة لحم فخذيه. سوالف البحر، كتاب العربي، العدد الخامس، نوفمبر، ١٩٧٤ م، ص ٧٨

² تمثل قصة "ساففري" الأميرة البراهمية الرائعة الجمال ووفائها لزوجها "ساتيا فان" تمثل ركيزة قصص الوفاء الزوجية التي تتمر حولها الحكايات الهندية من هذا النوع، والتي تبدأ بقصة حب بين "ساففري" و"ساتيا فان" التي قال لها المنجمون إنه لن يعيش إلا لعام وبعد زواجها، وفي آخر يوم في العام ظهر لهن "ياما" إله الموت وقال لهما إنه قد حضر بنفسه ليقبض روح زوجها، فصرخت وقالت له إنها لا تستطيع مفارقة زوجها، وعليه أن يأخذ روحها أيضاً. للمزيد راجع: تاريخ الهند، ص ٤٧

ولا شك أن الاعتقاد بـ"المس الشيطاني" وحكايات السحر ما هو إلا نتاج التأثير الحضاري الناتج عن الاتصال العماني بالأدب الهندي وحكاياته المليئة بمثل هذا النوع من الأدب، فقد كانت قصص طرد "الأرواح الشريرة" قاسماً مشتركاً بين الهنود والعُمانيين، حيث كان الهنود من جماعة "البهرا" التي سكنت عمان وخاصة مناطق الجبال التي اتخذوا منها نصباً أو تشكيلات صخرية تمثل الشيطان وترجم بالحجارة.

وقد بقي هذا التقليد تراثاً عمانيّاً حتى الآن، وأصبح هناك اعتقاد سائد في منطقة "بهلا" أن هناك ساحرة شريرة ما تزال تسكن جبل "خميلة" عن أحد المعابد الهندوسية القديمة وتعطي الأمهات لأطفالهن كميات قليلة في الزئبق حماية لهم من كيد الساحرة^١.

وهناك تأثير على الأدب العماني، ولا بد من الإشارة إليه وهو ما يعرف بأدب الاعترافات أو المذكرات، حيث شهد الأدب الهندي ظهور مثل هذا النوع من الأدب (المذكرات) ولكنه جاء يميل إلى السياسة أكثر منها إلى المجتمع و فئاته وأحداثه، وخير مثال على ذلك "مذكرات غاندي" وخطابات "جواهر لال نهرو"^٢ وعلى الرغم إن هذا النوع لم يكن أدباً شائعاً في آدابنا العربية لأن التقاليد تحد من الجرأة والصراحة اللتين يتطلبهما مثل هذه الاعترافات أو (المذكرات) إلا أن الأدب الهندي تجلّى على نظيره العماني في تلك الفترة الباكرة - النصف الأول من القرن العشرين - وأدّى إلى ظهور مثل هذا النوع الذي جاءت فيه "مذكرات أميرة عربية" لإميلي روث^٣

وفي النهاية لا بد أن نشير إلى أن تشابه الأساطير والملاحم والقصص الشعبي ليس معناه بالضرورة أن أحدها منقول عن الآخر، ذلك لأن تشابه الظروف

^١ المنتدى الأدبي : قرأت في القصة العمانية المعاصرة، ص ٥.

^٢ رسائل نهرو: جواهر لال نهرو، ولد في ١٤ نوفمبر ١٨٨٩م في مدينة "الله أباد". انتخب رئيساً لحزب المؤتمر الهندي الوطني عدة مرات، وقد كتب مجموعة من الرسائل التي كانت تعبر عن حوادث تاريخية هامة. بل وتطرق إلى الأسباب التي تكمن وراء الأحداث فجاءت في شكل قصصي ممتع في كتاب يحل اسم "المحات في تاريخ العالم".

^٣ إميلي روث: هي السيدة (صالحة بنت سعيد بن سلطان) سلطان عمان وزنجبار (١٨٠٤-١٨٥٦م)، وهو حفيد الإمام (أحمد بن سعيد) مؤسس الدولة البوسعيدية، وقد جاءت مذكراتها بعنوان "مذكرات أميرة عربية" والتي كتبت بالألمانية وترجمها عبد المجيد حبيب القيسي ونشرتها وزارة التراث القومي والثقافة عام ١٩٨٣م والمذكرات عبارة عن مجموعة من الأحداث السياسية والاجتماعية وتوضح مدى التأثيرات الحضارية للدولة العمانية في زنجبار.

والاتصال الثقافي بين المجتمعين وإن كانا مختلفين دينياً ولغوياً¹ إلا أن مثل هذا الاتصال قد يؤدي إلى تشابه الأفكار وهذا ما نراه بَيِّناً في تجليات متبادلة بين الحضارة الهندية ونظيرتها العمانية.

(ب) التأثيرات الحضارية المتبادلة في الفنون والعمارة

أولاً: التجليات الهندية على الفنون الشعبية:

تعد الفنون الشعبية نتاجاً لإرهاصات التفاعل بين الأفراد والجماعات والبيئة المحيطة بهم خلال الحقب الزمنية المتوالية، لذا لا نستطيع أن نعرف من الفاعل أو المبدع الحقيقي لتلك الفنون الشعبية، وتزخر سلطنة عمان بإرث تقليدي متنوع، تشكل الموسيقى التقليدية جزءاً لا يتجزأ منه، وترتبط الموسيقى التقليدية العمانية ارتباطاً وثيقاً بالنسيج الاجتماعي والممارسة اليومية، تترجم أحاسيسه وانفعالاته¹ ويمثل الرقص والموسيقى أهمية كبيرة في ثقافة الهند، فهما من أقدم الفنون، ومرتبطة معاً بنفس درجة ارتباطهما بالدين الهندوسي والأدب وفن المسرح، وقد كان تعلم هذين الفنين وعرضهما مقصورين على البلاط الملكي والمعابد ومنازل أثرياء الشعب، وفي القرن العشرين الميلادي ازدهر الرقص وصار الملايين من الناس يستمتعون بتعلم الرقص الكلاسيكي والموسيقى وتطورت أشكال الرقص والموسيقى الشعبية، كما ظهرت لكل إقليم بالهند تقاليد عريقة للرقص والموسيقى الشعبية.

وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين اقتبست الموسيقى الهندية بعض الخصائص، وخصوصاً في مجال استعمال الآلات الموسيقية، مثل الكمان والأرغون وترجع الموسيقى الهندية إلى أحد أصليين، الموسيقى "الهندوستانية" التي نمت في شمالي الهند، وتأثرت بالأشكال الموسيقية لإيران والجزيرة العربية وآسيا الوسطى، وتلك التي أثرت على موسيقى عمان.

تعد الموسيقى الشعبية إحدى روافد الفنون الشعبية بما تشمله من إيقاعات وأغانٍ ورقصات تعبر عن الواقع والأصالة العمانية، وقد كان الوجود الهندي في عمان ذا أثر واضح على تلك الفنون وخاصة الموسيقى والرقص الشعبي؛ نتيجة لما حمله أبناء الهند معهم في رحلاتهم من الهند إلى ضفاف الخليج العربي عبر الحقب

¹ وزارة التراث القومي: من النماذج الموروثة للفنون الشعبية العمانية، سلسلة الفنون الشعبية، ٩٣/١

الزمنية المتعاقبة، حتى منتصف القرن العشرين، وكما ثبت لنا من قبل أن الجاليات الهندية على فنون المجتمع العماني، ولاسيما الموسيقى والرقص الشعبي، لما هو معروف عن الهنود من حبهم للموسيقى والرقص^١.

ومن المؤثرات الهندية على المجتمع العماني في تلك الناحية إنشاء فرق فنية للنساء، حيث اعتمدت تلك الفرق على العنصر "النسائي" وكان أغلبهن من الهنود المستوطنين في عمان من أزمنة بعيدة، لما كان يعرف عن المجتمع العماني من تحفظه على المرأة، وخاصة في تلك الفترة الزمنية الباكورة من القرن العشرين ولقد تنوعت روافد الفن الشعبي العماني، ولكن سوف نحاول أن نستعرض فقط الفنون التي اتضح فيها التأثير الحضاري بالفنون الشعبية الهندية.

فرق فنون النساء أو ما يعرف اصطلاح باسم فرق طبل النساء (الدان دان)^٢ وتتكون كل واحدة من هذه الفرق من مجموعة من النساء تقوم بالغناء والرقص بمصاحبة تصفيق يؤديه أفرادها أو بمصاحبة طبل يقرعه نساء من أعضاء الفرقة، وقد تكون الفرقة في بعض الأحيان من مجموعة من النساء يعاونهن عدد قليل من الرجال يقومون بضرب الطبول، ويشاركون أحياناً من مجموعة من النساء يعاونهن عدد قليل من الرجال يقومون بضرب الطبول، و يشاركون أحياناً في الغناء والمعلوم أن تلك الفرق تؤدي أعمالها في المناسبات الاجتماعية السعيدة مثل: الخطوبة، والأعراس، والختان، والاحتفالات القومية والأعياد، ولفرق النساء أنماط عديدة من الفنون التي يحترفون أدائها، لكن تبرز تلك الفرق في فنون مثل الدان دان وتشح تشح - وأم بوم، وسرى الليل - الويلية^٣.

^١ سعود سالم العنسي: العادات العمانية، ص ١٨٥

^٢ الدان دان: من فنون السمر والتسلية، يطلق عليه أيضاً اسم "الكواسه" ويمارس فن الدان دان في مناسبات الأعراس وحفلات الزواج، وتكون المشاركات من النساء في صفين متقابلين متوازيين على نمط التكوين في فن الرزحة يتحرك بين هذين الصفين ثلاثة أو أكثر من ضاربي آلات الإيقاع، تبدأ الحركة بتحريك الصف المقابل للصف الذي بدأت من "شلة الغناء" إلى الأمام خطوة بالقدم اليمنى، وتصفيق بالكف، ثم خطوة بالقدم اليسرى، وتكرر الحركة تباعاً حتى يصل الصف المقابل، ثم يعود أفرادها ليبدأ الصف الآخر نفس تلك الحركة ويصاحب تلك الحركات الراقصة أغاني سفرية مثل: (أول بدوتي أنا قيام يغني دان - يقولون أبو زيد قلت ذياب في الميدان - أنوي بسيفي وأقطع رؤوس العيدان). للمزيد يمكن الرجوع إلى: من فنون عمان التقليدي، ص ١٠٩-١١٢

^٣ تشح تشح: يعد من أهم فنون النساء في عمان وخاصة منطقة الباطنة- سكن الخوجة الهنود - وكان قديماً يؤدي دون أن يصاحبه آلات ولكنه بعد ذلك أدخل عليه بعض ضربات الطبول، إضافة للدقوف ذات الجالجل ولكن بقي الرتم حزيناً، وهو نوعان تشح تشح الجالس، وفيه تجلس النساء في دائرة على الأرض يتوسطها المغنية،

ويجب الإشارة إلى أن هناك عديداً من الولايات التي تخلو من مثل تلك الفرق، حيث تتركز فرق النساء على الساحل وفي منطقة الباطنة، حيث تتوافد الجاليات الهندية، في حين تخلو المنطقة الداخلية من تواجد لمثل تلك الفرق. كما تختص تلك الفرق بأداء الفنون الآسيوية-الهندية-العمانية أو التي تقام في المناسبات الاجتماعية كالخطبة والزواج، والختان، وتتكون فرق البلوش من الرجال والنساء في خليط مزدوج يغنون ويرقصون بمصاحبة الطبل والزممر. وما توارثه من أنماط فنية وفدت من آسيا، وخاصة "شبه القارة الهندية" فيما مضى من زمان، ثم أصبحت عنصراً أساسياً من مكونات الفنون التقليدية العمانية، وفي هذه الفنون "الكوزاك" و"الكوتزاك" و"لي لارو" فضلاً على فرق "البلوش" للفنون التقليدية العمانية التي تتركز في الجانب الشمالي من الباطنة وعلى الأخص "صحار" وتشيع في غناء هذه الفرق ألفاظ كثيرة من لغة البلوش إضافة إلى فرق البلوش توجد "فرقة أبناء العجم" والتي تعد واحدة من أهم الفرق التي تحمل الصبغة الهندية الشعبية في عمان، وفرقة أبناء العجم تتمركز في "صحار" وتختص باثنتين من الأنماط النادرة في الغناء والرقص التقليدي الهندي-العماني وهي "الباكث" و"السيروان"^٢

علاوة على نموذج آخر للتأثير الهندي والمتمثل في فنون "البحر الشوبانية" هو مجموعة من أشكال الغناء والتي يختص كل منها بواحد من الأعمال التي يمارسها البحارة عند إعداد السفينة للإبحار، أو أثناء إبحارها، وعند عودتها من السفر، ولكل شكل من هذه الأشكال "شعر وغناء" يختص به ويتلاءم في معناه وفي إيقاع أدائه مع الغرض منه، والعمل الذي يقوم به البحارة ويصحب هذا الغناء

ولا يصاحب هذا النوع رقص ويعرف الدان دان "دان الرجال" في ولايتي لوي وشناص باسم الولاية، أنظر: سلسلة الفنون الشعبية، ١٠٥/٤

^١ "لارو" اختصار لتعبير "لي لارو"، وهي عبارة عن ترنيمة تستخدم في تنعيم الغناء تمهيداً للرقص ويكون الغناء باللهجة البلوشية. يمكن الرجوع إلى: آلات موسيقى عمان التقليدية، ص ٤٧.

^٢ الباكث: يعد من الفنون التمثيلية التي تختص به قبيلة العجم وهو صورة مبسطة للصراع بين الخير والشر، وبين الإنسان والحيوان، وتبدأ بتمثل دائرة يتصدرها العقيد وضاربوا الآلات، ويبدأ بالغناء على إيقاع، ولكنه بلغة منهجية بين العربية الدارجة ولهجات البلوش المختلفة. أما السيروان فهو من الفنون الآسيوية الوافدة، وهو فن من الغناء الجماعي على أنغام آلات الإيقاع من الطبل العماني والمميز لهذا الفن التصفيق عند الوقوف وراء المغني "العقيد". يمكن الرجوع إلى: سلسلة الفنون الشعبية، ٣٥/٣

مجموعة الطبول والتصفيق وتعد الشوبانية من فنون أهل البحر، حيث حملها الهنود إلى منطقة عمان.

والمعلوم أن فنون البحر "الشوبانية" ينطوي تحتها العديد من ألوان الفنون البحرية الأخرى، والتي هي ميراث ونتاج للاتصال البحري بين عمان والهند بصفة خاصة. حيث كانت معظم رحلات البحارة العمانيين من وإلى الهند، لذا يتضح التأثير (الهندوعماني) في الفنون الشعبية الخاصة بفنون البحر. وأهم تلك الفنون كما يلي:¹

١. صوت البحر: هو ما يعرف أيضاً بالصوت البحري، وهو عبارة عن صيحات، وهذه الصيحات هي أصوات الرجال على ظهر السفينة بلغات مختلفة منها العربية والهندية.

٢. مسيرة الشوباني: هو المسيرة الغنائية التي تضرب فيها الطبول وينفخ فيها زمر من النوع الهندي.

٣. المديمة: عبارة عن حركات راقصة وقفزات سريعة وهي فن استعراض البحارة لمهارتهم في أدائه، وتعد من الفنون الدقيقة، والتقاليد المتوارثة، وتتم على ظهر الخشب.

٤. غناء البحر: فهو مجموع أشكال الغناء التي يمارسها البحارة ومنها (شلة النزول - جرة الماشوي)²

ثانياً: التحليات الهندية على الآلات الموسيقية التقليدية:

لقد جلبت الهجرات التقليدية من الهند إلى عمان منذ أقدم العصور: العديد من آلات الموسيقى، والتي تستعملها فرق الفنون الشعبية العمانية، حيث يكون الغناء والرقص مصاحباً للعديد من الآلات الموسيقية يأتي على رأسها "المزمار الهندي" وهو مزمار ذو بوق وريشة مزدوجة، حمله العمانيون الأوائل من رحلاتهم إلى الهند.

¹ مناهج توثيق الفن الشعبي الدولة المارات والخليج العربي، ١١١/٣ والفنون التقليدية، ص ١٢٨

² الصدفة البحرية التي تعرف باسم "اليم" هي واحدة من أجناس الأصداف البحرية المنتشرة في عمان ومنها:

Linatella clandestina yamatium Ranzani- strombusoldi Ranularia obesus
Distrisioreticulata

للمزيد يمكن الجوع إلى: Oman، Seashell، Donald Beach، ص ٢٢
انظر الملاحق: ملحق لصورة توضح نماذج لبعض آلات عمان الموسيقية

وكذلك الصدف البحرية والتي تعرف باسم "اليم، أو الجم"، والتي تنتمي إلى واحدة من أجناس أصداف المحيط الهندي إضافة إلى بعض الآلات المصنوعة من المعدن وأشهرها الخرخاشة، والطاسة، والصنوج، ولكن تبقى الطبول من أكثر وأشهر الآلات العمانية، والتي تصنع أغلبيتها من خشب هندي¹

ثالثاً: التجليات الهندية على الفنون المعمارية:

ويطلق مصطلح الفن الهندي على فنون شبه الجزيرة كلها التي تشمل: الهند وباكستان، وبنجلاديش، ورغم أن هذه المنطقة قد قسمت تقسيمات مختلفة بعد عام ١٩٤٧م، إلا أن فنونها قد اتصفت بالوحدة والتشابه^٢.

والمأمل في الطراز المعماري العماني-الهندي إبان تلك الفترة يجد أن هناك ثمة تشابهاً بين الطرازات المعمارية العمانية والهندية فتاريخ عمان المعماري في أجر الطين والنقوش المجصصة وحجارة معمارها الدفاعي (القلاع والحصون وأبراج المراقبة)

إن هذه المباني التاريخية الضخمة بجانب توفيرها للحماية لعبت دوراً حيوياً في التعريف بتاريخ عمان كونها تقف كنقاط التقاء للتفاعل السياسي والاجتماعي والديني، وكمركز للعلم والإدارة والأنشطة الاجتماعية. غالباً ما تكون متكاملة مع أسواق تضح بالحيوية والحركة ومساجد وأحياء حرفية وسكنية جذابة والتي توفر لزائر اليوم فرصة فريدة لتجربة ومعايشة التاريخ.

وتعود أسس الكثير من البيوت إلى قرون خلت، بينما نشأت العديد من المباني حديثاً إلا أن المباني القديمة بما ضمته من زخارف الجص المعروش وأشغال

¹ تصنع الطبول من أنواع متعددة من الأخشاب منها ما هو محلي، منها ما يوجد في غرب آسيا أو إفريقيا، وأكثر أنواع الأخشاب استخداماً في صناعة الطبول خشب مستورد من الهند، وأهم أنواعه خشب بيزام "الجوز" خشب الوقم - خشب مانتيه- خشب النفس خشب الساج .. أما حديثاً فقد يكون الطبل مصنوعاً من أسطوانة معدنية كانت في الأصل وعاء لنقل البترول، أو قد يصنع من البلاستيك، أما الجلد فهو في الغالب جلد المعاز أو الخروف، وقليل يكسي بجلد الجمل. للمزيد يمكن الرجوع إلى: موسقى عمان، ص ٣٦ والفنون التقليدية، ص ٤٩.

² الفن الهندي مصطلح يطلق على فنون شبه جزيرة الهند، وتعد بلاد الهند من أغنى بلاد العالم في مجال الفن، ولها فن قديم عمره أكثر من ٤٠٠٠ سنة، ويشمل مجسمات تتسم بالحيوية، كما يشمل لوحات ممتازة، ومباني كاملة منحوتة من الصخر، إضافة إلى مسجد جميلة التكوين، وقصور ومعابد مختلفة، وكلها مزخرفة غاية في الدقة والجمال ويطلق مصطلح الفن الهندي على فنون شبه الجزيرة كلها، التي تشمل: الهند، India Art and Culture، ١٣٠٠-١٩٠٠، ص ٤٤

الخشب والنقوش المعمارية الهادفة للحصول على أعظم الفوائد من النسيم في أيام الحر القائظ ما تزال صامدة، ويختلف طراز البيوت في الشمال عنها في الجنوب، ويختلف طراز المباني المعمارية في الداخل عنه في الساحل ففي الساحل جاءت معظم المباني تحمل الطابع الهندي ويمكن إرجاع ذلك إلى عاملين أساسيين: الأول: إن معظم الجماعات الهندية المهاجرة استقرت في الساحل بجانب مقر الحاكم كما سبق وإن أوضحنا الأسباب.

والثاني: إن معظم تلك المباني إما قلاع وحصون حملت الطابع الإسلامي البرتغالي أو بيوت الأغنياء من التجار الذين عملوا كوسطاء تجاريين بين الهند وعمان.

ويتضح التأثير الحضاري بين الفن المعماري الهندي ونظيره من الفن المعماري العماني في الحصون والقلاع والبيوت والمساجد، ولا يمكن إنكار أن هذا الفن المعماري الهندي في الأصل قد تأثر بالطابع الإسلامي وخاصة المغولي منه لذا لا نجد غرابة في أن يحمل التجار الهنود معهم هذا التأثير ليصبغ المعمار العماني في تلك الفترة التي أعقبت طرد البرتغاليين من "مسقط".

ومن الملاحظ أن التأثير بالفن الهندي وخاصة الطراز المغولي يتضح في سقف قاعات الاستقبال وخاصة في "قلعة جبرين" والذي يصور لنا مدى ما وصلت إليه صناعة طلاء الأسقف في عمان ومدى تأثرها بالفن الهندي في الأقواس والأزهار الجميلة¹

ولقد تأثر الفن الهندي عندما دخل الإسلام شمالي الهند، وبدأ الحكام المسلمون يشيّدون مساجد جميلة وقصوراً وقباباً، وشجعوا العلم، فظهرت الكتب المزينة بالرسوم، ثم حدثت نقلة أخرى لهذا الفن، وذلك عندما تأثر بالفنون الأوربية منذ القرن السادس عشر الميلادي، وعرف الفنانون طرق التظليل، ولما جاء المستعمرون الإنجليز إلى الهند، شيّدوا مبانيهم الرسمية ومساكنهم على الطرز الأوربية، وأثر هذا في الطراز المعماري التقليدي، وأصبح المعمار

¹ احتل الإنجليز الهند عام ١٧٥٧م، واستمر احتلالهم لها حتى عام ١٩٤٧م، فكان طبيعياً أن يتأثر الفن الهندي بالفن الأوربي خلال هذه الفترة، وجذبت الأساليب التشكيلية الغربية عدداً من الفنانين المحدثين بالهند، فتخلوا عن طرائقهم وأساليبهم التقليدية، وتمسكوا بهذه الطرق الغربية، وكان لأسرة طاغور الحائز على جائزة نوبل في الأدب أثر كبير في الفن الهندي فقد دعت إلى التخلي عن الأثر الغربي للفن في شتى صوره.

والمصورون التشكيليون في الهند يعملون بطريقة تمزج بين الأسلوبين العربي والهندي التقليدي، وجربوا الأساليب المعاصرة المتباينة.

ولقد استمر حكم المسلمين في الهند أكثر من ثلاثمائة عام أبدع الفنانون المسلمون خلالها أعمالاً فنية عظيمة تتجلى في فن العمارة الإسلامي الذي شمل المسجد والقلاع، بل وبناء مدن كاملة مثل مدينة فتح بور، التي بناها الإمبراطور المغولي أكبر عام ١٥٧١م، والتي تتكون بعض مبانيها من خمسة طوابق، وفيها ميادين وحدائق عامة، ولم تكن المباني الإسلامية وسائر الفنون الإسلامية مركزة حول "دلهي"، بل انتقلت إلى مدن أخرى، وبنى شاه جهان - حفيد أكبر - عدداً كبيراً من المساجد والمباني الرخامية، ومنها تاج محل المشهور، وهذا ما نرى له مثيلاً في عمان من قلاع ومساجد وقلاع ذات صبغة هندية وفي حقيقة الأمر ذات أصل مغولي.

الخاتمة: التوصيات:

من العرض السابق يتضح أن ثمة تجليات أفرزتها الحضارة الهندية وتأثرت بها الحضارة العمانية حيث أدى احتكاك الطرفين معاً في مجتمع واحد هو المجتمع العماني إلى تأثيرات عديدة منها اللغة بألفاظها والأدب بفروعه سواء كان شعراً أم قصة أم رواية، فضلاً عن تأثيرات في مناح أخرى مثل الفنون (الفنون الشعبية) وفن العمارة.

بقي أن نشير إلى التوصيات التي توصل إليها البحث وهي:

- ضرورة التعمق في دراسة نتاج الرحالة الأجانب واعتبار كتبهم مادة جيدة لفهم واقع المجتمع العماني وفي هذا الشأن اقترح إنشاء مركز متخصص للدراسات الحضارية، أو وحدة للدراسات الحضارية تقوم على دراسة التأثيرات الحضارية المتبادلة بين عمان والدول الأخرى للوقوف على الظواهر التاريخية والاجتماعية، ومعرفة العوالم التي تتحكم في مسيرة هذه الظواهر، كما هو الحال في مراكز دعم اتخاذ القرار في الدول الكبرى.

- إعادة النظر في بعض المعلومات التي تقدّمها كتب الرحلة الأجانب، وذلك لأن كثيراً من تلك المعلومات تحتاج إلى وقفة تصحيحية.

- إعادة طباعة الكتب المترجمة للرحالة، بعد تنقيحها وإعادة كتابتها وفق ما تكشف من حقائق بعيداً عن وجهة نظر كانت محملة برؤية استعمارية.

بقي أن نشير إلى أن الهند دولة ذات تجربة فريدة وما وصلت إليه الآن، وتلك المكانة المرموقة التي احتلتها بين دول العالم وخاصة فيما يتعلق بالصناعات الصغيرة لذا يجب على عمان التي ارتبطت بها منذ أقدم العصور بعلاقات متنوعة أن تحاول الاستفادة من تلك التجربة، وخاصة إن عمان تمتلك المقومات المادية البشرية التي تؤهلها لذلك فضلاً على ما تمتلكه من رصيد ضخم من التراث الإنساني.

ثبت المصادر والمرجع

١. أبو الليل: الهند وتاريخها، لم يذكر اسم المطبعة وسنة الطبع
٢. أحمد الفاروقي: المرشد نانك في المنظور الإسلامي، مقال منشور في مجلة "ثقافة الهند"، دلهي، ١٩٩٢م
٣. استارت كيلي ويلتش: India Art and Culture، ١٣٠٠-١٩٠٠، مطبعة مايبين، ١٩٨٦م
٤. ثقافة الهند، العدد الأول من المجلد ٢٣، يناير ١٩٧٣م
٥. حيدر إبراهيم علي: آثار العمالة الأجنبية على الثقافة العربية، بحث مقدّم لندوة العمالة الأجنبية، يناير ١٩٧٣م، الكويت
٦. سعود سالم العنسي: العادات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٩١م
٧. سلسلة الفنون الشعبية، الجزء الأول، مسقط، ١٩٩١م
٨. صفوت كمال: سواف البحر، كتاب العربي، العدد الخامس، نوفمبر، ١٩٧٤م
٩. عبد الله ولسيون: جولة في الخليج العربي، ترجمة: سليم طه، دار المختار، بغداد، سنة ١٩٤٧م
١٠. فالح حنظل: معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات والساحل العماني، وزارة الإعلام، د.ت
١١. مجلة البعثة، العرب في بومبائ
١٢. مجموعة باحثين: من فنون عمان التقليدية، وزارة الإعلام، سلطنة عمان، مسقط، ١٩٩٠م
١٣. محمد فاتح صالح زغل: مناهج توثيق الفن الشعبي لدولة الإمارات والخليج العربي، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٠م

١٤. المنتدى الأدبي: قرأت في القصة العمانية المعاصرة، دراسة مقدمة لحصاد ندوي، سبتمبر ٢٠٠١م، مسقط، ٢٠٠٢م
١٥. نجاة عبد القادر الجاسم: تاريخ صناعة السفن، مطابع الوطن، الكويت، سنة ١٩٨٠م
١٦. وزارة الإعلام: الفنون التقليدية، Donald Beach، Seashell، Oman، مقابل المدينة
١٧. يوسف شوقي مصطفى: آلات موسيقى عمان التقليدية، مركز عمان للموسيقى، مسقط، ١٩٩١م

موقف الشيخ وحيد الدين خان من أركان الإيمان والدعوة إلى الله (القسط الأول)

- د. أشرف أحمد محمد محمد عماشة

مقدمة:

إن الإيمان هو أساس الدين، ولا يستقيم الإسلام بدون الإيمان، ورفض الشيخ وحيد الدين الإيمان الأجوف الذي ينطق صاحبه بلسانه دون قلبه وجوارحه؛ لأنه لا بدّ من تصديق القلب وعمل الجوارح، وهذا هو الإيمان الشعوري عنده، أي الإيمان الذي يتجاوز المظاهر ويصل إلى الشعور، فيكون له أثر في القول والعمل والسلوك، وهذا هو الإيمان الحقيقي مثل إيمان الصحابة، أما الإيمان الظاهري فهو كإيمان اليهود.

ولا بدّ لهذا الإيمان من أركان يستند إليها، وهذه الأركان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

ويثبت الشيخ وحيد الدين الإيمان بالله بعيداً عن خلافات المتكلمين، وحاول أن يستنبط الأدلة من القرآن، ويستخرج منها الدليل العقلي، ولذلك فهو يركز على الجانب العملي في صفات الله ومعرفة ذاته، ويبيّن أن الواجب علينا هو الأثر المترتب على الإيمان بالصفات.

وقد استدلل الشيخ وحيد الدين خان على إمكانية الوحي بأدلة علمية وأدلة طبيعية، ثم يتجلى إبداعه في ابتكاره لمقياس رسالة نبينا محمد ﷺ بأمرين:

أولاً: أن تكون شخصيته مثالية، لا يقدح فيها شيء.

ثانياً: أن يكون كلامه غير عادي، لا يستطيع أحد من البشر الإتيان بمثله.

وقد ثبت كلا الأمرين، وأما من يدّعي النبوة فهو عند وحيد الدين إما أن يكون نبياً أو مجنوناً؛ لأنّ من ادّعى النبوة على مرّ التاريخ ثبت كذبُهُ. وينطلق الشيخ خان في إثباته اليوم الآخر من شهادة تجريبية وبحوث روحية وحاجة نفسية وضرورة أخلاقية، وهو إذ يستدل على اليوم الآخر بهذه الأدلة إنما هي رؤية جديدة لهذه العقيدة؛ لأنه واكب بين العلم الحديث والدين في إثباته لتلك العقيدة، فلجأ إلى علم الطبيعة والكيمياء وعلم النفس وعلم الأخلاق، وحينئذ يصل إلى أنّ العلم الحديث لا ينكر اليوم الآخر، بل يثبتهُ ويؤكّده.

وحين يثبت الشيخ وحيد الدين الإيمان بالكتب السماوية، يشير إلى أنّ الكتب السماوية مقدسة، لكن التوراة والإنجيل عملت يدُ البشر فيهما، فغيّرت ما في النص الإلهي، مما جعل الناظر فيهما يجد بجانب النصوص المقدسة نصوصاً بشرية تعارض الوحي، لكنّ القرآن ثبت أنه لا يعارض العلم ولا التاريخ، ولم تصل إليه أيدي البشر بالتحريف والتبديل، ورغم أنه كتاب هداية، إلا أنه أشار إشارات مجملّة علمية في علم النبات والحيوان والطبيعة وعلم النفس والأخلاق، ويشير إلى أنه ينبغي التحرز من تحميل آيات القرآن استنباطات علمية فرعية؛ لئلا يحدث تعارض بين القرآن والعلم؛ لأنّ النص ثابت والعلم متغير.

والإنسان في هذه الدنيا عند الشيخ خان حرّ مختار ذو إرادة، ولكنه ينبغي له أن يرضى بما قدّر الله له في هذه الدنيا، وليس معنى هذا الاستسلام للمصائب والخطوب، بل لا بدّ أن يجتازها الإنسان بالرغم من إيمانه بقضاء الله وقدره، والإنسان، وإن كان حراً، ينبغي عليه ألا يستخدم هذه الحرية في غير ما أَراده الله له. وقد ختمت هذا البحث بالحديث عن قضية الدعوة إلى الله عند الشيخ وحيد الدين خان، فقد عدّها مهمة الأمة المحمدية بعد ختم النبوة، ولذا ينبغي أن تُبلّغ دينَ الله للناس كافة بالحسنى، حتى تكون قد أدّت ما عليها من واجب، وحتى يفهم الآخرون حقيقة الإسلام.

أولاً: حقيقة الإيمان وأنواعه

إنّ الإيمان جوهر هذا الدين وأصله وكماله، فلا تكتمل العقيدة إلا به، لذا كان موضع اهتمام العلماء والمفكرين في كل الأزمنة والأديان، كان مفهوم الإيمان

موضع اختلاف بين العلماء، هل هو الإقرار فقط أم الإقرار والتصديق القلبي، أم هو الإقرار والتصديق والعمل؛ ولذا ينبغي أن نعرف ما مفهوم الإيمان عند الشيخ وحيد الدين خان.

إنّ مفهوم الإيمان عند الشيخ وحيد الدين خان هو اكتشاف الإنسان لله^١، فالإيمان تحديد أساس وجوهر الإنسان، وهذا التحديد يستند للحديث النبوي الشريف "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" فالإيمان يرتكز على إصلاح هذا الأساس في الإنسان.

وإذا أقرّ الإنسان بوجود الله، وصدّق بالوحي والآخرة والملائكة وبالكتب التي أنزلها الله على رسله، ورضي بقضاء الله وقدره فذلك هو تحقيق الإيمان ظاهراً. لكن الشيخ وحيد الدين يرى أن ذلك الإيمان هو الإيمان التقليدي، لأن الإيمان الحقيقي هو اكتشاف الإنسان للحقيقة التي في عالم الغيب، فكأنه يرى الله الذي لا يرى في الدنيا، فيحدث تغييراً في سلوك الإنسان وفكره وعقله وقلبه^٢.

فالشيخ وحيد الدين خان لا يقصد بالإيمان الإيمان الظاهري كالإقرار باللسان والتصديق القلبي فقط الذي لا يؤثر على المرء أو يغيّر سلوكه، بل لا بد من الإيمان الحقيقي الشعوري الذي يسيطر على الإنسان فيغيّر سلوكه وفكره وعقله، لا كما يحدث عند الكثير من الناس من الانفصال بين الاعتقاد والسلوك، وهذه هي مشكلة معظم المسلمين، مع أن الإيمان العملي يكون مؤثراً كثيراً في إسلام الكثير من غير المسلمين، ويسهم بشكل فعال في تصحيح صورة الإسلام لدى المجتمعات الأخرى، وهنا نلاحظ أن الإيمان عند الشيخ وحيد الدين إقرار وتصديق قلبي وعمل، وليس مجرد عمل بل لا بد أن يكون عملاً نافعاً وإيجابياً، فإذا انتفى شرط العمل فهو إيمان أجوف.

أقسام الإيمان: يقسم الشيخ وحيد الدين خان الإيمان إلى قسمين:

الأول: الإيمان التقليدي.

الثاني: إيمان الصحابة.

فالإيمان التقليدي يشبّهه وحيد الدين خان بإيمان اليهود - باللسان فقط دون العمل -، لا ينبع منه الرقي الروحي وبالتالي السلوك الصالح، فهذا الإيمان لا يستقر

^١ الإيمان والحركة الإيمانية، ص ٧

^٢ الدين الكامل، ص ٥ - ٦

في قلب الإنسان، ولا يؤثر على حياته، فإيمانه في طريق وحياته في طريق آخر، ويمكن القول بأن الإيمان التقليدي ربما ينتج عن البيئة وتأدية العبادات بصورة لا تتعدى الجوارح، أما تشبيه الشيخ خان هذا الإيمان بإيمان اليهود فهو غلو في الحكم على العاصي.

أما الثاني فهو إيمان الصحابة، وهو معرفة واكتشاف، معرفة بحقيقة وثمرة الإيمان، فإذا عرف الإنسان حقيقة الإيمان، حينئذ يكتشف الحقيقة في صورة مجردة، ويصبح الإيمان كل كيانه، فلا يرى أي شيء مع الإيمان، وتصبح أعظم قيمة لديه هي قيمة الإيمان، ويتغاضى عن كل العلاقات والأفكار والروابط ما عدا علاقة الإيمان^١.

ونلاحظ أن تقسيم الشيخ وحيد الدين خان للإيمان ينبع من تعريفه للإيمان؛ لأنه يؤكد على الإيمان العملي المؤثر في سلوك الإنسان والآخرين، لكن الإيمان الذي لا يؤثر في السلوك إيمان أجوف وظاهري فقط.

زيادة الإيمان:

إن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وضرب وحيد الدين خان مثالا لذلك وهو الشجرة، فالشجرة تبدأ من البذرة إلى الجذع ومن الجذع إلى الأغصان ثم تنبت الأوراق ثم تصبح شجرة كاملة، وهكذا المؤمن يكتمل وينمو إيمانه بالطاعة، فإذا اقترب معصية نقص وقلّ إيمانه^٢.

فالشجرة تكتمل بجذورها وأغصانها وأوراقها، وكذلك المؤمن يكتمل إيمانه بأفعال الخير والبرّ الذي ينفع بها نفسه وينفع بها الآخرين، وهنا شبه وحيد الدين خان المؤمن بالشجرة للنفع الحاصل منها، فإن المؤمن إذا لم يكن نافعاً لغيره فلا يشبه الشجرة، وإذا فعل الشر نقص منه شيء، وهكذا إذا تكرر الشر منه، فإنه يكون ضاراً لنفسه أو لغيره.

وأما زيادة الإيمان فعن طريقين كما وضّح الشيخ خان: طريق الفكر وطريق الصبر، فالإنسان حينما يُفكر في خلق الله وبديع صنعه يزداد شعوره الإيماني زيادة مطردة، ويزداد معرفة. قال تعالى: "فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون"

^١ المصدر نفسه، ص ١٨

^٢ المصدر نفسه، ص ١٠

(سورة التوبة: ١٢٤)، فالقرآن يزيد شعور الإنسان بالإيمان، ويوقظ الأحاسيس الكامنة في أعماقه، وتنشأ أواصر العلاقة بين العبد وخالقه، قال تعالى: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون" (سورة الأنفال: ٢)¹.

أما طريق الصبر، وهو الصمود حين يواجه الإنسان ظروفاً شديدة لا يستطيع الإنسان التمسك بدينه إلا بالتضحيات، أو يُطلب منه كبح حماسه، أو يجبره خوف الله على تغيير فكره، فهذا كله من ملامح الصبر، ويزيد المؤمن إيماناً، لأنّ هناك علاقة نشأت بينه وبين الله، وقد أخبر القرآن عن المؤمنين بعد صلح الحديبية فقال تعالى "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم" (سورة الفتح: ٣) وعندما قبل الصحابة هذا الصلح فهم بذلك ذاقوا حلاوة الإيمان وازدادوا إيماناً، لأنهم خضعوا لحكم الله وكبحوا جماحهم وغيّروا فكرهم².

وهكذا يبدو الفكر والصبر طريقين لزيادة الإيمان، فإذا أعمل الإنسان عقله واستفاد من إنجازات العلم، كان ذلك أقرب له ليزداد إيماناً؛ لأنّ التفكير في الكون وفي خلق الله من أولى الأشياء التي أمر الله بها، وهو يزيد المؤمن علماً، والعلم يزيده خشية لله، وذلك كله من علامات زيادة الإيمان.

وأما الصبر فهو علاج لأمراض القلوب التي تُصيب الكثير عند نزول البلاء، فإذا أصاب المؤمن البلاء ينبغي عليه أن يتحلّى بالصبر، وهذا يزيد المؤمن إيماناً، لأنه رضي عن عطاء الله له من محن وبلايا وحرمان، فهو يرى الدنيا أقلّ بكثير من النعمة التي في الصبر والرضا، لأنه وجد الله، فلا يشغله بعد ذلك أن يخسر الدنيا أو حرّم منها بعد أن ظفر بقربه من الله والرضا.

ثانياً: الإيمان بالله

إن موضوع الألوهية من أهمّ وأكثر المسائل والقضايا في تاريخ الفكر الإنساني عامة والفكر الإسلامي خاصة لدى الفلاسفة والمتكلمين، ولذا ينبغي أن نبين موقف الشيخ وحيد الدين من الصفات الإلهية وهل تأثر في ذلك بالمتكلمين أو بالفلاسفة أم كان له موقف خاص.

¹ المصدر نفسه، ص ١٩ - ٢٠

² المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٢٣

صفات الله عند الشيخ وحيد الدين خان:

يتصف بصفات الجمال والكمال وهو منزّه عن كل نقص أو مشابهة لأحد من خلقه في أي من هذه الصفات، وينطلق في عرضه للصفات من خلال قوله تعالى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (سورة الشورى: ١١)، وأول هذه الصفات هي الوجدانية:

صفة الوجدانية:

التوحيد يعني الإيمان بالله وحده وأنه وحده المستحق للعبادة، فلا يكون أي عمل من أعمال العبادة صحيحاً إلا إذا كان لله مثل المحبة والتوكل والاستعانة والرجاء والخوف، إن الله وحده هو الذي يقضى حاجتنا وهو الذي ينظم الكون فالكمال لله وحده دون سواه فلا أحد في هذه الدنيا له الكمال غيره. والاعتقادات الباطلة هي التي تجعل أي شيء أو أحداً شريكاً له في ذاته أو في صفاته، فالآيات الآتية من القرآن الكريم قد حددت ماهية الله: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم"، (والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم" (سورة البقرة: ١٦٣)، وقوله تعالى "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" (سورة الأنبياء: ٢٢) وقوله "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض" (سورة المؤمنون: ٩١).

ونلاحظ أنّ وحيد الدين خان قد استطرد في ذكر وجدانية الله في الذات والصفات والأفعال، فلا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وذلك على النحو التالي:

أولاً: وحدة الذات والصفات: إنّ الله تعالى واحد في ذاته، لا تشبه شيئاً ولا يشبهها شيئاً، وهذا يتضمن شيئين:

الأول: لا تعدّد في الآلهة فليس هناك ذات تشبه ذات الله في كمالها وجلالها وسلطانها، ويستدل الشيخ وحيد الدين على ذلك فيقول: "إنّ هذا التفاعل المتوافق المتكامل بين الأرض والسماوات بكافة أجزائهما، يُثبت أنّ تدبير وإدارة شؤون الأرض

والسماء بيد ذات واحدة ليس إلا، إذ لو كان ذلك بيد ذاتين اثنتين أو أكثر، لاندلع بين بعضها حتماً تنازع وصدام متصل، وبالتالي بات قيام الحياة الراهنة فوق الأرض مستحيلاً^١.

الثاني: لا تركيب في الذات الإلهية، فلا والد له تعالى ولا ولد، ولا يحلّ في شيء ولا يتحد مع شيء، ولا يتركب من أجزاء، قال الله تعالى: "ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون" (سورة المؤمنون: ٩١-٩٢)، يقول وحيد الدين خان: "الجميع محتاجون إليه، وهو غني عن الكل لا يحتاج إلى أحد، وهو قادر على كل شيء قدرة ذاتية، وهو أسمى وأرفع من أن يكون مولوداً لأحدٍ أو يكون له ولد كما هو شأن المخلوقين"^٢.

ثانياً: وحدة الصفات، ومعناها: إن الله واحد في صفاته (لا يشاركه فيها أحد من خلقه) وهذا يشمل أمرين:

أ (لا تعدّد في صفة من صفات الله، كقدرتين وإرادتين وعلمين حياتين... الخ؛ لأن كل صفة من صفات الله هي الكمال المطلق فلا نقص فيها.

ب (لا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فالله تعالى منزّه عن مشابهة خلقه، وقد أكد القرآن قضية التنزيه المطلق لله تعالى فقال: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" سورة الشورى: ١١)، وقال: "(ولم يكن له كفوا أحد" (سورة الإخلاص: ٤)، ولذلك يقول الشيخ وحيد الدين: "لا يشاركه أو يماثله أحدٌ بأيّ وجه من الوجوه وفي أي ناحية من النواحي"^٣.

ثالثاً: وحدة الأفعال، ومعناها: إن الله تعالى واحد في أفعاله، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة، أو المساندة، وكل ما في الكون فهو أثر من آثار قدرة الله وحده.

يلخص الشيخ وحيد الدين ذلك فيقول: "وهو تعالى لا ندّ له ولا نظير في ذاته ولا في صفاته، ليس كمثله شيء"^٤.

^١ التذكير القويم، ٤٥٠/٢ - ٤٥١

^٢ المصدر نفسه، ٦١٩/٣

^٣ المصدر نفسه، ٦١٩/٣

^٤ المصدر نفسه، ٢٥٧/٣ - ٢٥٨

قال تعالى: "قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون، أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أالله مع الله بل هم قوم يعدلون" إلى قوله تعالى: "... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" (سورة النمل: ٥٩ - ٦٤).

صفة القدرة:

يبين الشيخ وحيد الدين خان أن الله تعالى يتصف بصفة القدرة؛ لأنه قادر على إبداع الوجود من العدم، وهو الذي أوجد كل ما لم يكن موجوداً من قبل، وما نراه في الكون من مادة وحركة، وضوء وطاقة، وشعور وحياة، هو كله من خلق الله، فهو الذي أسبغ الوجود على كل شيء^١، هنا يثبت الشيخ وحيد الدين صفة القدرة لله من خلال خلقه للكون وتدبير أمره، فهذا الكون الهائل لا يمكن أن يكون إلا من خالق قادر ومريد وموجود وعالم وهو الله، وبذلك تقتضي صفة القدرة العلم والإرادة والوجود والحياة وسائر الصفات.

صفة العلم:

يشير الشيخ وحيد الدين إلى أن الله تعالى عالم الغيب، وهو يعلم تمام العلم ما حدث، ويحدث، وسيحدث، وهو الذي دبّر الكون بحيث تتوافق كل أجزائه ويتواءم بعضها مع البعض الآخر فلا يحدث فيه نقص مطلقاً^٢. وهذا التوافق الكوني لا يحدث إلا بعلم وحكمة، فلا يمكن أن يكون خالق هذا الكون غير عالم بما خلقه، وإلا لثم في كونه ما لا يعلمه، وهذا ينافي تصرفه في الكون، وهذا غير واقع فنثبت أنه عالم بكل شيء قال تعالى "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (سورة الملك: ١٤).

صفة الوجود:

يوضح الشيخ وحيد الدين أن الله يتصف بصفة الوجود فيقول: "الله تعالى موجد حي، وقد تجلّى عن النوم والإرهاق والضعف وهو يدير كونه المترامي الأطراف بصورة مستمرة لا خلل فيها، وهذا هو السبب في أن الكون لا يزال يتحرك بنظامه البديع رغم مرور آلاف البلايين من السنوات على ظهوره، لم

^١ خواطر وعبر، ص ٧١

^٢ المصدر نفسه، ص ٧١

يتوقف خلاله لحظة واحدة، ولم يقع خلاله خلل واحد في حركته"^١، وهكذا يستدل الشيخ وحيد الدين بالدليل الكوني على وجود الله، وهو أهم الأدلة على وجود الله، ومن ثم تقتضي صفة الوجود الحياة والسمع والبصر لله؛ لأن الموجد لا بد أن يكون حياً سميعاً بصيراً.

إن معرفة الله والإقرار بوجوده غريزة فطرية في الإنسان، إذ كل واحد من بني آدم يقرّ بوجود الخالق ويعترف به، أما من ينكر وجود الله وقدرته، إنما هو انحراف بالطبيعة الإنسانية، وتحويل للغريزة الفطرية المتجهة إلى الخالق الحق إلى عبادة المخلوقات الأخرى.

والشيخ وحيد الدين خان ممن ي نهجون نهج الحق في آرائهم، إن وجده اتجه إليه وسار، فهو ممن ينشدون الحكمة، إن وجدها أخذها ولا يحجزه عنها حاجز سواء كانت لدى المتكلمين أم لدى الفلاسفة، فهو لا يسرف في تشييعه لمذهب بعينه، فوجود الله لديه إنما يُدركه الإنسان بالتفكير والتدبر في أشياء كثيرة في هذا الكون وذلك فيما يلي:

١ - الدليل الفطري:

إن أول دليل على وجود الله - جل جلاله - ليس شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان، إنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إنه ذلك الشعور الطبيعي البصير الغامر، بأنّ فوق الكائنات المحدودة المتناهية، كائناً غير محدود ولا متناه، يهيمن على كل شيء، ويدبّر كل أمر، يرجي ويخشي، ويعظم ويقصد، شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعليم ولا تلقين ولا اكتساب.

ويقول العقاد: "إنّ الوعي الكوني المركب في طبيعة الإنسان، والمركوز في ضميره هو مصدر وجود الإيمان، وهذا الوعي الكوني هو ما يُعبر عنه أحياناً بدليل الفطرة أو بالغريزة الدينية التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان، دفعت الإنسان إلى الإيمان بوجود شيء لا يراه بعينه، ولا يلمسه بيده"^٢.

^١ المصدر نفسه، ص ٧٢
^٢ الله، ص ٢٠٩ - ٢١٠

وكُلِّما كان الإنسان نقي الفطرة مبتعداً عن علائق الجسد، صفت نفسه وترقت في أنوار الروح، وحينئذ يشعر بأنَّ وجود الله أظهر من كل شيء.^١ وهنا يشير الشيخ وحيد الدين إلى هذا المعنى فيقول: "إنَّ كلَّ إنسان يمكن أن يتوصل إلى وجود الله بالبديهة والفطرة السليمة إذا لم تمنعه الأهواء والآراء الخاطئة المفروضة عليه من البيئة المحيطة به".^٢ قال تعالى:

"فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (سورة الروم: ٣٠)، فالتوجه إلى الله وحده دون سواه، وعبادته، هو دين الفطرة، وهذا الشعور مركوز في نفس كل إنسان.

فالإنسان مرهف الحس للغاية، بمجرد أن تصيبه شدة أو ضعف، حتى تزول كل العوائق عن ذهنه، فيعترف بالحقيقة التي لا يريد الاعتراف بها في لحظات القوة والرخاء، وتظهر أصل الفطرة السليمة في داخله. ويوضح الشيخ وحيد الدين ذلك فيقول: "ومن أمثلة ذلك السفر البحري، فإذا كان البحر هادئاً ساكناً والسفينة تجري بركابها جرياً سريعاً نحو المنزل، فإنها تكون بالنسبة إليهم لحظة طيبة ورائعة جداً وعندها تمتلئ نفوسهم بمشاعر الغرور والنقّة، وإنهم لذلك إذ تهبّ الرياح البحرية، وتتدافع أمواج هائلة كالجبال تحيط بركاب السفينة من كل جانب، ويبدو ظاهراً أنَّ ليس هناك من مصير سوى الهلاك غرقاً، وهنالك يعترف بالله من كان ينكر وجوده، ويعود المعتمدون على قوتهم وتدابيرهم الذاتية لا يذكرون الآن شيئاً سوى الله وحده، وإن هذا الدليل تجريبي على أنَّ التوحيد عقيدة فطرية".^٢

قال تعالى مبيناً هذا الموقف:

"هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلِّ مكان وظنُّوا أنهم

^١ Rediscovered of Islam، ص ٨٠

^٢ التذكير القويم، ١٩/٢

أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين" (سورة يونس: ٢٢).

وقال تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم" سورة الزخرف آية ٩، فالفطرة توجه الإنسان إلى الاعتراف بالخالق دون الحاجة إلى شيء خارجي يقوده لذلك، غير أنّ نفس الإنسان أو عوامل من البيئة تحول بينه وبين الوصول للحقيقة.

٢- دليل الخلق والإبداع:

وجّه القرآن الكريم نظر الإنسان العاقل وفكره إلى ما في الكون من الدلائل الحسية والمعنوية التي تشهد بوجود صانع مدبر حكيم، أوجد المخلوقات المحيطة بالإنسان لينتفع ويتمتع بها، فكل ما في الكون ينطق بوجود الله تعالى.

ويشير الشيخ وحيد الدين إلى أن خلق الكون ووجوده وكذلك وجود الإنسان دليل على وجود الله فيقول: "إن وجود الكون دليل على وجود الله، وكذلك وجود الإنسان دليل على وجود الله".^١

وقد جاء في القرآن من الآيات التي تنبّه العقل، وتطالبه بالتعرف على الله تعالى وتسوق له من الأدلة ما يؤكد وجود الخالق المدبر المهيمن الذي أحاط علمه بجميع المعلومات، وهذا الدليل يتجلى في عدة أمور وضّحها الشيخ وحيد الدين كما يلي:

أ) - في نفس الإنسان:

قال تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" سورة الذاريات آية ٢١، وقوله "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم" سورة فصلت آية ٥٣، يقول الشيخ وحيد الدين خان: "لقد بثّ الله دلائله في أرجاء هذا الوجود، حيث أودعها في الإنسان ذاته".^٢

فإذا تفكر الإنسان في ذاته وفي خلقه وجد أنّ خلقه في غاية الدقة والتعقيد معاً، مثل التفكير في أصل نشأته، ومراحل تطوره وهو جنين، ثم تزويده بكل القوى

^١ The concept of God ,Good word books ص ٨

^٢ التذكير القويم، ٢٨/٣

والحواس بعد ولادته، وغير ذلك من أجهزة الجسم المختلفة التي تعمل في دقة وإتقان ودون توقف، بالإضافة إلى العقل والروح وهما من الأشياء المعقدة جداً في خلق الإنسان، ولذلك فالإنسان لا يستطيع أن يخلق نفسه ولا وُجد صدفة؛ بل أوجده خالق متصف بجميع صفات الكمال والجلال وهو الله.

وقد خلق الله الإنسان ومنحه خصائص ومميزات، فلقد ميّزه الله بالعقل، وخصّه بالفهم والعلم، وأعطاه ملكة التعبير والبيان، وسخر له ما في السماوات والأرض، وخلق على أحسن صورة، كل ذلك يدلّ دلالة تامة على الخالق المبدع، يقول تعالى "يا أيّها الإنسان ما غرّك ربّك الكريم، الذي خلقك فسوّك فعدلك، في أيّ صورة ما شاء ركبك" (سورة الانفطار: ٦ - ٨).

ب) - في الأفاق الكونية:

إن الكون في كل مظهر من مظاهره إذا تفكر فيه الإنسان رأى فيه دلالة على إبداع عظيم لا يمكن أن يحدث إلا من مُبدع قادر حكيم، يقول تعالى: "أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحقّ وأجل مسمّى" (سورة الروم: ٨) ويؤكد الشيخ وحيد الدين ذلك فيقول: "لقد بث الله دلائله في أرجاء هذا الوجود، حيث أودعها في الإنسان، ثم في أفاق الكون الخارجي المحيط به"^١.

وإذا كان خلق الإنسان على هذه الصورة من الدقة فما بالنا بخلق السماوات والأرض وهما أكبر وأعظم من خلق الإنسان، يقول تعالى: "لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس" (سورة غافر: ٥٧)، فالسماوات بما فيها من مجرات ونجوم وكواكب، والأرض بما عليها من بحار وأنهار وجبال وحيوان ونبات تدلّ على وجود الله.

قال تعالى: "الذي أحسن كل شيء خلقه" سورة السجدة آية ٧، وقال تعالى: "بديع السماوات والأرض" (سورة البقرة: ١١٧)، وأيضاً "أم خُلِقُوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خُلِقُوا السماوات والأرض بل لا يوقنون" (سورة الطور: ٣٥ - ٣٦) وله "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض" (سورة يونس: ١٠١)، وكذا

^١ المصدر نفسه، ٢٨/٣

قال: "أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء" (سورة الأعراف: ١٨٥).

ويوضح الشيخ وحيد الدين خان وجود الخالق من خلال الاستدلال بخلق الكون انطلاقاً من قوله تعالى "قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين" (سورة فصلت: ٩ - ١٢) فيقول: "إن دراسة الكون تدلنا على أنّ خلقه تم في عدة مراحل على نحو تدريجي، والخلق التدريجي هو خلق مخطط، وإذا كان الكون قد خُلِقَ بأسلوب مخطط، فلا بد أن يكون هناك مخطط قام بصنعه عن قصد وإرادة حسب خطته المرسومة".^١

فالكون إذن حسب الخلق التدريجي يحتاج إلى من ينقله من مرحلة إلى أخرى؛ لأنه لا يمكن أن ينتقل هذا الكون على ما فيه من دقة ونظام من مرحلة إلى أخرى من تلقاء نفسه، والذي ينقله ويخلقه على هذه الهيئة قادر وعليم وحكيم. ويشير الشيخ وحيد الدين إلى أن أسباب الحياة عمل لا يقوم به غير الله فيقول: "إن أكثر الناس كانوا ولا يزالون يؤمنون بأن خالق الكون ومالكة هو الله، وهو الذي منحنا كل ما نحتاج إليه في الحياة الدنيا، إن إيجاد الكون وتوفير الأسباب الضرورية للحياة فوق الأرض، لعمل عظيم هائل لدرجة أنه لا يمكن لشخص ما أن يعزوه إلى أحد غير الله الواحد الأحد".^٢

ويؤكد الشيخ وحيد الدين خان على أن الكون دليل على وجود الله فيقول: "لا يمكن وجود الكون بدون خالق، والحقيقة أنه ليس لنا اختيار بين وجود الكون عن طريق خالقه أو وجوده بدون خالقه، وإنما الاختيار يكون بين وجود الكون عن طريق خالقه أو عدم وجود الكون تماماً، وإذا قلنا بعدم وجود الله لزمنا أن نقول بعدم وجود الكون".^٣

فالكون يرتبط وجوده بوجود الله، فإذا لم نعترف بوجود الله لزمنا أن نعترف بعدم وجود الكون؛ لأنه معلول يرتبط بعلته، لكن إذا عُدَّ الكون لا يلزمنا القول

^١ المصدر نفسه، ٢٣٨/٣

^٢ المصدر نفسه، ٢٧٦/٣ - ٢٧٧

^٣ God and the Life Hereafter، ص ٣

بعدم وجود الله؛ لأنّ وجوده تعالى مستقل وتام وأزلي، لكن وجود الكون غير مستقل بنفسه وناقص.

هكذا نرى أن خلق الإنسان وخلق الكون، يدلان على إرادة عليا صدرت عن خالق مختار حكيم مريد وضع كل شيء موضعه، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

٣ - دليل العناية والحكمة:

لقد اعتنى الله بالإنسان وسخر له كل ما يصلحه في هذه الحياة، فلقد سخر الله له كل الكائنات من الحيوان والنبات في السماء والأرض والبحر، فكل ذلك يدل على العناية التامة بالإنسان، ولا يمكن أن تكون هذه المخلوقات مسخرة للإنسان من تلقاء نفسها. قال تعالى: "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة" (سورة لقمان: ٢٠)، ولذلك يقول الشيخ وحيد الدين خان: "لقد أنشئ عالمنا الراهن بحيث يجده الإنسان ملائماً لنفسه من كل الوجوه والنواحي، هذا إلى جانب أن هذا العالم يتوفر فيه كل شيء يحتاج إليه الإنسان".^١

إن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، وحكمة الله التي تُسيّر الكائنات تبدو في كل شيء، فكل المخلوقات إنما تسير وفق حكمة الله وتقديره، فيكون الشيء مناسباً لكل شيء، ولا يتعارض مع غيره من المخلوقات قال تعالى: "وخلق كل شيء فقدره تقديراً" (سورة الفرقان: ٢)، و"ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (سورة الملك: ١٤)، و"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" (سورة يس: ٤٠).

ونودّ أن نشير إلى أن من ينظر إلى الشمس والكواكب والنجوم ويرى نظامها البديع في هذا الفضاء يندهش من هذا التوازن والدقة والإتقان في سيره وحركته وأنه لا يسير هكذا إلا بقدره الله، ولا يمكن أن تكون حركة الكون ونظامه من تلقاء نفسه، وإلا لعمّ الفساد والاضطراب.

قال تعالى "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حَبّاً فمنه يأكلون" (سورة يس: ٣٣). ويشير الشيخ وحيد الدين إلى مظاهر العناية بالإنسان في الأرض فيقول: "إن وجود التربة الخصبة على سطح الأرض، وتوفير الماء

^١ التذكير القويم، ٤٨/٣

والحرارة والهواء بمقادير مناسبة لها، وكون البذور الملقاة فيها تتمتع بصلاحية النمو والازدهار، وما إلى ذلك مما لا يحصى من عوامل وأسباب معلومة وغير معلومة كهذه تتحول آخر الأمر إلى الحبوب وأنواع الثمار والخضروات لتكوّن غذاء الإنسان، إن هذا النظام قد وُجد بأكمله من غير أن يوجد الإنسان، وإنما يتم إيجاده وتصريفه بفضل من الله ورحمته ليس غير".¹

ومن يتأمل في هذا الكون ويُعمل عقله تتجلى له آيات الله في هذا الكون، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى "أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء" (سورة الأعراف: ١٨٥) وقوله "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض" (سورة يونس: ١٠١)، فيرى في كل شيء آية من آيات الله، ويرى كل شيء يسير في الكون إنما يسير وفق حكمة الله وتقديره، كما في قوله تعالى "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" (سورة فصلت: ٥٣).

ويؤكد الشيخ وحيد الدين ذلك فيشير إلى أنّ العلم الحديث كشف في عام ١٩١٣م أن ثمة مجرات تتدفع إلى اتجاه الخارج بسرعة فائقة، ثم كشف أدون هبلوملتون هوماسون من منظار يصل لمائة بوصة- أن سائر المجرات تسير بسرعة إلى اتجاه الخارج، وقد جمع عالم الفلك الهولندي وليم دي ستار شواهد في تأكيد هذه النظرية، وفي عام ١٩٦٥م كشف أرنو بنزيار وروبرت ويلسون عن بعض الأشعة الناتجة عن الانفجار الكوني البدائي، والذي كان الكون كله جزءاً واحداً مشدوداً نحو المركز، ثم حدث انفجار عظيم تباعدت وانتشرت أجزاء هذا الكون نحو الفضاء الخارجي.²

ويؤكد هذه الكشوف ما ورد في القرآن "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (سورة الأنبياء: ٣٠)، وهذا يعني أن الكون كان جزءاً واحداً ثم انفصل نتيجة الانفجار العظيم، ولا يمكن أن يحدث هذا الانفجار لكتلة الكون من تلقاء نفسها، فهذا دليل على وجود الله.

¹ المصدر نفسه، ١٣٥/٣

² قضية البعث الإسلامي، ص ١٠٩ والتذكير القويم، ٤٥٣/٢

ولذلك يقول الشيخ وحيد الدين خان "إن الانفجار الكبير الذي حدث في الكون هو معجزة ظاهرة تكفي لحملنا على الاعتقاد أن دوى ذلك الانفجار كان كبيراً ومخططاً مسبقاً، وإذا ما ثبت أنه معدّ سلفاً، ثبت أن وراء هذا التخطيط المسبق مخططاً عظيماً، وهذا المخطط العظيم هو الله".¹

وهذا يوضح أن هذا الانفجار لم يحدث دون تخطيط وتنظيم، وهذا التخطيط لا بد له من مخطط يعدّه وينظمه، لا أن يتركه عبثاً، والذي يؤكد ذلك أن هناك من المجرات والنجوم الكثيرة ما لا يعلمها الإنسان نتيجة لذلك الانفجار، وكل يوم يكتشف الجديد منها، وهي تسير بهذه السرعة بطريقة منظمة ودقيقة، وهذا يدعو إلى الاعتراف بالله.

وهذا ما جعل الشيخ وحيد الدين خان يقول: "إن أكبر دليل على وجود الإله هو مخلوقه، وحقائق الطبيعة تدعونا إلي الإيمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا إلهاً واحداً. ونحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا وأن نفسرها - بله الكون كله - مجردين من الإيمان بوجود الإله، إن وجود الكون والنظام العجيب الذي اشتمل عليه وأسراره الدقيقة، لا يمكن تفسير ذلك إلا بأنه قد خلقته (قوة)، وأن هذه القوة (عقل) لا حدود له وأنها ليست بقوة عمياء".²

فوجود الكون وما اشتمل عليه من نظام دقيق وفعل متقن وحركة دون توقف أو اصطدام، كل ذلك يؤكد على حكمة الخالق وبراعة الصانع، ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ وحيد الدين خان ذكر الله هنا بلفظ القوة أو العقل، وهنا يبدو تأثيره بمفكري الغرب في قولهم على الله أنه عقل.

ثم يبين الشيخ وحيد الدين خان مظاهر عناية الله بالإنسان في وضع الأرض مناسبة للإنسان بوضعها الحالي فالمسافة بين الشمس والأرض فهي تقدر بـ ٩٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ميلاً، فهذه المسافة مناسبة تماماً استناداً إلى حاجاتنا، فلو كانت هذه المسافة ضعف هذا البعد، أي ما يعادل ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ميلاً، لأصبحت الأرض باردة بحيث إن كل شيء سيتجمد. والحياة على الأرض لا يمكن أن تتحقق. وإذا كان نصف هذه المسافة من هذا البعد، أي ما يعادل ٤٦٥٠٠٠٠٠٠ ميلاً، ودرجة

¹ In search of God، ص ١٦-١٧

² الإسلام يتحدى، ص ٥٣

الحرارة على سطح الأرض ستكون ساخنة حتى يحترق كل شيء مرة أخرى وتصبح الحياة على الأرض مستحيلة^١.

وهذه هي عناية الله بالإنسان أن يهيئ له أسباب الحياة على الأرض بعدما خلقه، وأسكنه الأرض فجعل الأرض صالحة له كي يعيش عليها وينتفع بما فيها، فتحدث الشيخ وحيد الدين عن مظهر هذه العناية في المسافة بين الشمس والأرض.

ثم يذكر الشيخ خان مظهراً آخرَ من مظاهر العناية بالإنسان وهو حجم الأرض ومدى العناية في هذا الحجم المناسب، فيرى أنه لو كانت الأرض في حجم القمر وكان قطرها ربع قطرها الحالي لقلّت جاذبيتها ولما استطاعت أن تمسك الماء والهواء كالقمر، وتشتد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما عليها وتشتد الحرارة نهاراً فيحترق كل ما هو عليها وكذلك لو زاد قطرها عن وضعه الحالي لتضاعفت جاذبيتها فينكمش غلافها الجوى وينتج عن ذلك أن تتحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين من الضغط الجوى، ولو تضاعف حجمها مثل حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها إلى مائة وخمسين مرة ولاقترب غلافها الهوائي ولارتفع الضغط الجوى وينتج عن ذلك استحالة نشأة الأجسام الحية ولزاد وزن الحيوان وهبط حجم الإنسان^٢ فالأرض في موقعها وحجمها وكتلتها هذه هو المقدار المناسب للحياة عليها.

وكذلك دوران الأرض يعدّ مظهراً من مظاهر العناية بالإنسان، لأن الأرض تدور بمعدل ثمانية عشر ميلاً في الثانية، فلو أصبح معدل دورانها ستة أميال أو أربعين ميلاً، فإن البعد عن الشمس أو القرب منها سيؤدي حتماً إلى توقف الحياة^٣. وهكذا نلاحظ مظاهر عناية الله بالإنسان في ضوء الشمس وحرّها ودوران الأرض ووضعها وحجمها والقمر وسائر النجوم والمجرات والكواكب تسير كلها في توازن مدهش، ولا يستطيع عاقل، وهو ينظر ويشاهد تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر دون خلل أو فساد، أن ينكر وجود خالق لهذا الكون أجرى هذه الأشياء.

^١ In search of God، ص ٢١-٢٢ وأيضاً التذكير القويم، ١/٤١٨-٤١٩

^٢ الإسلام يتحدى، ص ٦٢-٦٣

^٣ العلم يدعو للإيمان، ص ٥٥

وهذه الأدلة التي ذكرها الشيخ وحيد الدين خان قد سبقه إلى القول بها المتكلمون والفلاسفة، إلا أنه قد أُيدَ أدلته بالحقائق العلمية.

صفاتا السمع والبصر:

إنَّ الله تعالى سميع وبصير، وإلا لم يستطع أن يحيط علماً بخلقه وهذا عجز، والعجز محال في حقه تعالى، فنثبت أنه تعالى متصف بصفتي السمع والبصر ويؤكد الشيخ وحيد الدين ذلك فيقول: "والله تعالى بصير بكل ما أوجده من مخلوقات، ولو لم يكن الله بصيراً لحُرم الإنسان من نعمة البصر، ... وهو يملك الصفات التي نعرفها والصفات التي لا نعرفها"¹، فالإنسان يستمد بصره المحدود من صفة البصر المطلقة لله؛ لأنه لا يمكن أن يكون المخلوق مبصراً والخالق ليس بصيراً.

هنا نلاحظ أن الشيخ وحيد الدين خان قد أثبت الصفات السابقة دون أن يهتم بالمعنى الاصطلاحي لدى المتكلمين أو الخلاف في هذه المسألة، ثم يثبت، وصفات الأفعال كالخلق والرزق، لكن الشيخ وحيد الدين في إثباته لهذه الصفات يختلف عن المتكلمين في طريق استدلالهم، فهو يستدل على الصفات من القرآن ويستنبط منها الدليل العقلي مثل المتكلمين، لكنه لا يتوسع في خلافاً المتكلمين، فيبين الغاية والفائدة فقط من ذكر هذه الصفات وما ينبغي علينا عمله واعتقاده وقوله نتيجة للإيمان بهذه الصفات، أي أنه يهتم بالجانب العملي أكثر من الجانب النظري، وما يذكره الشيخ خان في الجانب النظري هو ما يفيدنا في الجانب العملي، وخلافاً المتكلمين كانت مفيدة في العصر الماضي، إلا أنها ينبغي الاهتمام بالقضايا التي هي محل الاهتمام وتلائم قضايا العصر الحديث.

رؤية الله:

يشير الشيخ وحيد الدين إلى أن رؤية الله ممتنعة في الدنيا، وجائزة في الآخرة فيقول: "رغب سيدنا موسى عليه السلام في رؤية الله سبحانه وتعالى، ولما علم أنه لن يتمكن من رؤيته تعالى (في هذه الدنيا)، أسرع إلى التوبة وإقرار الإيمان بالغيب، وامتحان الإنسان هو أن يؤمن بالله وبالغيب، أي بدون أن يراه رأي

¹ المصدر نفسه، ص ٧٢

العين، إن رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة أخروية^١، استدلالاً بقوله تعالى "قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني" (سورة الأعراف: ١٤٣)، وهنا يتفق الشيخ وحيد الدين مع ما ذهب إليه أهل السنة من جواز رؤية الله في الآخرة، وامتناعها في هذه الدنيا؛ ويرى أنه ينبغي على المؤمن الإيمان برؤية الله؛ لأنها من الغيب، وهي في الدنيا من الغيب، وفي الآخرة من الحقائق المشاهدة.

وهنا ابتعد الشيخ وحيد الدين حسب المنهج التجديدي عن خلافات المتكلمين وإيراد أدلة عقلية كثيرة، وافترض شبهات للرد عليها في مسألة الصفات وغيرها، وذلك لأنها تتحى بنا بعيداً عن الجانب العملي للصفات وهو أن نعتقد بهذه الصفات ونؤمن بها إيماناً عملياً، فتكون أعمالنا وفقاً لهذه الصفات، فلا نعبد إلا الله وحده دون سواه، ونعلم أنه يعلم كل شيء من أقوالنا وأفعالنا وخواطرنا، وأنه يرانا ويسمعنا وهو قادر على كل شيء، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، فيتغير سلوكنا وفقاً للإيمان بهذه الصفات، ونكتسب أخلاقنا النابعة من ذلك الإيمان، لا أن ننخرط في خلافات لا تفيد المجتمع بشيء، بل تذهب بجهد ووقته دونما فائدة تعود عليه، إلا إذا طرأت مشكلة وجب أن نقوم لحلها فإذا انتهت تلك المشكلة يجب أن نتوقف في سرد فروع وشبهات لشيء انتهى لا يفيد المجتمع الآن.

ولم يذكر وحيد الدين خان الصفات كما ذكرها المتكلمون، فلم يقسمها التقسيم المعروف من معان ومعنوية ونفسية وسلبية، بل تناولها من منطلق القرآن والسنة فقط، ومستخدماً العقل والعلم الحديث للاستدلال على تلك الصفات.

وإذا نظرنا إلى موقف الشيخ وحيد الدين خان من الصفات وجدنا أنه يثبت الصفات إثباتاً حقيقياً كما جاءت بها النصوص، ولم يخض في البحث عن كيفية الصفات؛ لأن الأمر متعلق بذات الله تعالى وأفعاله التي لا يمكن لأحد إدراكها أو تصورهما وهو مذهب السلف ومن يسير على دربهم يؤمن بأنها ليست كذوات خلقه أو صفاته. ويشير الشيخ وحيد الدين خان إلى أن البحث في الذات والصفات الإلهية من ناحية الصلة بينهما، توحيداً أو تغايراً، إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه

^١ التذكير القويم، ٥١/١

عقل مفكر، ولا خيال متخيل، وإن عدم الحكم على صفات الله بكونها عين الذات أو غيرها، قديمة لذاته أو لغيرها هو الأولى؛ لأن هذه أمور لم يكلفنا الله تعالى بها، ولا يستلزم تنزيه الإله معرفتها، بل ينبغي عبادة إله واحد لا يماثل أحداً من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والإيمان بما ورد في كتاب الله تعالى من تلك الصفات مفصلاً - بلا تأويل ولا تعطيل - فذلك هو الذي يجب علينا اعتقاده والإيمان به.

ثالثاً : الإيمان بالملائكة

أولاً: حقيقة الملائكة:

تُعدّ الملائكة من الكائنات التي خلقها الله وجعل لها أهمية خاصة وهي مخلوقة من النور، وقد جعلها ذات قوة خارقة لحفظ النظام في سير الكون، وتعمل في الكون في طاعة كاملة لله، الإنسان قد لا يكون قادراً على رؤية الملائكة، لكن الملائكة يمكن بالتأكيد أن ترى الإنسان، (خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم) مسلم]

ثانياً: دور الملائكة:

فيمكن أن نفهمه من هذا المثال الذي ذكره الشيخ وحيد الدين فقد ضرب مثلاً بمصنع كبير، في هذا المصنع هناك العديد من الآلات الكبيرة والمعقدة التي تنتج السلع التي تم إنشاء المصنع لها، لكن هذه الآلات لا تدار بنفسها، ولتسهيل سيره يتطلب العديد من الأيدي البشرية، لذا في كل مصنع لا بد من تواجد عدد من الناس واجبها الحضور المستمر للكفاءة وحسن الأداء، ومثل هذا المصنع مثل الكون مع الفارق فقد عُين في الكون لا يحصى من الملائكة لضمان حسن سير العمل في الكون، وتسجل على الإنسان أقواله وأفعاله طاعة لله، والأحداث التي تجري في كل لحظة في الكون كثيرة ومتنوعة، وهذه الأحداث كثيرة وتكرر بشكل مستمر وتؤديها الملائكة في طاعة لله¹.

ثالثاً: أقسام الملائكة:

تنقسم الملائكة إلى أقسام:

¹ Principles of Islam، ص ١١-١٢

- ١ - الأول: وهم الكتبة الذين يكتبون كل ما يفعله أو ينطق به الإنسان.
- ٢ - الثاني: وهم الحفظة الذين يحفظون الإنسان من كل سوء.
- ٣ - الثالث: وهو إسرافيل الذي ينتظر الأمر من الله بالنفخ في الصور.
- ٤ - الرابع: وهم ملك الموت وأعوانه.
- ٥ - الخامس: وهم من يقوم بتنفيذ العقوبات الإلهية على الناس، إما في شكل النوازل والآفات والنكبات أو في أي شكل آخر، ومنهم خزنة جهنم.
- ٦ - السادس: جبريل وهو المكلف بالوحي للأنبياء والمرسلين^١. وفي ذلك يقول تعالى "وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا" سورة الصافات آية ١ - ٣.

رابعاً: عصمة الملائكة:

الله - عز وجل - فطر الملائكة على الطاعة، فهم يسبحون بحمد الله، ويعبدونه دائماً، ويذكرونه آناء الليل وأطراف النهار، يقول الله - عز وجل - عن الملائكة: "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون" (الأنبياء: ٢٦-٢٧).

وقال عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" (سورة التحريم: ٦)، وهنا يوضح الشيخ وحيد الدين أن زبانية جهنم الموكلين بتعذيب أهل النار لا يعرفون اللين والرحمة وشبههم بالإنسان الآلي (الروبوت) وإنما غايتهم تنفيذ ما أمرُوا به فوراً^٢.

وهذا التشبيه فيه إجحاف بالملائكة من جانب وحيد الدين، فلا يليق بنا أن نصف الملائكة بأنهم لا يعرفون اللين والرحمة حتى مع المذنب، وتشبيههم بالروبوت هنا فيه خفض من مكانتهم، فهم يُنفذون أمر الله، وقد جبلهم على هذه الطبيعة والشاكلة فلا يليق أن نشبههم بآلة من صنْع الإنسان، وقد كرمهم الله وأجلهم، وهم يطيعون أمر الله بالعقل والحكمة لا كالروبوت بدون عقل.

^١ التذكير القويم، ٦٧/١، ١٥٨/٢، ١٤٥/٣، ٣٦٦، ٣٧٠، ٥٦٣

^٢ المصدر نفسه، ٤٨٤/٣

وهكذا يبين وحيد الدين خان حقيقة الملائكة وأن لها دوراً خاصاً، ثم وضّح أنواعها وأصنافها، وهذه الأنواع تتبثق من دور ووظيفة الملائكة. ونلاحظ أنه لم يخرج قط عن نطاق الآيات القرآنية في ذكره للملائكة، وهذا وإن كان من الأشياء المحمودّة، إلا أنه ليس كافياً في عرض هذه العقائد، بل تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبراهين، لكنه لم يذكر مسائل وتقريعات لا تخص - حسب رأيه - الدين، وهذا من منهجه التجديدي الذي يهدف إلى استنباط تلك العقائد من القرآن والسنة فقط، وتجنب تحويل الدين إلى مسائل وتقريعات، تُبعد الإنسان عن الهدف الأصلي للدين، ولكن هذا ليس كافياً في تلك العقيدة.

رابعاً : الإيمان بالكتب السماوية

إن الإيمان بالكتب هو أن يؤمن المرء بأن الله قد أنزل كتباً على رسله لهداية البشرية جمعاء، ولكي يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة لا يمكنه إلا أن يتبع هذه الهداية في حياته، قال تعالى "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" (سورة الحديد: ٢٥)، ولا يُفرّق المسلم بين هذه الكتب؛ لأنها كلها نزلت من عند الله، والإيمان بالكتب من أركان الإيمان كالإيمان بالرسول والملائكة واليوم الآخر، قال تعالى "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله" (سورة البقرة: ٢٨٥).

ويجدر بنا الإشارة إلى الكتب السماوية على وجه الإجمال، أما الكتاب المقدس لغة فهو من القدس و هو الطهر، وتقديس أي تطهر^١ وفي الاصطلاح "هو الكتاب الخاص باليهود والنصارى ويشتمل على التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام"، والكتاب المقدس ينقسم إلى قسمين الأول: العهد القديم، الثاني العهد الجديد. فالعهد القديم هو كتاب اليهود فقد اعتمد اليهود في أسفارهم تسعة وثلاثين سفرًا وأطلق عليها اسم (العهد القديم) Ancient Testament، واعتبروا هذه الأسفار أسفاراً مقدسة أي موحى بها، أما كلمة العهد فمعناها الميثاق^٢ وتنقسم أسفار العهد القديم إلى أربعة أقسام:

^١ القاموس المحيط، مادة (ق د س)

^٢ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص ١٣ - ١٦

القسم الأول: التوراة وتشمل خمسة أسفار هي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.

القسم الثاني: يسمى الأسفار التاريخية وهي اثنا عشر سفرًا تعرض لتاريخ بني إسرائيل وهي أسفار يوشع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الأول والثاني وعزرا ونحميا وأستير.

القسم الثالث: يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية وهي أناشيد ومواعظ وعددها خمسة أسفار وهي سفر أيوب ومزامير داود وأمثال سليمان والجامعة ونشيد الإنشاد.

القسم الرابع: يسمى أسفار الأنبياء وعددها سبعة عشر سفرًا، وهي أسفار إشعياء وإرميا وحزقيال ودانيال وهوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي.

أما العهد الجديد فهو يشمل سبعة وعشرين سفرًا وهي الأسفار المقدسة أي الموحى بها، وترجع أسفار العهد الجديد إلى ثلاث مجموعات وسفرين فالمجموعات هي مجموعة الأناجيل وعددها أربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا ومجموعة رسائل بولس وهي أربع عشرة رسالة، ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل، وأما السفران فهما سفر أعمال الرسل، وسفر رؤيا يوحنا^١ وهذه الأسفار هي التي يعتمد عليها اليهود والنصارى في كل أرجاء العالم.

القرآن:

أما القرآن فهو لغة قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، ومعنى القرآن الجمع، وسُمِّي قرآنًا لأنه يجمع السورة^٢،

واصطلاحاً هو الكلام المعجز المنزل على النبي المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته^٣، ويقصد بذلك تحديد ماهيته وتمييزه عما عداه مما قد يشاركه في الاسم كالأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، لذا اشتمل تعريفه على بيان صفاته التي تميز ماهيته عن الأنواع الأخرى، وهو آخر الكتب السماوية وهو

^١ المصدر نفسه، ص ٨٥-٨٦

^٢ لسان العرب، ٣٥٦٣/٤

^٣ مناهل العرفان في علوم القرآن، ١٥/١

محفوظ ليوم القيامة لقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (سورة الحجر: ٩).

ويحتوي القرآن على كثير من الموضوعات التاريخية والطبيعية، إلا أنه يخلو من أي تصادم مع نتائج الأبحاث العلمية المعاصرة.

يشير الشيخ وحيد الدين خان إلى عدم تعارض القرآن مع العلم فيقول: " لا يزال يحافظ على أهميته منذ أربعة عشر قرناً، ولم يثبت في حق القرآن، ولا الذي جاء به، شيء ينال منهما، ولا يزال القرآن "كتاباً لا ريب فيه" وهذا دليل لا سبيل إلى إنكاره حول أحقية القرآن الأبدية، وما أن يصل الإنسان إلى "الصفحة الثالثة" من كتب البشر حتى تتضح له أخطاؤها، أما القرآن فكتاب خال من كل الأخطاء حتى "صفحته الأخيرة" وهذه الحقيقة العلمية دليل كافٍ على أن القرآن كتاب إلهي، وأنه ليس من صنع البشر".^١

وهكذا تبدو بساطة القرآن عن الكتب الأخرى، وتوافق القرآن مع العلم وعدم معارضته له، واختلاف الكتب الأخرى لا يعني أنها ليست من عند الله، ولكنها في الأصل من عند الله، إلا أنها امتدت إليها يد البشر بالتغيير بالزيادة والنقصان، وهذا يعني أن القرآن هو الذي بقي كما هو دون زيادة أو نقصان، ومن وصول يد البشر إليه بالتغيير.

ويشترط الشيخ وحيد الدين شرطين لفهم القرآن فيقول: "إن للقرآن مدلولاً عاماً، يتوقف إدراكه على أن يقرأ الإنسان القرآن بنظرة موضوعية، متجرداً عن كل أفكار خلفيات مسبقة، ولكن الشخص الذي يريد الوصول إلى الأغوار البعيدة لمعاني القرآن ومدلولاته، فإنه يضطر أن يستوفي شرطاً آخر، أن يتمسك بالقرآن عملياً في مسيرة حياته، بحيث تسير حياته على الدرب ذاته الذي يدل عليه القرآن، دونما انحراف إلى أية جهة أخرى، إن القرآن كتاب توجيهي أو مرشد عملي لحياة الإنسان العملية، وأيما كتاب عملي أو تطبيقي قد لا يمكن سبر أغواره والغوص في أعماقه، إلا إذا مرّ الإنسان فعلاً بالتجارب التي أشير إليها في هذا الكتاب".^٢

هنا نلاحظ أن الشيخ وحيد الدين يشترط شرطاً نظرياً وآخر عملياً، فهو يريد

^١ خواطر وعبر، ص ٧٠
^٢ التذكير القويم، ١٤/١

من أصحاب الأفكار والمذاهب أن ينحوا أفكارهم ومذاهبهم جانباً وأن يتسموا بالنظر الموضوعي، وذلك حتى لا يفهم القرآن طبقاً لمذهبه، ثم هو بعد التجرد والفهم السليم يتمسك بالقرآن منهجاً عملياً.

الكتب السماوية الأخرى:

إن القرآن نزل آخر الكتب السماوية بعد الكتب السابقة كالطورا والإنجيل، وله صلة وثيقة بها، من حيث إنها نزلت كلها من عند الله ونزل بها جبريل على رسل الله، وكلها تُبين عبادة الله وحده، وأن هناك يوماً آخراً للحساب وهو يوم القيامة، وتوصي بالأخلاق الفاضلة، أي أن بين تلك الكتب السماوية أموراً مشتركة، وهذا جدير بأن يسود جوّ من الألفة والنقاش والتفاهم بين الناس جميعاً مهما اختلفت أديانهم وشرائعهم.

ولذلك يشير وحيد الدين خان إلى أن الكتب المقدسة كلام الله، ولكن في السنوات اللاحقة تناولتها يد التحريف مما أدّى إلى ظهور العديد من التناقضات، ونجد في العهد الجديد الكثير من هذه التناقضات فيقول: "عندما يقوم شخص بدراسة الإنجيل يلاحظ سلسلة نسب المسيح، إن إنجيل متى يصفه أنه ابن داود، ولكن القارئ عندما يصل إلى إنجيل مرقس يصبح المسيح ابن الله، وهكذا نفس الشخصية لها هويتان مختلفتان، ... إن كتاباً إلهياً لا يمكن أن يحمل مثل هذه التناقضات والاختلافات الجلية، ولقد دفع هذا الإنسان المعاصر لأن يسيء الظن بالكتب السماوية كلها إلا أن روح الإنسان وفطرته متعطشة للدين"¹.

وهكذا نرى أن التورا والإنجيل من عند الله، والتناقضات الموجودة فيهما هي من عمل البشر، لكن غير ذلك هو من الوحي الإلهي، لم يتدخل فيه البشر، والمنهج العلمي في العصر الحديث جعل الإنسان لا يقبل أي شيء يخالف العقل ومنهج العلم الحديث.

ويرى وحيد الدين خان أن جوهر المسيحية هي فلسفة التثليث، أي فلسفة الواحد من الثلاثة والثلاثة في الواحد، وهذا ليس مقبولا من الناحية الرياضية أن يكون الشيء ذاته واحداً وثلاثة في نفس الوقت، وفي اليهودية توجد صورة أخرى

¹ 137 – 136، Islam and Peace، ص ١٣٦-١٣٧

من التعقيد وعدم البساطة، فقد كثرت في الكتاب المقدس أنواع من العبادات والطقوس وتقديم القرابين، ومن المحال للإنسان العادي أن يأتي بها، وهذه موجودة في أسفار العهد القديم كسفر العدد والأخبار وغيره^١.

وفي واقع الأمر نلاحظ أن الشيخ وحيد الدين خان يفرق بين الوحي الإلهي والعمل البشري، فالوحي الإلهي يخلو من أي تناقض أو تعارض، بينما العمل البشري يتسم بالنقص والتعارض، وهذا ظهر واضحاً في التوراة والإنجيل.

ويوضح الشيخ وحيد الدين أن اليهود قد غيروا في كتابهم تبعاً لمصالحهم الدنيوية، حتى يبرروا مواقفهم وأفكارهم التي قد تكون مخالفة للدين أو الواقع، وتلك آفة عظيمة أن نقم أفكارنا وعقولنا وأهواءنا في النص الإلهي ونغير فيه. يقول الشيخ وحيد الدين خان: "أدخلوا عدداً لا يُحصى من التغييرات فيما عندهم من الأسفار والكتب التي كانوا يعتقدون بأنها كتب سماوية، فكلما وجدوا في ثانيا كتبهم المقدسة شيئاً يخالف أهواءهم تأولوه على غير تأويله، أوحرقوه عن مواضعه، حتى يتفق وما تهواه أنفسهم، إنهم قد استتبعوا دينهم لمصالحهم الدنيوية الهيئية"^٢.

ويرى الشيخ وحيد الدين عند تفسيره لقوله تعالى "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق سورة المائدة آية ٤٨، أن الكتاب في الآية هنا هو أصول الدين وتعاليمه الأساسية وهو كتاب واحد فيقول: "ليس كتاب الله هذا بوصفه أصل الدين وأساسه إلا كتاباً واحداً، وقد أنزل هذا الكتاب الواحد على جميع الأنبياء بدون استثناء، مع اختلاف في اللغة والأسلوب، وتباين في الترتيب أو النسق الذي جرى عليه التنزيل"^٣.

ويبين الشيخ خان أن الكتب التي أنزلت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أُلقيت مسؤولية حفظها على الأقوام التي أنزلت عليها هذه الكتب، ولذلك تُسبب إليهم الاستحفاظ في قوله تعالى "بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء" (سورة المائدة: ٤٤)، ولكن القرآن قد تكفل الله بحفظه فقال تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (سورة الحجر: ٩)^٤.

^١ الدين الكامل، ص ٣٥٩

^٢ التذكير القويم، ٥٨/١

^٣ المصدر نفسه، ٣٣٣/١

^٤ قضية البعث، ص ١٤٤

فالمسلم عليه أن يؤمن بالكتب التي أنزلها على أنبيائه ورسله كما آمن بالقرآن الذي نزل على النبي محمد ﷺ، ومن هذه الكتب ما ذكره الله لنا في القرآن ومنها ما لم يذكره، يقول تعالى "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه" (سورة البقرة: ٢١٣) ومن الكتب التي ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم: صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام قال تعالى "أم لم ينبأ بما في صحف موسى" (سورة النجم: ٣٦-٣٧)، وكذلك الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، ومن الكتب أيضاً الزبور الذي أنزله الله على داود عليه السلام قال تعالى "وآتينا داود زبوراً" (سورة الإسراء: ٥٥).

خامساً: الإيمان بالرسل

إن الإيمان بالرسل من أركان الإيمان، لذا وجب على المسلم الإيمان بهم دون تقريظ بينهم، قال تعالى "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله" (سورة البقرة: ٢٨٥)، وقد أخذ الله عز وجل الميثاق على البشر بأن يؤمنوا به ولا يشركوا به شيئاً، وقد علم سبحانه أن الإنسان تصيبه الغفلة والنسيان؛ لذا فقد اقتضت حكمته إرسال بعض خلقه يصطفيهم من أفضل البشر ليكونوا رسله إلى الناس يبلغوهم دين الله ويذكروهم بالميثاق الذي أخذه الله عليهم، ومن رحمته أن أنزل معهم كتباً تحمل الهداية والإرشاد للناس في كل زمان ومكان وأيدهم بالمعجزات لتؤكد دعوتهم إلى الله أمام الناس.

ويرى الشيخ وحيد الدين خان أن النبي يتحمل مسئوليتين في وقت واحد: الأولى: أن يكون بنفسه مؤمناً ومسلماً كما في قوله تعالى "وأمرت أن أكون من المسلمين" (سورة يونس: ٧٢)، الثانية: أن يبلغ رسالة الله للعالمين كما في قوله تعالى "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" (سورة المائدة: ٦٧).^١

^١ واقعنا ومستقبلنا، ص ٢٠٧

ولقد أرسل الله الرسل والأنبياء عددهم يزيد على مائة ألف تقريباً في كل أنحاء الأرض، وذلك ليستعيد دين التوحيد مكانة الغلبة والاستيلاء، ولقد بين القرآن الكريم الحكمة في إرسال الرسل بإيجاز بليغ قائلاً: "رسلاً مبشرين ومنذرين للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً" (سورة النساء: ١٦٥) "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر: ٢٤).

ويشير الشيخ وحيد الدين خان إلى أن مهمة النبي ﷺ هي نفس مهمة الأنبياء السابقين وهي لإقامة الدين وعبادة الله وحده قال تعالى "شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه" (سورة الشورى: ١٣)^١.
والآن يجدر بنا الحديث عن الوحي وكيفية إثبات الرسالة وما يتعلق بذلك من أمور:

أولاً: إمكان الوحي:

ويمكن القول بإيجاز أن المعاني اللغوية لكلمة الوحي أو الأفعال المشتقة منه تعنى في مجملها المعاني الآتية:

١- أن أصل الوحي في اللغة الإسرار والإعلام في خفاء، ولذلك صار الإلهام وحيّاً.

٢- اشتقاق الوحي بمعنى الإلهام من الوحي بمعنى السرعة، لأن الوحي يجيء بسرعة ويتلقى بسرعة.

٣- أن أصل المادة السرعة والخفاء معاً، فالوحي: الإعلام السريع الخفي، فأصل هذه المادة هو إلقاء الشيء إلى الغير، فأصل الإيحاء إلقاء الموحى إلى الموحى إليه^٢.

ويُعرّف الشيخ وحيد الدين خان الوحي فيقول: "إن الله تعالى ينزل كلامه على إنسان يختاره من بين الناس، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى"^٣.

^١ The Prophet Muhammad، ص ١٣٣-١٣٤

^٢ الدين والوحي والإسلام، ص ٤٧-٤٨

^٣ الإسلام يتحدّى، ص ١٠٧

وهكذا نرى أنّ الوحي هو إعلام في خفاء وسرعة لشخص يختاره الله بشيء مخصوص بطريق مخصوص.

ويستخدم وحيد الدين خان أدلة علمية على الوحي فيقول: "إن هناك وقائع كثيرة جداً تجري من حولنا في كل لحظة، ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن يبسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك ...، وهذه الطاقة غير العادية للسمع لا تخص الآلات الحديثة فقط، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً...، فالكلب مثلاً يستطيع أن يشمّ ريح الحيوان الذي مرّ من الطريق ...، وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتاً من لدن ربه لا يدركه عامة الناس".¹

وهنا نلاحظ أن هناك من الحقائق التي لا يشترط أن نراها كي نثبت وجودها، بل هي موجودة حتى وإن عجزت حواسنا عن إدراكها، وقد استدل وحيد الدين خان على إثبات هذه الحقائق بما وصل إليه العلم الحديث من قدرة على التقاط أصوات وصور لأشياء بعيدة جداً عن رؤيتنا وحواسنا كتصوير بعض النجوم والكواكب وبعض الظواهر الفلكية، وكذلك استدل الشيخ وحيد الدين خان على هذه الحقائق بقدرة بعض الحيوانات والطيور والحشرات على سماع ورؤية وشمّ الأشياء عن بعد، ثم يبيّن أنه إذا اعترف العلماء بتلك الحقائق، فما الذي يمنعهم من الاعتراف بوحي الله إلي بعض خلقه يختارهم ويبلغهم رسالته ليبلغوها للناس.

ثم يبين الشيخ وحيد الدين خان أن هناك دليلاً آخر على الوحي وهو الإشراق أو معرفة بعض الأمور التي لا يعرفها كثير من الناس، يمكن لبعض الأفراد أن يعرفوها فيقول: "وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات، وإنما توجد في الإنسان بالقوة ...، ويستطيع عامل الإشراق - كما يذكر وحيد الدين خان - أن يجعلك تنام وتضحك، أو تبكي، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر لست

¹ المصدر نفسه، ص ١٠٧ - ١٠٨

على علم بها، إنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه، فكيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربّه^١.

وقد اختلف الباحثون في معنى الوحي فيقول توينبي: "إن المشاهدة القابلة للفهم على السطح الشعري من اللاشعور تسمّى النبوة"، بل يسوي مايلز بين الشاعر والنبى فيرى أن حقائق الدين فيما بعد الطبيعة إذا كانت عن طريق المجاز تصبح ذات معنى مثل أن يكتشف الإنسان شيئاً جديداً فهذا هو الإلهام، وهكذا ينتزل الإلهام على الشاعر والنبى، ويرى أن الوحي يُفهم إذا عُرّف بأنه ضوء البصيرة الداخلية، أما كاريل فيعتقد أن الوحي يشبه المعرفة الصوفية، وأنه بإمكان أي شخص ما إذا ترك متطلبات الجسد وتفرغ للمجاهدة والعبادة أن يصل إلى المعرفة الروحانية كغيره، بل زاد توينبي في الأمر فشك في وحي الله إلى شخص معين وحيّاً خاصاً ونهائياً، وليس هناك لزوم منطقي بين الإلهام والإلهام الخاص، وليس هناك دليل على اختصاص شخص معين من البشر بالإلهام من الله وحده^٢.

وهكذا يوضح هؤلاء الباحثون أن الوحي أقرب إلى الخيال والوجدان كالشعر، وسوى بعضهم بينهما، وجعل بعضهم إمكانية الوصول للوحي بالمجاهدة وكثرة العبادة أمراً متاحاً للبشر، ورفض بعضهم الوحي لأي إنسان من البشر مهما كان، وكلامهم هذا عن الوحي من الله إلى إنسان معين من البشر غير صحيح؛ لأن الوحي حقيقة ثابتة بالعلم الحديث؛ لأن العلم قد أثبت أموراً أخرى من الإلهام والحديث الخاص بين الإنسان وغيره من البشر أو بين الحيوان وأفراد جنسه. بل والواقع يؤيد صدق ذلك، فرغم مرور قرون عديدة على الكلام النبوي فلم يستطع أحد إبطاله أو رده أو معارضته على مرّ التاريخ.

ثانياً: ضرورة الرسالة الإلهية إلى النبي محمدﷺ:

تناول الشيخ وحيد الدين ضرورة الرسالة من حيث أن ما تأتي به هذه الرسالة من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان ومصيره، فالإنسان لا يستطيع أن يصل بجهوده لتلك الحقائق، فهو يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون، لكنه لم

^١ المصدر نفسه، ص ١٠٨ - ١٠٩

^٢ المصدر نفسه، ص ٦٥ - ٦٩

يصل إلى هذه الحقيقة بعدُ، وهذا دليل على أنه في حاجة إلى هداية الله لكي يعرف نفسه، ويعرف الكون الذي يعيش فيه.

إن سر الحياة هو الضرورة الكبرى، ولن يظفر به الإنسان بجهوده وحده، لأن الإنسان اهتم بالعلوم المادية، وأهمل العلوم الإنسانية، يقول الكسيس كاريل: "إن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية في الغالب"^١.

ثم يوضح كاريل أن العلوم البشرية لا تفي بحاجات الإنسان فيقول: "فيجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية مازالت غير معروفة، فإن علوم الاجتماع والاقتصاد علوم تخمينية افتراضية، وهكذا يبدو أن البيئة التي نجح العلم والتكنولوجيا في إيجادها للإنسان لا تلائمه؛ لأنها أنشئت اعتباطاً وكيفما اتفق دون أي اعتبار لذاته الحقيقية"^٢.

وهكذا يظهر أن الإنسان لم يستطع معرفة نفسه معرفة صحيحة على الرغم من تقدم العلوم، فقد ظن الكثير أن الإنسان لا يحتاج إلى الأشياء المادية فقط، وأغفلوا الجانب الروحي في الإنسان، وقد أخطأوا في ذلك؛ لأنهم رأوا نصف حقيقة الإنسان وتركوا النصف الآخر، والإنسان لا يعيش إلا كلاً متكاملًا.

ثالثاً: مقياس الرسالة:

تناول الشيخ وحيد الدين خان مسألة الرسالة، وحصر الحديث في نبوة محمد ع في تحقيق المراحل الاستدلالية في المنهج العلمي وهي: الفرض، والملاحظة، والتحقق.

فيقترح الشيخ وحيد الدين أن دعوى النبوة فرض، وينبغي البحث في إذا ما كانت الملاحظات تؤيد هذا الفرض، وإذا أيدته المشاهدات أصبح حقيقة مقبولة^٣. فما هي الملاحظات التي نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض؟ وللتأكد من أنه نبي، وكذلك الخصائص التي لا تُفسر إلا على أنه نبي حق، وهذا ينحصر في مقياسين اثنين كما ذكر الشيخ خان وهما:

^١ الإنسان ذلك المجهول، ص ١٩

^٢ المصدر نفسه، ص ٤٠

^٣ المصدر نفسه، ص ١١٢

١ - أن يكون رجلاً مثالياً بصورة غير عادية، لأن من يصطفيه الله ليبليغ رسالة الله للناس، لا بد أن يكون أسمى أفراد النوع الإنساني، ولا بد من اتصافه بمثل الحياة العليا، فإذا كانت حياته كذلك فهي دليل صادق على أقواله، إذ لو كانت دعواه باطلة لما ظهرت شخصيته بهذه الصورة المثالية، حتى تسمو به فوق سائر الصفات الإنسانية.

٢ - أن يكون كلامه ورسالته مملوءين بجوانب يستحيل حصولها للإنسان العادي، ولا تتحقق إلا لمن فاز بمعرفة الله، بحيث لا يمكن لغيره أن يحاكيه فيما جاء به النبي من وحي الله^١.

أما الجانب الأول فيبدو من خلال دراسة حياة الرسول محمد ع ومعرفة أخلاقه وصدقه وأمانته حتى قبل بعثته بخمس سنين، ويشهد لهذا قضية اختلاف قريش في وضع الحجر الأسود في الكعبة وأي قبيلة تضعه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل البيت الحرام، فكان أول من دخله هو رسول الله ع، فقالوا هذا الأمين رضينا^٢، فهذا يدل على سمو أخلاقه على سائر البشر، حتى لقد أقر بذلك أعداؤه، وبهذا يتحقق أول جانب من جوانب إثبات الرسالة.

أما الجانب الثاني فهو المتعلق بالقرآن الذي يستحيل لمثله ولغيره أن يناله إلا إذا كان مُرسلاً من عند الله، والقرآن يتمتع بخصائص ومزايا تدل على أنه من عند الله وليس كلام بشر^٣.

ويشير الشيخ وحيد الدين إلى بعض خصائص القرآن، فإنه يتميز القرآن بإعجاز بلاغي تحدى به الناس كافة في كل زمان ومكان، ومع كل ذلك لم يستطع أن تتجح كل محاولات التحدي من جانب البشر كمسيلة الكذاب وطلحة بن خويلد الأسدي وغيرهما^٤.

رابعاً: ختم النبوة:

إن ختم الشيء بلوغ آخره، ونهاية الشيء والفراغ من إتمام عمل ما، يقال:

^١ المصدر نفسه، ص ١١٢-١١٣

^٢ المصدر نفسه، ص ١١٢-١١٣

^٣ المصدر نفسه، ص ١٢١

^٤ المصدر نفسه، ص ١٢٣-١٢٤

ختم العمل: فرغ من العمل. وقد وردت عدة أحاديث في ختم النبوة، قال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء" ويقول رسول الله ﷺ: "فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ونُصِرْتُ بالرعب وأُحِلَّت لي الغنائم وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة وخُتِمَ بي النبيون" وقال: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي".

ويؤكد وحيد الدين خان على حفظ الله لهذا الدين إلى آخر الزمان بدون حاجة لوجود نبي بعد النبي ﷺ فيقول: "وقد أكد الرسول على حفظ الدين في شكله الأصلي، وسيظل هذا الدين محفوظاً عند الناس في كل عصر كما كان على عهد النبي ﷺ، وحفظ واستمرارية الدين محفوظ بدون مجيء أنبياء لهذا العالم، وكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم يخدمان نفس الغرض الواجب على أتباع الأنبياء وهو الإبلاغ".¹

ويوضح الشيخ وحيد الدين خان أن الله قد اختار محمد ﷺ للنبوة، وهذا يعني أنه لا نبي بعده سيأتي في المستقبل، وقد أيد الله الأنبياء بالمعجزات، ولم يترك الأنبياء أي جهد دون إبلاغ كلمة الله لأقوامهم، وإذا لم يؤمن الناس بالأنبياء، حينئذ تقوم الملائكة بعقاب المشركين، لكن النبي وأصحابه عملوا على حفظ كتاب الله، وحمايته من كل محاولات التغيير أو التدمير، واستمرت هذه المحاولات لألف سنة من جيل لآخر تحت حماية وظل الدولة الإسلامية، ولن يتم هذا بسهولة، بل عانى النبي ﷺ وأصحابه من العذاب الشديد، وأراد المشركون رؤية المعجزات وأظهرها النبي لهم كي يتثبتوا من صدق نبوته.²

وأما بالنسبة للمفاضلة بين الأنبياء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تفاضلوا بين أنبياء الله" وقد علق وحيد الدين خان على هذا الحديث بكلام مفاده أن المفاضلة أمر يتعلق بالله، ومهمتنا تتحصر في الناحية العملية لا النظرية، فقد كثر الكلام النظري دون عمل فقال الشيخ وحيد الدين: "إن كل ما يهمننا أولاً وأخيراً هو أن نُطبِّق أوامر الرسول، وأن نجعله أسوة لمسار حياتنا، إن النعم التي نرجو

¹ The Teachings of Islam، ص ١٣-١٤

² Muhammed A Prophet for All Humanity، ص ٢٤٦-٢٤٩

حصولها ستكون نتيجة لاتباع الرسول وليس بناء على ما ألقينا من محاضرات فخرية وشيقة حول عظمة الرسول، ولا على اعتباره عنواناً لاعتزازنا وفخرنا القومي^١.

يفتد الشيخ وحيد الدين دعاوي بعض مدعي النبوة، فيقول: "إن ادعاء مسيلمه كان قاصراً على أنه شريك محمد ع، والمتنبي ادعى النبوة الجزئية، ثم تاب عن دعواه، ونانك زعيم السيخ لم يدع النبوة بل إنه مرشد ديني فحسب، وبهاء الله الإيراني (١٨٩٢م) ادعى فقط أنه المهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر، وهو خليفة للرسول فقط، وادعى القادياني النبوة الظلية لا النبوة المستقلة، وقد أثبت التاريخ واقعية كلام النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الأنبياء ولا نبي بعده"^٢.

إذن فقد أيد الواقع ختم النبوة بمحمد ع، فمن ادعى النبوة لم يثبت له أي شيء من تلك النبوة التي ادعاها، حتى ولو استمر في دعواه أو تبعه بعض الناس، إلا أنه لا يثبت إلا أن يثبت كذب تلك الدعوى، نتيجة ضعف أدلتها وكذب صاحبها ومخالفتها للواقع والعلم، لكن القادياني قد ادعى النبوة الظلية في البداية، لكنه بعد ذلك ادعى النبوة الكاملة المستقلة.

وأوضح بعض العلماء في نظرية الارتقاء الخاصة بالنبوة أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت متوافقة مع الدور التاريخي الإنساني الذي بلغ العقل البشري فيه مرحلة النضج والكمال، وقد تأسست هذه النظرية على أمرين اثنين: أولهما أن العقل البشري بلغ مرحلة النضج في القرن السابع الميلادي، ثانيهما: أن نزول الرسالات السماوية كان على أساس هذا النضج^٣.

إن هذا الادعاء ليس صحيحاً، لأنه طبقاً لنظرية الارتقاء يمكن فتح باب النبوة الجديدة، في ظل التطور والتقدم الحضاري، أي يمكن إذن أن يأتي نبي جديد يواكب هذا التطور، لأن الأنبياء السابقين كانوا يوافقون دوراً تاريخياً معيناً وقد

^١ الدين الكامل، ص ١٠٣

^٢ المصدر نفسه، ص ١٣٥

^٣ المصدر نفسه، ص ١٣

انتهى -طبقاً لهذه النظرية- هذا العصر، ولا بد من نبي جديد يلائم هذا العصر الجديد والحضارة الحديثة.

وقد رأى الشيخ وحيد الدين أن ختم النبوة يُحتم على الأمة المحمدية أن تكون في مقام النبوة من القيام بمهمة إبلاغ دين الله إلى الآخرين، ومن ثم فلا يُجدي مقاومة من يدعي النبوة أو نقده أو مناظرته، ولا يمت هذا بأية صلة إلى عقيدة ختم النبوة، وكذلك لا ينبغي قتال منكر النبوة، لأن عقيدة ختم النبوة تقتضي إنهاء كل أنواع الصراع والقتال، لينشأ جو التسامح والعفو بين المسلمين والأُمم الأخرى^١.

إن إبلاغ دين الله إلى الآخرين لا يعني عدم بيان فساد رأي ما أو نقده بالحكمة والعقل، دون عنف أو صراع، وإلا لما بين القرآن فساد آراء المخالفين من المشركين واليهود والنصارى وذلك في جو من الحكمة والتسامح، فينبغي إبلاغ دين الله للآخرين بالحكمة، وبيان بطلان عقائد المخالفين دون صراع.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كون النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين يقتضي أن يتم بواسطته إيجاد أحوال وظروف تاريخية ستكون كفيلة بالحفاظ على الكتاب الإلهي والسنة النبوية من الضياع أو التحريف حتى لا ينشأ مرة أخرى ذلك الفراغ الذي يتحتم معه بعث النبي الجديد^٢.

ومما هو جدير بالذكر أن خاتم النبيين في قوله تعالى "ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (سورة الأحزاب: ٤٠) يعني أنه آخر سلسلة النبوة وأنه لا نبي بعده، وليس السياق وحده يقتضي هذا المعنى بل اللغة أيضاً، وهذا يعني أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أُقفل به باب الرسالة والنبوة فلا نبي ولا رسول بعده، ومن ثم كان لا بد أن يبطل هو رسم الجاهلية في أوضاع المجتمع قبل أن يذهب^٣.

ويرى أبو الأعلى المودودي -كما رأى وحيد الدين خان- أن الله بعث رسله وأنبياءه على مدار آلاف السنين، وكان هؤلاء الأنبياء آلافاً كثيرة وعلى دين واحد، هدفهم هي دعوة البشر جميعاً إلى دين الله وهدايته، ثم جاء نبينا محمد صلى الله

^١ المصدر نفسه، ص ٢٠١

^٢ التذكير القويم، ٣/٣٥٢-٣٥٣

^٣ تفسير سورة الأحزاب، ص ٨٤-٨٦

عليه وسلم بنفس المنهج ونفس المهمة^١.

عصمة الرسل:

اختار الله الرسل وفضلهم على خلقه، ونزَّههم عن السيئات، وعصمهم من ارتكاب المعاصي كبيرها وصغيرها، وميَّزهم بالصفات الكريمة، والأخلاق العظيمة من حلم وصدق وأمانة؛ حتى يكونوا قدوة لغيرهم، فيسير الناس على نهجهم ويقتفوا آثارهم، لذلك فقد عصمهم الله من الإثم، ونزَّههم عن الوقوع في المعاصي، فهم خيرة خلق الله، وأفضل من عبد الله - عز وجل - وأطاعه، وهم المثل الأعلى الذي يسترشد به الناس. يقول تعالى: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر به هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده" (سورة الأنعام: ٨٩-٩٠). يقول وحيد الدين خان في ذلك: "وهؤلاء أناس يتخذون من كتاب الله دليل حياتهم الحقيقي ويدمجون وجودهم فيه فتتكشف لهم أسرار هذا الطريق المسماة "بالحكمة"، فيشرفهم الله تعالى بالاجتناء، فيوفق من شاء منهم لإبلاغ رسالته إلى البشر، كنبى من أنبيائه في عصر النبوة، وكداع من دعاة دينه في عصر ما بعد ختم النبوة^٢، أي أن النبوة اصطفاء ومنحة من الله وليست كسباً أو مجاهدة.

بشرية الأنبياء والرسل:

والأنبياء بشر مثل باقي البشر يأكلون ويشربون، ويفرحون ويحزنون، ويمشون في الأسواق، وعندما كان المشركون يطلبون من الرسول ع أشياء لا يقدر عليها، كان يتعجب منهم، ويذكر لهم دائماً أنه بشر: "قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً" (الإسراء: ٩٣). ويقول تعالى: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي" (الكهف: ١١٠)، يقول الشيخ وحيد الدين: "النبي لا يكون إلهاً أو ملكاً، وإنما هو يكون واحداً من البشر، والشيء الوحيد الذي يتميز به عن غيره هو أنه يتلقى وحي الله بطريقة غير مرئية، وهذا يعني أن النبي هو في ظاهره بشر مثل الآخرين تماماً، ومن حيث حقيقته الداخلية مندوب الله إلى البشر"^٣.

^١ المصدر نفسه، ص ١٩ - ٢٠

^٢ التذكير القويم، ٤١٣/١

^٣ المصدر نفسه، ٣٧٩/٢

وظيفة الرسل:

لما أنزل الله تعالى قوله: "وأندر عشيرتك الأقربين" (الشعراء: ٢١٤). صعد الرسول ع جبل الصفا ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه، فقال: يا بني فلان! يا بني فلان! يا بني فلان! يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه، فقال لهم: رأيتم لو أخبرتم أن خيلاً تخرج بسفح (أسفل) هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد" (مسلم).

وقد أرسل الله رسله لدعوة الناس إلى توحيده وطاعته، فيبشرونهم برضوان الله وجنته إن آمنوا وأطاعوا، وينذرونهم من عذاب الله إن خالفوا وعصوا. قال تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" (الأنبياء: ٢٥).

فالنبي يجب عليه أن يُجَنَّب نفسه الشرك بكل أنواعه ومظاهره، ويدعو الناس جميعاً إلى الحق، بمن فيهم أهله وقرابته من باب أولى^١. قال تعالى: "وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون" (الأنعام: ٤٨-٤٩)، فوظيفة النبي هي الإبلاغ بالتبشير والإنذار لكل الناس، وليبدأ من أهله أولاً؛ لأنه جاء بالحق والخير للعباد، فينبغي أن يخبر الناس بهذا الخير ويحذرهم من الشر.

^١ المصدر نفسه، ٦١٥/٢

الغالب والمتنبّي شاعران كبيران — دراسة مقارنة

– البروفيسور فيضان الله الفاروقي

أسد الله خان الغالب (م ١٨٦٥م) وأبو الطيب المتنبّي (م ٩٦٥م) شاعران يختلف أحدهما عن الآخر لغة وثقافة ومجتمعاً، وظرفاً جغرافياً وجوّاً سياسياً. فكان الغالب شاعراً للأردوية ونال شهرة بكلامه الأردوي أكثر مما ناله بكلامه الفارسي بينما المتنبّي كان شاعراً للعربية معترفاً بفضلته في قرض الشعر. كان غالب يقول الشعر بدلهي في عهد الثقافة الإسلامية للحكم المغولي المنحط، التي عمّ فيها عدم الاستقرار وشاع الزوال الثقافي والسياسي ففي جانب كان الحكم المغولي يلفظ نفسه الأخيرة وكان الاستعمار الغربي يبذل قصارى جهده بكل صولة وشوكة مستخدماً كافة أسبابه لدفع الهنود في الخمود الفكري والسياسي. شهد الغالب بعيني رأسه حرب ١٨٥٧ للاستقلال وفي جانب آخر كان المتنبّي يقرض أبياته في عهد العصر العباسي الذي كان فيه الحكم الإسلامي يعتبر قوة دولية فتوفي المتنبّي في ٣٥٤هـ بينما الشمل السياسي لما يلقّ الشنت فكان العالم الإسلامي يضجّ بذكر العلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء والمحققي اللغة العربية والناقدي الفنون فكان كندة، مسقط رأس المتنبّي، سنداً موثقاً به بالنسبة إلى صحة اللغة العربية. وبالجملّة فكانت دلهي في عصر غالب تصرّح بلسان حالها عن زوال المسلمين السياسي والثقافي بينما الكوفة كان هو الموثوق به في صحة العلم والأدب والفن ولنفهم من هذا أنّ كلا من توزّع خاطر وقلة أسباب الحياة قد أحاط بغالب بينما قد جمع للمتنبّي كلّ من الاستفاضة من علماء اللغة والأدب وشتى أسباب كسب المعاش من خلال المدائح أي قد جمع له كافة أسباب الرخاء والتفكير ولو أنه لم يشبع من كليهما على السواء.

وقضية اللغة أيضاً ليست بهيئة فكان المتنبى شاعراً للعربية ومهر بها مهارة فائقة وكذا من خصائص العربية البارزة أنها تحمل بين جنبها ذخراً لا ينتهي للمفردات والتعابير فستجد لكل ما أوجده البشر من المعاني لفظاً مستقلاً وهي للشاعر نعمة ربانية لا تعدلها نعمة أخرى ومن الخصوصيات الأخرى المساعدة للشعر، التي تحملها العربية هي التثوين الذي يلعب دوراً بارزاً في صياغة الكلام حيث يصبح آخر حرف الكلمة كالنون ويختلط بأول حرف الكلمة اللاحقة بحيث يخلق إيقاعاً وجرساً جميلاً. بينما اللغة الأردوية لا تتمتع بمثل تلك السهولة، وكذا نالت القصيدة صدارة ومركزية في كافة عصور الشعر العربي فيعبر الشاعر عن خوالج قلبه مدحاً وهجواً ورثاءً في صورة القصيد فلا يعتني هذا القلب الشعري بالرديف فقط ولا يهتم بالقوافي كلفظ مستقل بينما الشعر الأردوي رصيده الغزلية التي يعرف بها الشعر الأردوي وهي أصعب أصناف الشعر صياغاً ففي جانب يراعى فيها كل من الرديف والقافية وفي جانب آخر يقدم في كل بيت منها مفهوم جديد وفي جانب ثالث وهو أهم مما سلف لا بد لكل بيت من أن يكون شعراً فلا يكون كلاماً موزوناً يحتفظ فقط بالقوافي ويراعها. وكذا أن القصيدة، ولو تشمل أربعة أجزاء، يعتنى فيها بشيء واحد مدحاً كان أو هجواً فإن وقع فيه شيء من الخل فهو عيب للقصيدة فيجب على قارض القصيدة أن يتركز على شيء واحد وهكذا فهو يتوقر له تسهيلات جولات عديدة للغة والبيان بينما الغزلية تحرم هذه السهولة وكذا تتوقر لشاعر العربية سهولة أخرى وهي أنه مسموح لأنواع من التصريف في رديف الشعر فالحرف الأخير من الكلمة يقبل الضمة أو الفتحة أو الكسرة بشيء من الإمالة فيمكن مجيء أي كلمة على قواعد اللغة شريطة ألا تتغير الحركة فمثلاً في صورة الفتحة يمكن استخدام "تخبرينا" و"بنينا" و"ساجدينا" والحال أن الأول صيغة الخطاب للمؤنث والثاني صيغة الجمع للمتكلم والثالث صيغة جمع المذكر السالم في صورة حال وهكذا يكون مع الكسرة والضمة فإن تغيرت حركة الحرف الأخير فهو عيب ويسمى "الإقواء" وعن طريق هذه التسهيلات يمكن للشاعر أن يعبر عن خاطر بأساليب عديدة متنوعة بينما اللغة الأردوية تحرم مثل هذه المباحات وكذا يعم العربية مجيء الحرف الزائد لضرورة الشعر أو حسن البيان ولا يكرهون ذلك حتى أن فحول الشعراء يستخدمون الحروف الزوائد مثل "إن"

و"ما" و"ذا" بينما يجوز في الأردوية استخدام الزوائد مثل "تو" ولكنها لا تستحسن ولذا يتجنبه فحول الشعراء فلم أجد في ديوان الغالب حرفاً واحداً لا مكانة له في الشعر وأما الحشو فلا يخطر ببالنا بشأنه ويمكن أن يعثر النقاد المدققون على حرف زائد استخدم في ديوانه ولكني لم أجد شيئاً منه وكذا تنقسم الحروف العربية في الشمسية والقمرية وهذا يفيد أن صوت اللام السابقة ينضم إلى الحرف اللاحق مثل "الشمس" و"الرحمن" وهي تفيد كذلك السلاسة والغناء بينما لا يتخيل مثل ذلك في الأردوية وكذا يمكن توزيع الكلمة إلى جزئين وضمّهما في مصراعي بيت واحد وهذا عامّ بالعربية بينما لا يجوز بالأردوية وكذا يقوم التتوين بالعربية مقام جملة بالأردوية ولا تتمّ جملتها المفيدة إلا بكلمة أو كلمات كالجملّة الاسمية والحال والتمييز وما شابهها.

ولا نريد من هذا التطويل إلا الإشارة إلى أن شاعر اللغة العربية يتمتع من التسهيلات التي لا يحظى بها شاعر الأردوية أي قرصُ الشعر بالعربية أسهل من قرصه بالأردوية. نعم إن في الأردوية سهولة يمكن للشعراء أن يستفيدوا منها حسب قدراتهم وهي قواعد الإضافة الفارسية ولكن يشترط في ذلك أن تكون الكلمتان فارسيتين أو إحداها فارسية والأخرى عربية أو كلاهما عربية فإن كانت الكلمتان أردويتين أو إحداها أردوية والأخرى فارسية فلا يجوز إضافة إحداها إلى الأخرى، وأكثر الغالب استخدام هذه القاعدة وأجاد.

تمّ تقرير شعر المتنبي في المنهج الدراسي لمدارس الهند الدينية منذ فجر تاريخها فقد تمتّ ترجمته إلى الفارسية والأردوية كما كثر التعليق عليه فقد عني علماء الأدب الهنود بالمتنبي وكلامه ما لا نراه بغيره من شعراء العربية كما برزت إلى حيّز الوجود مؤلفات ورسائل عن المتنبي وكلامه ولكن هذا كله يتعلق بخلق السهولة في دراسة كلام المتنبي وتدريسه وذلك لأنّ كلامه يحوي ذخراً ملموساً لمفردات العربية يُعينُ الباحث في فهم التفسير (القرآن) والحديث. ولكن لم أجد كتاباً صدر من قلم الهنود تناول كلامه بالبحث والنقد، أما المحاولات المعاصرة في هذا الصدد فنجد فيها قلة التأمل ويشوبها المبالغة الشديدة حتى ادعى بعضهم أن كافة شعراء الفارسية مغترفون منه ولا تسئل عن الأردوية فهي وليدُ الفارسية والحق أنهم ما رعوا المتنبي حق رعايته ولا درسوا التراث الشعري الأردوي وعالميته

حتى في زماننا بدأ الباحثون يعتبرون الغالب منتبّي الهند وهذا ظلم عليه لا يغفر. فنجد أنّ العالم العربي لا يعرف الغالب البتة فالمقالات المعدادة التي كتبت بالعربية عن الغالب لا تلقي على الغالب إلا نظرة عابرة ومن بين تلك المقالات ما قام بكتابتها الأدباء العرب ولكن يبدو من دراستها أنّ الكاتب لم يفهم حتى أبياتة العامة السهلة وأما الوصول إلى محاسن كلامه فلا نرجوه منهم ---- ولكن العرب كتبوا عن المنتبّي وكلامه في كل عصورهم وعن كافة الجهات ما لم يكتبوا عن غيره من شعراء العربية وبدأت هذه السلسلة من معاصري المنتبّي وهي تستمرّ حتى الآن وقد أجمع النقاد والأدباء العرب على أنّ المنتبّي أشعر شعراء العربية وأكبرهم وكذا تمتع الغالب من القبول العام في العالم الأردوي وكتب بها عنه ما لا يحظى به شاعر آخر غير العلامة إقبال فاعتبروا الغالب أكبر شعراء الأردوية ما سوى مير وفي أيامنا هذه اعترف العالم بأن الغالب شاعر عالمي كبير.

الغالب والمنتبّي شاعران كبيران ولكن هناك تبايناً بين خلفيتي كليهما فإن كان الحديث عن فنيهما فلا بدّ لنا من الاعتبار بأصول للشعر معترف بها على السواء، يمكن لنا تنفيذها على كلا الشاعرين. وفي هذا يبرز أول سؤال عن ماهية الشعر ومتى وكيف يصير كلامٌ موزونٌ شعراً ولم لا يصبح كذلك ثم ما هو السرّ في عالمية الشعر، وقد تحدّث الناس في كلّ زمان عن ماهية الشعر ويجري هذا الحديث مع وجود مختلف مذاهب الفكر عن الأدب. وأرى شخصياً أنّ مجموعة كلمات منظومة لا تثير وجدان القارئ أو السامع فالشاعر يتأثر بآثار الحياة والكون المتنوعة ثم يبلغ ذلك التأثير إلى القارئ في صورة كلمات، والأهم في ذلك النظر في مدى فهم الشاعر لحقيقة وتأثره بها ثم التأمل في وسائل الإبلاغ وأنواعه التي استخدمها الشاعر في هذه العملية فكم من تجربة فكرية تخدم في دواخل الشاعر لعدم مقدرته على التعبير المطلوب فالذي يصل من قبل الشاعر إلى القارئ ليس إلا مجموعاً للكلمات فندرس ذلك المجموع ثم نقمّ به سعة خيال الشاعر وعلوّ فكره ودقته وخلود الشعر وحصره في حدود الزمان والمكان أو تجاوزه تلك الحدود بمجرد النظر في طريق تعبيره فلأجل نفخ الشعرية في طريق التعبير يستخدم الشاعر عادةً الصنائع والبدايع تارةً وأخرى السلاسة والإبهام والإيهام ولكن الشعر الذي يتمّ قرصه عن هذا الطريق لا يبلغ درجة الشعرية العليا فلا بدّ للشعرية العليا

من صياغ الخيال في القالب اللفظي بحيث تثور صورة في ذهن القارئ ولذلك فهو يتوجه إلى الصورة البيانية أو الكلمات التي تفوق المعاني اللغوية العامة فتدلّ هذه الصورة البيانية على سعة خيال الشاعر ودقته وعمقه وسحر البيان ولكني لا أقول إنّ الصورة البيانية ضرورية للشعر إلاّ أنني أقول إنّ الصورة البيانية نموذج أعلى للصياغ الشعري، تبرزه استعارات بديعة.

وإنّ سرحنّا النظر على كلام المتنبي فيبدو لنا أنّ الشاعر حادّ ذهنه ومبدعٌ يبلغ إلى المعاني الدقيقة النادرة ثم يبينها بأسلوب يملأه المهارة فالكلمات التي يختارها تدلّ على الشوكة والأدب الأعلى ولا يترك أسلوباً لأجل السلاسة كما لا يعتني بالصنائع والبدائع خيراً اعتناء وفكرته عميقة سامية وملاحظته قوية دقيقة ويشوب كلامه الابتكار. إنه يعرف خيراً بأنه شاعر كبير حتى يحقر الآخرين ويذلّ غيره من شعراء العصور. إنه يستخدم التشبيهات والاستعارات النادرة إلى حد لا يغنى عنه المتأخرون من الشعراء فحين يريد المدح فهو يخلط بالمبالغة ندره يسبق بها من تقدّمه ومن تأخّر عنه وكذا لما يهجو فهو يصمّم بذهنه الحادّ المبدع مساوئ المخاطب ويصورّ المعاييب تصويراً يغرق البشرية حياءً ويثقل على الذوق السليم التلفظ بتلك الأبيات وعندما يقرض أبيات النسيب فهو يسبق عمرو بن ربيعة في تصوير الهجر والوصال وعواقب العشق وسوء حال العاشق.

ولأجل فهم تفرّد المتنبي ودرجته في الشعر يجمل بنا دراسة تحليلية موجزة للتراث الشعري لشعراء العرب القدامى وأساليبهم للتعبير.

يبتدئ شعراء العربية قصائدهم بذكر ما بقي من ديار الحبيب وذكرها وإعادة ما جرى معها. أبدع امرؤ القيس هذه الطريقة ثم تقبلها الشعراء بقبول حسن حتى جعلوها فاتحة لقصائدهم فما قاله امرؤ القيس في هذا الباب كان مصطبغاً بصبغة الشعر إلى حد لم يبلغها المتأخرون من الشعراء في لطافة اللغة ودقة البيان ولننقل بيتين من قصيدته يشتملان على الوقوف بديار الحبيب والبكاء عليها والخطاب مع ما بقي من الديار وطول سلسلة الذكريات القديمة:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون: لا تهلك أسّى وتجمّل
وإنّ شفائي عبـرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

أي العاشق المارّ بالديار يبكي ويبكي وأصحابه يحاولون أن يعزّوه كيلا يهلكه الهمّ والغمّ ويصبرَ صبراً جميلاً ولكنّ العاشق يعرف الواقع فهو يقول: لعلّ مرضي يشفى حينما تصبّ عينيّ الدموع، والحال أنّ البكاء في هذا الخراب لا يعود بفائدة.

لم يُلغِ المتنبي هذا المفهوم ولكنّ أوجد فيه معنًى لم يخطر ببال القدامى فهو لا يبكي على الخراب ولا يهتمّ به على الالتزام بل يودّ أن يسمع ذكريات الماضي وأهالي الديار بلسان الخراب فهو يكلمه وعندما لا يحور أي ردّ منه يغضب قائلاً:
ملت القطر أعطشها ربوعاً وإلا فاسقها الســــمّ النقيعاً
محــــاها الله إلا ماضيها زمان اللهو والخود الشموعا
وبعدما قرض أبياتاً جيدة مليئة بالتشبيهات النادرة يسقط كعادته من السماء إلى الأرض فهو يصف جسد الحبيب السمين قائلاً:

ذراعاها عــــودا دملجها يظن ضجيعها الزند الضجيعا
فمن كانت ذراعاها كما وصف فماذا يكون إذن جسدها ومن عجيب الظرافة أنّ العاشق، على حدّ قوله، نحيف إلى حدّ إنّ وقع في فرج لسان القلم فلا يؤثر في تحرير الناسخ وهبّ ماذا يحدث به إذا مال إليه الحبيب ولو مرة واحدة. يبدو من عميق دراسة نفسية المتنبي أنه لم يكن سيئ الذوق بل كان يقرض مثل هذه الأبيات بوعي منه وشعور ولا يعتني بالقراء والحضرة¹.
جرّني الحديث إلى موضوع آخر فلقد كنت اتحدّث عن إبداع المتنبي. اقرأ بيتاً لأبي تمام فهو يقول:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتيق الله سائله
أي الممدوح جواد إلى حدّ يهب نفسه إذا لم يجد شيئاً للإنفاق فليتيق السائل الله ولا يسئله شيئاً.

يقول المتنبي:

يا أيها المجدي عليه روحه إذ ليس يأتيه لها الاستجداء

¹ مدافعاً عن المتنبي في كتابه الشهير "الوساطة بين المتنبي وخصومه" نقل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني أبياتاً لحميد بن ثور وطرح سؤالاً: إذا كانت تلك الأبيات مقبولة في السمانة فلم لا نقبل أبيات المتنبي هذه ولكن القاضي قد نسي تماماً أنّ حميد بن ثور قد قرض تلك الأبيات في هجو السمانة بينما المتنبي كتبها في مدحها. (الفاروقي)

احمد عفانك لا فجعت بفقدهم فلترك ما لم يأخذوا إعطاء

فقد أبدع المتنبي معنًى غريباً ففي البيت الأول ذكر العطاء العام الذي ينتهي إلى وهب النفس ثم يبدو من البيت الثاني أنّ السائلين يحبّهم الممدوح إلى حدّ يهتمّ ويحزن إذا لم يزوروه فأرى أنه نهاية في تعبير الجود والسخاء فلم يبلغه شاعرٌ غيره فيما بين شعراء العربية فعجزُ البيت الثاني لإعجاز في شكل الشعر بأنّه أورد معاني كثيرة بكلمات سهلة موجزة أي كلما تركه السائلون فهو عطاءٌ لك من قبلهم فلقد كان المتنبي قرء كافة التعابير التي استخدمها القدامى ومن ثمّ أبدع شيئاً جديداً وهذا هو ميزة المتنبي.

يذكر شاعرٌ عربيّ نحافته لأجل همّه اللاحق به من العشق فيقول:

ذاب فلو زجّ بجسمـمانه في ناظر الوسنان لم ينتبه

بيّن المتنبي هذا المعنى كما يلي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فكأنّ الصوت هو الدليل على وجود الجسد وإلا فلا. ويقول في موضع آخر:

وقلم ألقيت في شقّ رأسه من السقل ما غيّرت من خط كاتب

وقد ذكر القاضي الجرجاني مئات من أبياته في "الوساطة" كما زادها الثعالبي

في "يثيمة الدهر" بعدما نقل نظريات ومختارات الجرجاني فننقل من أبيات المتنبي

ما أصبح مثلاً سائراً. وكذا قام الدكتور طه حسين بدراسة مشبعة للمتنبي وتحدّث

عن البواعث الخارجية التي لم يكن بدّ من تأثيرها على أشعار المتنبي فكتابه "مع

المتنبي" شهير للغاية لا سيما في إيضاح نفسية الشاعر والأسباب الخارجية وراء

قرضه لقصيدة رائعة وإشارة موجزة إلى جماله الأدبي وغيرها من الخصائص

والميزات ولكن نشهد أنّ كلّ أديب وناقد من الجرجاني إلى الدكتور طه حسين

والعقاد لا يقوم إلا بالدفاع عن المتنبي. فيقول القاضي الجرجاني:

"وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار معاني تستفاد وألفاظ

تروق وتعذب وإبداع تدل على الفطنة والذكاء وتصرف لا تصدر إلا عن غزارة

واقْتدار"¹.

¹ الوساطة، ص ٥٥

ويمضي قائلاً:

"ثم تعدّيت بهذه السمة إلى جملة شعره فأسقطت القصيدة من أجل البيت ونفيت الديوان لأجل القصيدة وعجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة".^١

وهذا هو الحق فلا يخلو من العيب أحد من البشر وقد قام صاحب بن عباد بتأليف كتاب ضخم في الردّ على المتنبي باسم "الكشف عن مساوئ المتنبي" ولكنه مع ذلك أجمعت العرب على أنها لما تلدّ شاعراً كبيراً كمثّل المتنبي.

وعظمة الغالب الفنية مختلفة في علوّ تخيلّه ووسعته ودقته وإدراك أدقّ الحقائق فيما يتعلق بالحياة والكون وعرفان نفسية البشرية وتعبير ألوف من هذه التجربات النفسية في قالب شعري عجز عنه الآخرون، وإضافة إلى ذلك يعتبر الغالب من أعظم شعراء العالم من ناحية تنوّع المعاني في أشعاره وإمكانيات كثيرة من جهة المعاني في فهم وتفهم أشعاره. يقول الناقد الفدّ شمس الرحمن الفاروقي:

"حتى الآن اعتقد أن الغالب ليس من أكبر شعراء العالم فحسب بل هو فاق معظم فحول شعراء العالم في قرض الشعر الذي تكثر فيه إمكانية المعاني".^٢

وكان لدى المتأخرين من شعراء الأردنية مثال ونموذج من شعر الغالب ولكن لم يستطع أحد منهم أن يقرض ولو غزلية واحدة على طراز الغالب مستوفية لتلك المكانة الأدبية الفذة، ولو أنّ الأدب الفارسي قد خلق شعراء فاقوا الغالب في حسن البيان ولطافة الخيال ولكن لا نجد من بين شعراء العربية من يبلغ شأوَ الغالب في تاريخها الطويل الممتدّ على خمسة عشر قرناً.

الشعر يقوم بناؤه على الخيال الذي يبحث عن وسيلة للتعبير عن فكرة تجول في الخاطر فما كان مدى تفكير الشاعر أي مدى تعمق مشاهدته وتوسعه وإلى أي حقائق وصل هو ثم كيف صوّر تلك الحقيقة في خياله وأين تقوم وسيلته للتعبير عن تلك الصورة في مجال الأدب؟ فكأنّ المضمونَ والخيالَ والتعبيرَ أشياء ثلاثة لا يستغني عنها الشعراء ولو انتموا إلى أي بلد أو ولدوا في أي زمان فيمكن لنا أن نقرّر هذه الأشياء الثلاثة أصولاً مشاركة للمقارنة بين شاعرين من مختلف اللغات. وقد كتب عن فن الغالب إلى حد يمكن أن نسمّيه بمكتبة على حدة. ولهم فنّ كلا

^١ المصدر نفسه، ص ٧٧

^٢ تفهيم غالب، ص ٢٣

فيقول المتتبي:

للمتنبى بيت شهير في الافتخار بذاته فهو يقول:

جام ہر ذرہ ہے سرشار تمنا مجھ سے

کس کا دل ہوں کہ دو عالم سے لگایا ہے مجھے

134

يقول المتنبي:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر ألّا تراني مقلّة عمياء
ما زال المتنبي يشكو معاصريه بجانب شعوره القوي بتفوقه عليهم في
الشعر، وفي الشعر المذكور أعلاه ذكرت نفس الشكوى وكذا قال الشاعر الفارسي
سعدي الشيرازي فأجاد:

گر نه بیند بروز سپره چشم چشمه آفتاب را چه گناه
لم يرد المتنبي في هذا البيت من هو غبي في الواقع ولكنه سخر به الشعراء
المعاصرون، أما الغالب فكان على ذروة الأدباء وكان يعرف تفوقه على
المعاصرين من الشعراء كما كان يعرف أن مكانة الشعراء المتقدمين دونه ولكنه لم
يحقر أحداً من المعاصرين أو المتقدمين أبداً وكان لا يؤمن بالإيذاء والإهانة. إنه
كان يعرف، كما ذكر، قيمته ولكنه لم يقل إن الشعراء المعاصرين أغبياء وإنهم
فاقدوا البصيرة في نقد الشعر بدلاً من ذلك إنه جاء بمضمون نادر عمّ فيه الأغبياء
والأذكياء بدون تعيين. اقرأ بيته التالي فتجد فيه تلك الشكوى الخالية من تحقير
الناس مع أنه أعمّ مما قاله المتنبي فهو يقول:

آگهی دام شنیدن جس قدر چاهے بجھائے مدعا عنقا هے اپنے عالم تقریر کا
ترجمة: مهما تفتش الیقظة شبكة الاستماع لا يقع فيها فحوى كلامي فهو
كالعنقا لا يقع في مثل هذه الشبكات لعلو طيرانه.

تأمل في ألفاظ البيت فهو مليء بعموم المعنى وسعة الخيال وندرة التعبير
فهل بلغ بيت المتنبي هذه الدرجة العليا من الفن. وبما أن العنقا طيرٌ مفروض لن
يمكن وقوعه في الشبكة فضبط فحوى عالم الخطاب أمرٌ لا يمكن ولن يمكن.

يقول المتنبي:

یا لائمی کفّ الملام عن الذی أضناه طول سقامه وشقائه
يلمح من البيت شيء من الترحم والتعزّي ولا نجد في المعنى شيئاً من الندرة
وقد تناول الغالب هذا المعنى فأخلده فهو يقول:

ضعف میں طعنه اغیار کا شکوہ کیا هے
بات کچھ سر تو نہیں هے کہ اٹھا بھی نہ سکوں

ترجمة: لا شكوى لطعن الأغيار في شدة الضعف فإن الكلام (الطعن) ليس برأس لا أطيق رفعه.

منع المتنبي عن اللوم ترحماً وأما الغالب فهو لا يعتني بطعن الأعداء ومثل هذا يقع مع المحبة إذا كانت هي خالصة "لا يخافون لومة لائم". اقرأ عجز البيت فستجده معجزة فهو يقول: ولو هو لا يقدر على رفع الرأس بسبب النحافة ولكنه لا بأس بطعن الأغيار فإنه كلام وليس برأس لا يطاق رفعه.
يقول المتنبي:

يشكو الملام عن اللوائم حرّه ويصدّ حين يلمن عن برحائه
فقد أبدع المتنبي معنًى عجيباً بما أنّ العاشق يجري لومهُ إلا أنّ حرارة
العشق شديدة إلى حدّ يتجنّب اللوم أنّ يبلغ سويداء القلب فيعود ويعتذر إلى اللائمين
قائلاً إنّ هناك حرارة شديدة لا يمكن لنا الصبر عليها وبالجملّة فاللوم لا يمكن تأثيره
في القلب بما أنه لا يقدر على أن يدخل فيه. هذا معنًى طريف وله تعبير شعري
وفيه تأويل عجيب لعدم تأثير اللوم وقد تمّ فيه التركيز على حال شدة حرارة القلب
التي لن يمكن اللوم أن يقرّ فيها. ورد في شعر الغالب هذا المعنى فرفع به من الثرى
إلى الثريا فهو يقول:

هے دل شوریده غالب طلسم پیچ و تاب
رحم کر اپنی تمنا پر کہ کس مشکل میں هے

ليس في هذا القلب حرارة فحسب بل تجري فيه عملية كفح الهوى التي تكبح
مرة بعد أخرى وأما الاضطراب فهو زائد عليه. تتمكّن أمنيّتك في القلب الهائم فيما بين
حراقة العشق وأزيز الكوائف والتوتر واضطراب القلب. أفلت لوم المتنبي وأما أمنيّة
غالب فمقرّها القلب في كل حال من الأحوال وفي نفس القلب هناك حراقة وحرارة
وأزيز وتوتر فكيف بتلك الأمنيّة التي تغلّي غليّ البيضة في الماء الساخن فيلتمس
الشاعر من العشق الرحم على أمنيّته. واللطف في البيت أنّ الترحم على الأمنيّة هو
نفس المطلوب. أمامك معنيان عن حرارة العشق فاحكم أنت بنفسك أيهما أشعر بالنسبة
للأسلوب والصورة البيانية واختيار الكلمات وندرة المضمون فيما يتعلّق بنيل المطلوب.
يقول المتنبي:

وما كل من قال قولاً وفي ولا كل من سيم خسفاً أبى

أي ليس كلّ رجل مثلي في الإباء فالمعنى جميل وأسلوبه شعري كما أنّ
بحره سلس والبيت مليئٌ بالعواطف الثائرة ولكن هل لا يمكن بشأن الإباء أن يتقدّم
أحدٌ ويفوق هذا المعنى. اقرأ بيت الغالب التالي:

تشنه لب بر ساحل دريا ز غيرت جاں دهم

گر بموج افتد گمان چين پيشـمانى مرا

ترجمة: إنّ خيّل إليّ أن الأمواج (المرتفعة) أسارير على جبهة البحر فأموت
من الغيرة والإباء عطشان على ساحل البحر (أسارير الجبهة مركز الاستكثار
والاستكراه)

تأمل رفعة الخيال فتعبير البحر بالناصية ثم تعبیر الأمواج المرتفعة فيه
بالأسارير ومن ثم الاستنتاج بأنّ سقيه من البحر يمكن ألا يسرّ البحر خيالاً دقيق
ولطيف.

يقول المتنبي:

إن المعين على الصباية بالأسى أولى برحمـة ربها وإخائه

العشق وما يلزمه عنصرٌ مشترك للشعر الشرقي فتجد في كلّ مكان ذكر
العشق والناصح والواعظ واللائم وغيرها وقد ذكر المتنبي في بيته المذكور أعلاه
الحقيقة أنّ الحال التي يمرّ بها العاشق لا يستطيع اللائم فهمها فيزيد لومه العاشق
ألماً فمن يعزّي العاشق في هذا الألم فهو الصديق المخلص له فبيّت المتنبي مجرد
الخبر وإظهاراً للحقيقة النفسية. اقرأ نفس المعنى لدى الغالب فهو يقول:

يه كهان كى دوستى هے كه بنے هيں دوست ناصح

كوئى چاره ساز هوتا كوئى غم گسار هوتا

ترجمة: من أين هذه الصداقة فالناصح أصبح صديقاً لي، ليتّه كان أنيساً
مؤانساً أو شافياً مخلصاً.

بدأ الغالب بالاستفهام يعني أن الناصح يخلص النصيحة ولكن هذه النصائح
ليست بما يقتضي الحال وفي عجز البيت أنه يتمنى أن يكون هناك معين على
الصباية بالأسى ولكن لا يجده فالتمني والعجز وكيفيته المترادة للصباية أتى بكل
هذه الأحوال في بضع كلمات فالبيت مليئٌ بالكيفية ويثير عاطفة الشفقة والرحمة
بينما شعر المتنبي لم يتجاوز عن أن يكون خبراً محضاً أو رأياً مختاراً.

يقول المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أهوائه حتى يكون حشاك في أحشائه
حاول المتنبي أن يخلق معنىً جميلاً فهو يقول مخاطباً العاذل: لو وضع قلب
العاشق في صدرك فلا تعذله أبداً فستمرّ بما يمرّ به العاشق فأين العذل واللوم؟ وقد
جاء الشاعر الفارسي سعدي بما هو أجود منه فقال:

محتسب گر مے خورد معذور دارد مست را

وقد أدّى الغالب، بادئ ذي بدء، هذا المعنى بأسلوب سهل فهو يقول:

عاشق هوئے ہیں آپ بھی اک اور شخص پر

آخر ستم کی کچھ تو مکافات چاہئے

فهناك فرق كبير بين نقل كيفية العشق وكون الواحد عاشقاً حقيقياً. مثاله
مثال رجل يعطى مائة ألف روبية ورجل يكتسب هذا القدر من المال ففي المثال
الثاني يجب على المرء أن يمرّ بكافة المراحل وهو ليس عبارة عن نقل كيفية
فحسب. الآن يعرف الحبيب ما هو العشق فإنه نفسه قد عشق.

لا ينتهي المعنى إلى هذه الغاية فعجز البيت يشمل معنى آخر مستقلاً بذاته
وهو أن الظلم الذي مارسه معي كحبيب ذوقيه كعاشق الآن فخلق هذه المعاني في
بيت واحد مما يختصّ به الغالب ولا غير.

لقد أكثر الناس باتهام المتنبي بسرقة المعاني من الشعراء الآخرين ولكن تلك
السرقاات ليست إلا بنوع من الجدة والابتكار في المعنى. وهذا ما أدلى به القاضي
الجرجاني والثعالبي وأثبتاه بالأمثلة ولكن ما قاله المتنبي نفسه في هذا المعنى هو
خير مثال للابتكار والروعة الفنية، وهو كما يلي:

وهاجي نفسه من لم يميز كلامي من كلامهم الهراء

أي من لا يقدر على التمييز بين كلامي وكلام غيري من الشعراء فكأنه
يهجو نفسه أي هذا بعيد عن الذوق السليم. فكأنه يقرّ بفساد ذوقه وقلة مائه. قرض
المتنبي أبياتاً عديدة في هذا المعنى فقد هزء بمعاصريه مرة كما عارض القدامى
مرة أخرى فهو يقول في مكان:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فكلا بيتي المنتبي أجود ويعدّ من أبياته الرائعة ولكنه ينمّ عنهما تحقيرُ الآخرين بل هو أساس الشعر. وفي الجانب الآخر يعرف الغالب منزلته في مجال الشعر وهو أيضاً كان يعرف الآخرين وعجزهم عن وصول مكانته وكذا اتهم الغالب بسرقة المعاني ولكنه لم يأت بأدنى مرارة أو شدة في لهجته أبداً فبدلاً من تحقير الآخرين إنه خلق معنى آخر لطيفاً يختصّ به فهو يقول:

مبرّكمان تواردا به شعر من كه دزد متاع من ز نهان خانه ازل بر دست
ترجمة: لا تظن بشعري تراثاً مسروقاً لأن السارق (المتقدمين من الشعراء)
اختطف كلامي من خزانة الأزل.

فورود خيال معيّن في أذهان الشاعرين وذكره يسمّى توارداً ويسمّيهِ العرب السرقة الشعرية بأنواعها وهذا عامّ بين الشعراء، أما نقل مضمون معيّن بدون أي جدة وابتكار في المعنى فهذه هي السرقة فالتوارد ليس بعييب ولكنّ الغالب لا يحبّ حتى التوارد فهو يقول: لا تظن بشعري توارداً أي إذا وافق معنى في شعري معنى القدامى فلا تظنوا أنني نقلته منهم بل كان ذلك متواجداً في خزانة العالم الأزلي فمن سبقني سرقة من متاعي فلستُ بسارق بل المتقدمون هم السارقون. هذا معنى لطيف ملؤه الظرافة.

يقول المنتبي:

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا
أي لا يعرف الناس درجته ولا يعلمون آلائه فأراد الشاعر أن يقول: إذا لم يعرفه الأجانب فلا عجب فإنه غير معروف فيما بين أبناء وطنه وأعضاء عشيرته فافقراً الشعر وافهم معناه فقد قدّم الافتخار بنفسه والشعور الشديد بعلوّ كعبه في صورة خبر فالنقص في شعر المنتبي أنه يطلب التقدير على أساس معرفة مكانته الأدبية من الأهل يعني الأب والأم والزوجة والابن والبنات وإلى غير ذلك من أفراد الأسرة أو أهل البيت والحق أن المطلوب منهم فقط الوداد والحبّ والاعتزاز به فإن انحصر في أهل الوطن مثل الأجانب لكان معقولا وهذه الشكوى عامّة لدى الشعراء العظام في كلّ عصر ومصر فإنه يشعر بالجهل عن مرتبته، والسبب المعقول وراءه أنّ الناس لا يصلون إلى ما يصل إليه عقله فنجد ذكر الوحدة والغربة لدى

كل شاعر كبير وقد ذكر الغالب معنى الغربة بأساليب عديدة تختلف عن أسلوب المتنبي فاقراً ما يلي:

تھی وطن میں شان کیا غالب کہ ہو غربت میں قدر
بے تکلف ہوں وہ مشّت خس جو گلخن میں نہیں
ترجمة: متى كان لي شأن وتقدير في الوطن حتى أتوقع التكريم في الغربة.
أنا كالحشيش المتبسط الذي ليس في الفرن (يعني عند موقد النار الذي يعتبر
كوطنه) (تذروه الرياح من مكان إلى مكان).
وقال أيضاً:

نہ جانوں کون ہوں کیا ہوں مگر صحبت مخالف ہے
جو گل ہوں تو ہوں گلخن میں جو خس ہوں تو ہوں گلشن میں
وفي النسخة الأخرى نقل صدر البيت كما يلي:
نہ جانوں نیک ہوں بد ہوں مگر صحبت مخالف ہے
ترجمة: لا أدري من أنا وما أنا ولكن أدري بهذا القدر أنّ المرافقة لا
تلائمني فإن كنت زهرة فأنا لدى الفرن وإن كنت هشيماً فأنا في البستان.
فالنكتة في البيت أنه لم يرجح أحداً من الجانبين وهذا هو العدل ولكنه بفحوى
الكلام يتعيّن جانب الخير للقائل في مثل هذه الأساليب، إنه اتبع أسلوب القرآن
الكريم كما ورد "إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين". وقال حسّان بن ثابت
الأنصاري رضي الله عنه:

فشرکما لخیـــــرکما فـــــداء

وبالرغم من اعتباره كريم النفس فقد اعتبر الغالب نفسه كفاً من الغناء ولم لم
ينل الغالب قبولاً عاماً فإنه لم يشر إليه فقد سبّب هذا الإبهام احتمالات عديدة ومنها
أنّ أبناء وطنه لم يعرفوا درجته العليا فإن حدث كذلك في الوطن فكيف له أن يأمل
تقدير درجته في الغربة فالفرن الذي هو وطن الحشيش والغناء مجازاً أو حقيقة كان
من الممكن أن يختلط في الفرن بالنار فيظهر نوره المختفي في ذاته ولكنه لم يتح له
هذه الفرصة فنجد في الشعر عدم الالتفات لأجل عدم المعرفة عاماً في الوطن كان
أم في الغربة ولكن الغالب أوضح بإيراد كفاً من الغناء أنه لو كان في مكانه
المناسب لأمكن ظهور مؤهلاته وجداراته.

يقول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
أدى الغالب نفس المعنى كما يلي:

رنج كا خوگر هوا انسان تو مٹ جاتا هے رنج
مشكلىن اتنى پڑين هم پر كه آساں هوگئين

ترجمة: عندما يكون الإنسان معتاداً على الألم فلا يشعر به، وقد نزلت عليّ
المصائبُ إلى حدٍّ أصبحتُ هي الهوانَ عليّ.

أورد المتنبي نفس المعنى في ثلاثة أبيات له وهي:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء عن نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
وهـان فما أبالي بالرزايا لأنني ما انتفعت بأن أبالي

يقول المتنبي:

غدا بك كل خلو مستهماً وأصبح كل مستور خليعاً
فمعنى الشعر يكون كما يلي حسب ألفاظها:

من كان خالياً عن جذوة العشق أصبح مستهماً ومن كان يخفي عشقه خلع
ستار الإخفاء وبمعنى أقرب من كان لابساً خلع لباسه يعني أصبح فاطر العقل وتهتك
في الهوى. فالمعنى واضح وإليك اختيار الألفاظ وتركيبها. ذكر الغالب نفس المعنى
بخيال وسيع للغاية يدهش العقل بهذه الوسعة الفكرية فهو يقول:

حريف جوشش دريا نهين خود دارى ساحل

جهاں ساقى هو تو باطل هے دعوى هوشيارى كا

تفكر كيف صورّ في صدر البيت أنّ الشاطئ جامد لا يتحرك بينما النهر في
جنبه وهو أروع صورة لفظية لـ"خلو" التي استخدمها المتنبي. عمّم الغالب هذا
المعنى فهو يقول: الشاطئ أبى لا يميل إلى النهر الذي حضنه ولكن إذا طغى النهر
فلن يكون الساحل حريفاً ومقابلاً له فيتهدم الشاطئ وينكسر كسرة كسرة وينحلّ
وجوده في النهر فكذا حيثما كنت أنت ساقياً دعوى الصحوّة باطلة يعني لا يستطيع
أحد أن يبقى على حاله.

ليالي الهجر والفراق موضوعٌ عامٌ لشعريات الشرق فقد أكثر شعراء العربية
والفارسية والأردوية قريضهم فيها وكذا كان هذا موضوعاً خاصاً لشعراء العربية
قبل المتنبي وقد حاول المتنبي أن يقدمه بأسلوبه الخاص ونجح فيه فهو يقول:

أحاد أم سداس في أحــــــــــــاد ليلتــــــــنا منـــــــــــــــوط بالتناد

فالشاعر يذكر طول ليل الهجر ويتخيل أن سلسلة هذا الليل الطويل تنتهي
إلى قيام الساعة. ذكر امرؤ القيس هذا المعنى بأسلوب شعري جميل فهو يقول:

ويا لك من ليل كأن نجــــــــــــومــــــــه بأمراس كتــــــــان إلى صمّ جنـدل

اعترض مؤيدوا ومخالفوا المتنبي على بيته المذكور أعلاه من مختلف
الجهات فيقول القاضي الجرجاني إن "خماس" و"سداس" لم يجيء استخدامهما من قبل
العرب فهم يستخدمون مجرد "أحاد" و"مثنى" و"ثلاث" و"رباع" و"عشار" وثانياً أن
تلك الأعداد لا تعني إلا تكرار العدد أي "أحاد" يعني "واحداً واحداً" و"مثنى" يعني
"اثنين واثنين" فصاعداً فاعتبار ليل واحد بـ"أحاد" و"سداس" خطأ فاحش ويمضي
قائلاً: لو أراد المتنبي الإحاطة بالليالي السبعة فهذا أيضاً لا يسوغ فإنه لو ضرب
سبعة في واحد لكان ستة ولا سبعة وإن أراد كثرة العدد فلم استخدم سبعة ولم
يستخدم عدداً أكبر من ذلك ثم اعتبار هذا الليل الطويل بـ"لييلة" خطأ آخر فهذا
مصغّر الليل. وأرى أن المتنبي أراد هنا مجرد طول الليل وقال إن ليلاً واحداً له
طويل إلى حدّ ينضمّ فيه ستة ليالي أخرى وهكذا فيمكن توجيه سبعة ليالي ولكنه
يصعب إثباته من نص الشعر. ذكر الغالب هذا المعنى بكلمات صريحة كما يلي:

تا قيامت شب فرقت مین گزر جائے گی

سات دن هم په بهاری هیں سحر هونے تک

ترجمة: تنقضي (الحياة) في ليلة الفراق والهجران (الممتدة) إلى يوم القيامة.

اشتدّت عليّ هذه الأيام السبعة إلى أن ينجلي السحر.

إنه أتى بسبعة أيام مكان ستّة أو سبعة ليال وأحاط بالزمان وفي صدر البيت
أتى بلييلة الفراق اعتباراً بها ككيفية مستمرة تمرّ مع مرور الأيام والليالي وكلمة
"سحر" هي استعارة عن الموت.

فما يبدو من بيت الغالب عموماً هو الهمّ والاضطراب واليأس بينما بيت

المتنبي اضمحلّ في أصول الرياضي المعقّدة وينتهي إلى خبر محض.

يقول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وشرّ المنـايا أن يـكنّ أمانيا
البيت مؤثر للغاية وجيّد بالنسبة إلى موضوعه فإن أصبح الموت طبيياً
فيـمكن لنا تقدير شدة المرض وظلمه ويزيده المتنبي بما أنه لو أصبح الموت أمنية
فيـمكن لنا فهم مدى صعوبة الحياة. أدّى الغالب هذا المعنى بكلمات وجيزة للغاية
فهو يقول:

منحصر مرنى به هو جس كى اميد نا اميدى اس كى ديكها چاهيى
ليس الغالب شاعراً قنوطياً فهو يعرف كيف يعيش مواجهاً مصائب الحياة
فالحقيقة التي تمّ تبينها في هذا البيت فهو عين ما ذكره المتنبي مع شيء زائد بأنه
جعل البيت إنشأً بينما بيت المتنبي خبر محض. ويقول الغالب في موضع آخر كما
يلي:

بس! هجوم نا اميدى خاك ميں مل جائے گى
يہ جو اک لذت ہمارى سعى لا حاصل ميں ہے

لا نجد تشابهاً كبيراً بين المتنبي والغالب بالنسبة إلى الموضوعات فإنهما
مختلفان جواً فكرياً فالغالب ميدانٌ يختلف عن مجال المتنبي ولكن سعة الخيال وفهم
الحقائق والقدرة الفائقة على التعبير والتراكيب اللفظية البديعة التي تطوي الأخيلة،
كلّ هذه توجد لدى الغالب أكثر مما يوجد لدى غيره من الشعراء والمتنبي ليس
بخارج منهم.

وبالجملة فالموضوع طويل للغاية ويقتضي كتاباً مستقلاً بذاته فما ذكرناه في
هذه المقالة الوجيزة ليس إلا إشارات وسنصلّها في المستقبل القريب إن شاء الله
تعالى.

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي

الطاؤوس

- الشيخ بدر جمال الإصلاحي

كأن الطاؤوس في نقشه عروس:

الطاؤوس طائرٌ معروفٌ حسنُ الشكل، حادّ الصوت، من فصيلة التُّدْرُجِيَّات ورتبة الدجاجيات، مهدّهُ الأصلي المنطقة الهندية-الماليزية، له عنق طويل ورأس صغير، تزينه قنبرة. وتصغيره طويس وجمعه أطواس وطواويس، ومعناه: جميل، متزيّن، كما في "المنجد" وغيره من المعاجم: طاست المرأة طوساً: تزينت وتجمّلت. طاس الوجه: حسنٌ....¹ وفي طبعه حبّ الزهو بنفسه والإعجاب بريشه، لاسيما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه، يكمل لون أرياش الذكر وتبيض الأنثى بعد أن يمضي لهما ثلاث سنين، ويسافدان في أيام الربيع ويلقي الطاؤوس ريشه في أيام الخريف، فإذا بدأ طلوع الأوراق في الشجر أيام الربيع طلع ريشه أيضاً.² ويقولون في المثل "أزهى من طاؤوس" و"أحسن من طاؤوس" لحسنه وجماله وكثرة زهوه بنفسه. يوجد في الهند زهاء ألفين من أنواع الطيور، وأجملها الطاؤوس، ريشه ملوّن زاهٍ تتجذب إليه الأنظار خصوصاً عندما يرقص ناشراً ذيله الجميل الزاهي الألوان اللّماع، يوجد الطاؤوس في جميع أنحاء الهند، وله علاقة خاصة بأدب الهند وحضارتها وثقافتها وشعبها ورسومها، وجاء ذكره في الكتب السنسكريتية القديمة لاسيما في رغفيدا (Rigveda)؛ ورد فيها صفاته الجميلة ومزاياه الحميدة. وقد ورد في الأخبار القديمة والقصص الدينية الهندوسية أنّ كرشن العظيم كان يزّين تاجه بريش الطاؤوس. وله أهمية كبرى في تاريخ البلاد الأخرى أيضاً.

¹ المنجد في الأعلام، المادة: ط و س

² حياة الحيوان، ١١٢/٢

ينادونه بمختلف الأسماء والألقاب:

واسمه في مختلف لغات الهند هكذا: في الأردوية والفارسية "طاؤوس" وفي الهندية "مور" وفي السنسكريتية "ميور" وفي كَنّار "تول" وفي تيلغو "تيملي" وفي التاميلية والمليبارية "ميل" وفي السنهالية "مونار" وفي اللغات الأجنبية؛ في الفرنسية "بون" واللاتينية واليونانية "باؤ" وفي الإنكليزية "بيكوك" (Peacock) واسمه في اللغة العلمية "بافوكريستاتوس" (Pavocristatus)، ولأجل صفاته المتميزة وأعضائه الجميلة كان الهندوس يسمّونه في السنسكريتية بأسماء متعدّدة مثلاً شيكهالوال (Shikhawal: ذو حشمة) وسيتا بانغ (Sitapang: ذو الخدّ الأبيض). يتميّز الطّاؤوس الهندي بهذه الصفة عن الطّاؤوس البورمي لأنه يخلو من بياض الخدّ الجميل. وكذا سمّوه بـ"نيل كنتث" (Nilkanth: الأزرق العنق والصدر) وتقول الأسطورة الهندية أن عنقه وصدّره صارا أزرقين لأنه يأكل الحيات السامة. ويسمّونه أيضاً بـ"كلابي" (Kalapi: ذو أرياش متراصّة) وتشندركي (Chandarki: ذو العيون) لأنه يكون في نهاية أرياشه أشكال كالعيون. تقول الأسطورة الهندية إنّ إندرا (Indra: إلهة المطر) قد أعطته هذه العيون الملوّنة اللامعة، وتشيترا بيتشهاك (Chitrapichchhak: ذو الأرياش الملوّنة اللامعة) وشيكهاندي (Shikhandi: ذو الذيل المتوازن) لأنه يفرّ بالسرعة الفائقة في الغابات الكثيفة بين الأشجار ذات الغصون الشائكة ويرقص بالسهولة مع ذيله الطويل الثقيل¹.

أنواع الطّاؤوس:

ينقسم الطّاؤوس إلى ثلاثة أنواع: (١) الطّاؤوس الأزرق الهندي: وإنما يوجد في الهند وسري لانكا، (٢) الطّاؤوس الأخضر البورمي، ويوجد في بورما (ميانمار) وشرق الهند. (٣) والطّاؤوس الحبشي: وله عرفان، ولكن الطّاؤوس الأزرق الهندي معروف ويشتهر من قديم الزمان، وكان ذا قيمة فائقة حتى كان ملوك الهند يهدونه إلى الملك العظيم نبي الله سليمان عليه السلام كهدية ثمينة فاخرة. وقد استورده الإسكندر الأكبر إلى بلاد اليونان، ومن هناك وصل إلى بلاد

¹ الطّاؤوس، الطائر الوطني لبلادنا، ص ٣

الروم، ثم إلى إنجلترا.

يستطيع الطاووس أن يعيش في كل بيئة ومناخ بالسهولة، فلهذا يوجد في كل مكان من الأرض المسكونة، ولكنه يؤثر المزارع والبساتين والغابات على القفار والصحارى.

الطاووس الأزرق الهندي يعيش في الأودية التي تتوافر فيها الحرارة والأشجار والأعشاب وتجري فيها القنوات أو الأنهار، ويخرج من الغابات والبساتين إلى المزارع ليتناول رزقه من الخضار والأعشاب والغللات والحشرات والزواحف، ويرجّح غابات السهول ووديان نهري "السند" و"الغانج" ومناطق الساحات وميادين نهر "برهم بوترا" ويحبّ شعاب الجبال أو الغابات، ويوجد أيضاً في مزارع هضبات الدكن والمناطق الوسطى من الهند وفي الأمكنة التي تعلو ألفين وخمس مائة متر، كجبال نيلغيري. ويقتنى في أطراف المساجد والزوايا والمعابد. ويوجد في سري لانكا في كل مكان سوى المناطق الجبلية، ويقتنى في البلاد الأوربية للزينة وكذلك في أمريكا يقتنى في الأفقاص الكبيرة أو في حدائق الحيوانات.

ويتفرس الصيادون وجوده بخطواته على الأوراق الجافة في الغابات، وبصوته الصارخ العالي كالرعد، وبطيرانه إلى الأشجار الشامخة عند غروب الشمس للبيتوتة، ويصوّت في الصباح والمساء "ميور، ميور" ولصوته هذا سمّاه أهل الهند القدامى باسم "ميور" (Mayur).

عادته وصفاته:

وإذا نظرنا إلى الطاووس وجدنا كثيراً من الصفات المتميزة له كعرفه الريشي الأزرق وجسمه الملون اللامع وذيله الجميل الطويل، ويكون جسمه كبيراً بيضاوياً ورأسه صغيراً وعنقه حسناً لطيفاً لدناً، ويعطف الجزء الأمامي من رجليه تحت أرياشه عندما يطير في الهواء، والجزء الخلفي منهما عندما يجري على الأرض ويحتوي ذيله على كثير من الأرياش الطويلة الجميلة ويكون صدره كبيراً جداً.

حجم الذكر يكون أكبر من الأنثى، ويتميز عن أنثاه بأرياشه الجميلة الملونة

اللامعة، وبذيله الطويل الجميل الذي يبلغ إلى متر ويحتوي على مائة ريش ويزيد هذا العدد بصورة مستمرة، حتى إذا بلغ الطائر إلى خمس سنين، عند ذلك يبلغ هذا العدد إلى مائة وخمسين وتكون على الذيل صور العين، لونها أخضر باذنجاني لامع في الحلقات الزرقاء الوردية. ويكون ريش أبيض حوله عينه.

يكون عنقه وصدره أزرقين مائلين إلى اللون الباذنجاني ويختفي ظهره بأرياش خضراء لامعة، ويكون عليهما خط أزرق وعلى كتفيه أرياش سوداء نحاسية، ويكون لون ذيله الأساسي وجناحيه أسمر نحاسياً.

وأجمل أعضاء الطائوس ذيله الطويل المزين بألوان جذابة، وأشكال دنانيرية، ينشره عند رقصه ونشاطه ولاسيما في فصل المطر حينما تتغيم السماء. وهو يعرف الطيران جيداً، ولكنه يتعرض للصعوبة لنقل وزنه وطول ذيله، مرة يطير وأخرى يركض، ولما يعاقبه العدو أو الصائد يطير إلى مسافة تأتي متر مستمراً ويستطيع على العدو السريع، وأنثاه أقوى وأسرع منه على الطيران والعدو، لأنها أخف وزناً منه، وهي أقل منه حسناً وجمالاً، ريشها يكون أغبر يخلو من الألوان الجميلة واللمعان، يكون رأسها مزيناً بالقنبرة والعرف الريشي كذكرها، وعنقها يكون ذي اللون الأخضر قليل اللمعان. ولا فرق بين الذكر والأنثى في زمن الطفولة.

يقتنى الطائوس منذ زمن طويل ولكن الطائوس الداجن لا يختلف عن الوحشي شيئاً ما، ولا فرق بين المستأنس والوحشي إلا في نصح اللون وبهائه، ويوجد الطائوس الأبيض أيضاً في الهند، في حالة الاستيناس والوحشة، ونرى صورة العيون على أرياش ذيله البيضاء، كأنها رُسمت على الدمقس الأبيض بالماء. الطائوس يقتات كل شيء من الخضار والحيوانات والغلات والفواكه والأصول والأعشاب والأوراق والزهور، ويحب أكل ثمار التين، ودود الأرض والبراعم الناعمة من الخيزران والقصب، والحيات والحرباء.

يخدش أبحار ديدان الأرض برجليه القويتين ويشغل في ذلك إلى ساعات، وكذلك لنيل الحشرات والعناكب والخراطين والقوقعات والأصداف والضفادع والحيات، يخدش أرض الغابات المختلفة تحت الأوراق فيفوز بها ويأكلها بالرغبة وإنه عدو للحيات كالعقاب الحبشي.

ويكره الفلاحون دخوله في مزارعهم وبساتينهم لأنه يأكل البراعم والبذور والفواكه، ويفسدها ويضيع فصولهم، ويخافون بهجومه على مزارعهم، كما كتب العالم اليوناني بالتفصيل. ومن أعجب الأمور أنه مع حسنه يتشاءم به، ويكره وجوده في الدور والبساتين، وحكي أنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها¹.

استورد الطاووس في جزيرة "سنيت هيلنا" التي تقع في المحيط الأطلسي الشمالي وهناك تناسل وتزايد وكثر وتغلب على مزارع الجزيرة فأضرّ وأفسد فصولها. فخافوا بوجوده وزعموه مشئوماً نحساً فأهلكوه، وهكذا خلت الجزيرة عن هذا الطائر الجميل.

شغفه ورغباته:

وهو متعود بشرب الماء بعد ساعة من طلوع الشمس وقبل أن يغادر إلى مبيته عند الغروب، يهرع إلى الصخور والسفوح والحدّرات والشجيرات وغابات القصب والأنهار باحثاً عن الماء، وهو يحبّ المناطق ذات الغدران والأنهار، وحينما يبلغ إلى ثلاث سنين من عمره تكمل أرياشه لوناً ولمعاناً ويتمّ ذيله طويلاً، ويصير شاباً مترعرعاً، يستعدّ للرقص والتزواج فكان الطاووس لا يختص لنفسه زوجة واحدة بل في حرمة تكون ست إناث إلى عشر إناث أو أكثر.

عند ذلك يجعل لنفسه سرباً يشتمل على أربع أو خمس طاؤوسات ولا يسمح أن يدخل في سربه ذكر آخر وفي بعض الأحيان تقوم الحرب بين الذكورين للتغلب على إناث السرب فيقاتلان بأرجلهما وأجنحتهما حتى يغلب أحد منهما على الآخر فيصير الغالب مالكا للسرب.

عند الاختلاط بأنثاه يشهر أرياش ذيله الجميلة ذات صور العيون، والأرياش الباقية من الذيل تنشر عرضاً أو تتجرّ وتسحب على الأرض والأرياش السمراء من الجناحين تظهر من الجانبين متدلّية ويتقدّم رويداً إلى أنثاه ويهزّ أرياشه الجميلة الملونة ناشراً ذيله كالمروحة أو الترس، ويسمع صوت موسيقى لذيذ من أرياش الذيل بسبب ارتفاعه واهتزازة مثل ما ينزل المطر على الأوراق الجافة ثم ينعطف

¹ حياة الحيوان، ١٢٢/٢

ليظهر على أنثاه جسمه الخلفي ولاسيما ظهره وفخذه، وفي بعض الأحيان يظهر لأنثاه حصته الخلفية والتحتانية من أجنحته السمراء الجميلة ماشياً خلفاً لتميل إليه الأنثى وإذا تأثرت وقبلته، يتقدم إليها الطاووس سريعاً هازماً أرياشه وبين الفينة والفينة تنقره أنثاه متعجبة ومتدللة، بعد ذلك يتم الاختلاط بينهما، وتبيض الأنثى في جنوب الهند في مارس وإبريل، وفي شمال الهند في مايو ويونيو.

ولا يعرف صناعة التعشيش، بل تبيض أنثاه بين الشجيرات على الأرض وفي بعض الأحيان تبيض على الأمكنة العالية، والسقوف المنهدمة، وعلى الأشجار الباسقة بين أغصانها.

إذا السماء تغيّمت:

وإذا تغيّمت السماء ورعد البرق¹ فالطاووس يطرب ويرقص ويهوي إلى الاختلاط بأنثاه، وفي حريم الطاووس تكون خمس أو ست إناث. وبعد الاختلاط يفارق الذكر الأنثى ثم تبيض الأنثى من خمس أو ست إلى اثنتا عشرة بيضة، لونها أبيض وردي، وترخم على البيض أربعة أسابيع، يختار مكاناً مناسباً للتعشيش، مكاناً مختفياً بالشجيرات والأعشاب عند النهر أو الغدير، وهي تخذش مكان عشاها بأرجلها وتسويّه ثم تفرش عليه الأعشاب والأوراق المجففة وأرياش جسمها التي تنتف منه، ولا يستطيع أي رجل أن يعثر على عشاها إلا أن يراها داخله فيه أو خارجة منه. والذكر يعيث ويلهو بأنثاه إذا حضنت البيض، وربما يكسره. ومدة الحضان ثلاثون يوماً، وأفراخه تخرج من البيضات كالفروخ كاسبة كاسبة. والطاووسة الأليفة المستأنسة تبيض على سقوف البيت والزوايا فوق أبراج المساجد والمعابد أو في أنقاض البيوت والخرابات ثم ترخم على البيضات إلى شهر كامل وحدها، لا يشارك ولا يساهم الذكر في ذلك، تقف البيضات وتخرج منها الأفراخ كاسبات كاسبات وتربّي أمها وتعلمها كسب الرزق، وتحفظها من الأعداء السماوية والأرضية، وأعداءها كثيرة كالعقبان والبوم والطيور الصائدة، والحيات والضفادع وبنات عرس وبنات آوى والقط وكلاب الوحش وعناق الأرض وكثير من الطيور الكواسر والسباع.

¹ كتاب طيور الهند (Bhārat ke Pachchi)، ص ١٩٣

تكابد الأنثى في سبيل تربية أفراسها وصيانتها كثيراً من المصائب والعراقيل ولا يشاركها ذكرها في أي من تلك الأمور، تواجه الأم البلية المفاجئة وتقاومها، وإن تفرّست المصيبة قبل نزولها تختفي مع أفراسها تحت الشجيرات الكثيفة وتتدخل الأفراس تحت جناحيها وصدرها.

الطاؤوس طائر جبان يهرب من الإنسان، أولاً يمشي على الأرض سريعاً، وبالأخير يطير وإذا طار عبر كل الأشجار والمدادات المتسلقة على الشجيرات مع ذيله الطويل الثقيل بكل سهولة، وهو حاذٍ البصر، ذو همة عالية، يُطلع الأسد أو غيره من السباع من بعيد، ويصوت جهورياً لتنبيه الوحوش التي تسكن في الغابة فتنبّه الوحوش والبهائم وتفرّ وتختفي بين الشجيرات في المناطق العازلة، وهو طائر ذو عقل وتمييز، يميز بين الصديق والعدو. يفرّ من عدوّه ويقترّب من صديقه.

لحم الطاؤوس:

يكون لحمه لذيذاً شهياً، يأكله الملوك والأمراء. وجاء في رامايانا¹ إن مائدة رافانا تكون مزينة بلحم الطاؤوس وكان تقرأ بهاردواج (Bahrduāj) بهارات (Bharat) بلحم الطاؤوس. وكانت الإغريق والروم يربون الطاؤوس قبل ألفين من الميلاد لا للزينة فقط بل لأكلهم لحمه وقرى ضيوفهم فيه.

وكان ملوك الروم يأكلون لحمه ويقرون به أعزّ وأكرم أضيافهم. كما ورد في كتب التاريخ وأساطير القدامى ويكون لحمه وبيضه لذيذين ومقويين جداً، والهندوس أيضاً كانوا يأكلون لحمه برغبة شديدة لاسيما الملوك والأمراء في الزمن القديم والقرون المتوسطة.

وأهل "إنجلترا" و"إسكاتلند" كانوا يقرون ضيوفهم بلحم الطاؤوس إلى القرن السادس عشر من الميلاد. وأهل الهند يستعملون لحمه وشحمه وريشه في الأدوية وعلاج الأمراض المختلفة أيضاً، ويعتقدون أن الجن والغول يفرون بهواء مروحة ريش الطاؤوس ويصنعون بأرياشه كثيراً من الأشياء للزينة كالمراويح للتهوية والمكانس لكنس المعابد والأقلام للكتابة.

¹ كتاب مقدس لدى الهندوس، ألفه "بالميكي" ذكر فيه حياة "راما" ملك الهند، وهجرته إلى جنوب الهند، والحرب التي دارت بينه وبين رافانا ملك جنوب الهند وسري لانكا.

الطاؤوس في تاريخ الهند وفي الأساطير:

ويُزعم الهندوس أنه طائر مقدّس، لورود ذكره في كتبهم الدينية القديمة. وتقول الأساطير الهندية أن كثيراً من الآلهة كانوا يركبون على الطاؤوس واختاروه لهم كمركب جميل وجاء في ملحمة مهابهاراتا (Mahabharata) أن الإله "كارتى كي" (Karti ke) كان يختار لركوبه الطاؤوس، وجاء في رغفيدا (Rigveda) أن إلهة الحرب إندرا (Indra) كان شعر فرسها مزيّناً بريش الطاؤوس، وذيله كان كذيل الطاؤوس. وقد ورد في بالميكى (Balmiki) رامايانا قصة عجيبة أن ملك الموت مروت (Marut) قد أعدّ طعام ياغ (Yag) ودعا كثيراً من الآلهة، فهجم رافانا (Ravana) فاختاروا صور البهائم والطيور ونجوا منه، والإلهة "إندرا" قد اختارت صورة الطاؤوس فنجت ونجوا جميعاً من أسر الملك، فأعطت الإلهة "إندرا" الطاؤوس الآلاف من الأعين، والتمكّن على قتل الحيات والقدرة على إنزال المطر. وكذلك شرّفه وأعزه "كريشنا العظيم" (Shri Krishna) لأنه تعود أن يضع على رأسه المبارك ريشه.

وكان شعار أسرة الموريين (الذين حكموا على الهند قبل قرنين من الميلاد) الطاؤوس ولعل هذه الأسرة تسمّى المور (Maurya) بمناسبة كلمة ميور (Mayūr) السنسكريتية، معناها "الطاؤوس" وجبل غوفردهان (Goverdhan) الذي قد حمله كريشنا العظيم بيديه في حرب مهابهاراتا (Mahabharata) كانت تسكنه الطواويس وتتجول عليها. وجاء في كتب "جين" (Jain) المقدّسة أن إله الحرب الدمار هري نايغ ميش (Harinaygmesh) كان يركب على الطاؤوس، وإلهة البوذيين مهاميوري (Mahamayūri) كان شعارها الطاؤوس وكذلك كثير من آلهة الهندوس كانت مرتبطة بالطاؤوس. فاللهة العلم ساراسفاتي (Sarasvati) كانت ترابط وتواصل مع الطاؤوس وقد تعاونها الطاؤوس في إبراز الموسيقى من آلتها الموسيقية "فينا" (Vina).

وإذا تضرب على آلتها الموسيقية يغني الطاؤوس بصوت عال جميل من

¹ كرشن العظيم ولد قريباً من ماثورا (Mathura)، قدّم فلسفة الحرب والأمن في كتابه "مهابهاراتا" وبين أصول السياسة. وكان قائداً للحرب التي نشبت بين "كوروب" و"باندوف" قرابة سنة ألف ق م.

أصواته السبعة، ويرقص ناشراً جناحيه وذيله، ويقال: إن الطاوؤوس يغني صباحاً ومساءً بأصواته السبعة الغنائية^١.

وفي الأساطير الغربية القديمة أيضاً ورد أن كان الطاوؤوس على رتبة عالية وأهمية كبرى، كما تقول أسطورة: أن زوجة المشتري الغضبي: "جونو" قد سلّبت المائة عين لـلاله "أوكس" وقد ألصقها على أرياش طائرها المحبب "الطاوؤوس". وتقول أسطورة غربية أخرى: ولما خلق الله هذا الطائر الجميل الأرياش، خالفته الذنوب السبعة فسلب الله من الذنوب عيون الشر وصفرة الحسد وحمرة القتل وخضرة النفرة وأعطاه الطاوؤوس وأطلقه، فجرت الذنوب عقبه لتحصل عيونها وألوانها، ولكنها لم تقدر على نيلها ورجعت خائبة.

وعندما بين الشاعر الكبير كاليداس^٢ جمال الفطرة فهو يذكر جمال الطاوؤوس وألوان ريشه ورقصه أيضاً بالتفصيل. كانت ثقافة الهند في عهد موهنجودارو وهرابا (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق م) أيضاً متأثرة بالطاوؤوس، وجد كثير من صور الطواويس على الظروف الكبيرة والنقود وجدران حصونهم في الحفريات، يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الأول من الميلاد.

وجاءت قصة عجيبة في أسطورة هندية أنه مرة قد نشبت كسرة عظم في أسنان الأسد ملك الغابة، فلا قدر الأسد أن يخرجها من أسنانه ولا استطاع بذلك أحد من حيوانات الغابة، وبالأخير جاء الطاوؤوس فأخرجها، فسُرَّ الأسدُ بذلك ووضع تاجه على رأس الطاوؤوس. فمن ذلك الزمان نشأت بين الأسد والطاوؤوس علاقة ودية وصداقة صادقة، يصاحبان في الغابات، وينظف الطاوؤوس أسنان الأسد بمنقاره الحاد^٣.

ولعل "تخت طاوؤوس" المرصع باللآلي والجواهر والمذهب بالذهب والفضة قد وضع طبقاً لذلك القبول الذي ناله الطاوؤوس في المجتمع الهندي منذ قديم الزمان^٤.

^١ الطاوؤوس، الطائر الوطني لبلادنا، ص ١٣

^٢ كاليداس كان في زمن الملك العادل "بيكرماجيت" سنة ثلاثمائة للميلاد وهو شاعر عظيم للسسكريتية.

^٣ كتاب طيور الهند (Bhārat ke Pachchi)، ص ١٩٢

^٤ الطاوؤوس، الطائر الوطني لبلادنا، ص ٣

الطاؤوس في أدب الأجانب:

قد استورد الطاؤوس من مهدد الأصلي، الهند، إلى الإغريق والروم وفلسطين وإلى البلاد الأوربية، وكان التجار والسياح والفاثون والملوك يذهبون به إلى بلادهم من قديم الزمان، والتجار الفينيقيون أوصلوه إلى فراعنة مصر، وكان الملك سليمان عليه السلام يحبه كثيراً، وجاء في القسم الأول من الكتاب المقدس (الإنجيل) أن جنود سليمان عليه السلام كانوا يهدونه إليه طواويس، وهو يقبل هذه الهدية الثمينة بالفرح والسرور، وقد ورد أيضاً في الباب الثاني من الإنجيل أن الملكة "شيبا" لما وصلت في بلاط سليمان عليه السلام أهدت إليه طيوراً جميلة كانت تزهر وترقص، ولا شك أنها كانت طواويس. وكذا في القرن الحادي عشر استوردت الطواويس من الهند إلى العراق وتزايد هناك إنتاجه.

وقد كتب كثير من مؤرخي الإغريق والروم ومصر في بيان الطاؤوس وصفاته وقد أولعوا كثيراً بجماله ولونه، ولما فتح الإسكندر الأكبر الهند ٣٢٦م أرسل قرابة مائتين من الطواويس إلى الإغريق وكان يجيئ الناس من البلاد البعيدة لمشاهدته، ويبيع بأثمان غالية لا يستطيع أن يشتريه إلا الملوك والأمراء كما كتب المؤرخ الرومي الشهير "الين"¹.

الطاؤوس والعرب:

وأعجب العرب بحسنه وريشه وتأثروا به كثيراً حتى سموا بعض أولادهم باسم الطاؤوس، مثلاً "طاؤوس بن كيسان" فقيه اليمن، كان رأساً في العلم والعمل من سادات التابعين، أدرك خمسين صاحبياً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إليه طاؤوس: "إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير"². قال عمر بن عبد العزيز: "كفى موعظة". توفي "طاؤوس" وهو ابن بضع وسبعين سنة حاجاً بمكة في سنة ست ومائة، وصلى عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك³.

وكان رجل آخر في المدينة المنورة يسمونه "طويس" كان مخنئاً معروفاً، ولد

¹ الطاؤوس، الطائر الوطني لبلادنا، ص ١١

² المصدر نفسه، ١٢٣/٢

³ المصدر نفسه، ١٢٤/٢

في الليلة التي مات فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر ابن خلفان أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة أن أحص المخنثين فوَقعت على الحاء نقطة، فأمر بالمخنثين فخصوا، وخصي "طويس" من جملتهم. وكان "طويس" اسمه "طاؤوس" فلما تَخَنَّث جعلوه "طويساً"^١.
وقيل إن الطائوس كانت امرأة عجمية ذات مال وجمال ولكنها كانت مشنومة الناصية^٢.

الختام:

وبالجملة فقد تأثرت ثقافة الهند بالطائوس في كل حين وجيل منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا.
وكانت الهند قبل هذا القرن مترعة بالطواويس، فهي كانت تشاهد في كافة أنحاء الهند، فلم تكن غابة أو وادٍ خالية من وجودها.
قد ساج الميجر "إسملن" مناطق "برج" (Braj) وراجستهان (Rājasthān) قبل القرن والرابع، فكتب بالنسبة للطائوس: "إن هذه المنطقة مليانة بالطواويس، شاهدت في قراها لدى أكوأخها وعلى طرقها مات من الطواويس متجولة بالحرية الكاملة لا تخاف ولا تحذر أيّ خطر سماوياً كان أو أرضياً".
وهذا دليل قوي على قبول الطائوس في العالم أن كثيراً من الدول كاليهند وباكستان وبنجلاديش والصين وبورما (ميانمار) وسري لانكا ولاوس، قد أصدرت طوابع بريدية تذكارية على الطائوس بكل أنواعه وأشكاله.

^١ المصدر نفسه، ١٢٥/٢

^٢ المصدر نفسه، ١٢٦/٢

المصادر والمراجع

١. عدد من المؤلفين: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٦٠م
٢. كمال الدين الدميري: حياة الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٣. أجيت كومار موكهارجي: الطاووس، الطائر الوطني لبلادنا (Mor Hamāra Rashtraya Pachchhi)، دائرة النشر والإعلام لوزارة حكومة الهند
٤. راجيشوري براساد نارايان سينغ: كتاب طيور الهند (Bhārat ke Pachchhi)، قسم النشر والإعلام والإذاعة لوزارة حكومة الهند

استعراض كتاب:

- د. محمد أسجد القاسمي الندوي

اسم الكتاب: ترجمات معاني القرآن الإنجليزية، دراسة نقدية وتحليلية
اسم المؤلف: الدكتور أورنك زيب الأعظمي
الناشر: مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية
عدد الصفحات: ٤٨٤

نسعد الآن بدراسة كتاب موسوعي موضوعي جامع فريد، أعدّه أخونا
الفاضل الأستاذ أورنك زيب الأعظمي/ حفظه الله، كرسالة للدكتوراه، باسم
"ترجمات معاني القرآن الإنجليزية، دراسة نقدية وتحليلية".
والدكتور الأعظمي (ولد في ١٩٧٧م) صاحب خبرة علمية تأليفية طويلة،
ومعروف في أوساط العلم والأدب منذ زمن طويل، تخرج من مدرسة الإصلاح،
سرائر مير، أعظم كره (ولاية أوترا براديش، الهند) ونال الدكتوراه من جامعة
جواهر لال نهرو، دلهي الجديدة، وله اليد الطولى في اللغات الأربع؛ الأردوية
والإنجليزية والعربية والفارسية، وقام في كافة هذه اللغات بالكتابة والترجمة
والتحقيق كما قرض القصائد والمنظومات في كلّ منها سوى الإنجليزية. صدر له
حتى الآن ستة عشر عملاً من الهند والباكستان والسعودية ودمشق وبيروت
 وإنجلترا، وله أكثر من عشرين عملاً ما رأى النور حتى الآن. أما مقالاته
وترجماته العلمية والنقدية التي نشرت في المجالات ذات المستوى الدولي فهي أكثر
من مائة بما فيها المقالات التي يحتوي كلّ منها على ثمانين صفحة على حدة.
قام الدكتور الأعظمي بإدارة تحرير خمس مجلات بما فيها تلك المجلة
الخطية التي كان لها الأعظمي كاتباً وناسخاً معاً. يقول فيها الدكتور محمد أجمل
أيوب الإصلاحي المقيم بالرياض، السعودية:

"لقد سُدَّتْ بالاطلاع على هذه المجلة الخطية الجميلة التي أصدرها الأخ العزيز ابن لئيق الأعظمي (الاسم التأليفي القديم للدكتور الأعظمي). وسُررتُ أيّما سرور. وأعجبتُ ذلك الجهدُ الجاهد الذي بذله في إعداد المجلة، فقد كان وحده كاتباً وناسخاً معاً. وعلى الرغم من ذلك استطاع أن ينوّع موضوعاتها. نهتئ الأخ على إخراج هذه المجلة على مثل هذا المستوى وهو طالبٌ في الصف الخامس. ولا شكّ أن ذلك يبشّر بمستقبل زاهر له عالماً وكاتباً قديراً إن شاء الله." (مجلة "الشروق"، ١/١/١٩٩٣م (في نهاية المجلة)

منذ يناير ٢٠٠٣م شرع الأعظمي في حياته العملية بكونه مدرّساً ضيفاً في مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لعل نهرو، الهند وكان يعمل على هذا المنصب إذ اختير في ٢٠٠٩م أستاذاً مساعداً في قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية بجامعة فيسفا-باراتي (جامعة طاغور)، شانتني نيكيتان، بنغال الغربية فانسلك بها في يونيو نفس السنة وهو يعمل حتى الآن على ذلك المنصب الجليل.

وصرفاً عن أعماله المطبوعة وغير المطبوعة التي جاء ذكرها في الترجمة الإنجليزية لكتابه "حركة الترجمة في العصر العباسي" فنخصّ بالذكر موسوعة شعراء العربية الهنود التي قام فيها الدكتور بذكر أكثر من خمسمائة شاعر هندي للعربية فهذه موسوعة لم يسبق لها نظير في تاريخ الهند.

أما الكتاب الموضوعي الذي أنا بصدد الاستعراض فهو يتعلق بموضوع مهمّ للغاية وهو موضوع تحليل ونقد ترجمات معاني القرآن الإنجليزية منذ ١٩٣٠م حتى ٢٠٠١م، والكتاب يحوي ٤٨٤ صفحة في طبع أنيق جذّاب من مكتبة التوبة بالرياض.

وقدّم للكتاب الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، كلية المعلمين بجامعة الملك سعود بالرياض وأبدى انطباعه حسب الآتي:

"ونحسب أنّ الأخ الفاضل الشيخ أورك زيب الأعظمي أحد الذين تصدوا لدراسة عدد من التراجم الإنجليزية للقرآن الكريم وتحليلها، حيث قدّم هذه الدراسة النقدية والتحليلية الجادة وقدّمها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة جواهر لال نهرو في نيو دلهي بالهند، وحق لهذه الرسالة أن تطبع وتنتشر لتتواصل مسيرة النقد لهذه

التراجع والدفاع عن القرآن والذود عن حماه، قال تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون". (ترجمات معاني القرآن الإنجليزية، دراسة نقدية وتحليلية، ص ٦)
ثم ذكر الأستاذ الباحث أورك زيب الأعظمي في تصديره موجز محتويات هذا الكتاب كما أشار إلى ما بذل من الجهود المضنية والمحاولات الجادة المتواصلة في هذا السفر العلمي المبارك، ثم قدّم عواطف الشكر والامتنان إلى كل من أعانه وساعده وأشرف عليه وأشار عليه وزوّده بالمراجع والمعلومات، امتثالاً للحديث النبوي "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".

هذا البحث العلمي المتميز يحتوي على خمسة أبواب:

فالباب الأول يبحث عن نزول القرآن وكيفيته، وحسب تصريح المؤلف نفسه، أنه ذكر في مختلف فصول هذا الباب بدء الوحي وكيفية سير قافلة المفكرين في القرآن تحت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مواصلة هذه الدراسة القرآنية من قبل صحابة الرسول الكرام وتابعيهم وتبع تابعيهم، وركز الباحث عنايته بالخصوص على ذكر المصادر والمراجع المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعهم بغاية من الإيجاز والاتزان.

والفصل الأول من الباب الأول على موضوع "الدراسات القرآنية المبكرة تحت إشراف النبي صلى الله عليه وسلم" وفي هذا المبحث ذكر الباحث مصادر دراسات القرآن في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فصّرَح بأن الصحابة كانوا يدرسون القرآن ويتدبرون فيه في ضوء خمسة مصادر أساسية (١) الله جلّ جلاله (٢) والقرآن نفسه (٣) والنبي صلى الله عليه وسلم (٤) واللغة العربية (٥) وكتب اليهود والنصارى. كما ذكر بعض النماذج الواضحة لفهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن. نذكر مثلاً واحداً:

"وجاء في شرح "الراسخون في العلم" في قوله تعالى: --- وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ". "عن أبي الدرداء قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين في العلم فقال "من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم" (المصدر نفسه، ص ٢٠)

والفصل الثاني يبحث عن دراسة القرآن في عهد الصحابة رضي الله عنهم وفي هذا الفصل أشار الباحث الفاضل إلى أربعة مصادر أساسية لدراسة القرآن في هذا العهد وهي (١) القرآن الكريم (٢) والأحاديث (٣) وكلام العرب القديم (٤) والصحف السماوية الأخرى وحلل هذا الموضوع بشيء من التفصيل في ضوء الأمثلة. وفيما يلي مثال واحد:

"وقال تعالى: "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" يقول ابن عباس في شرح هذه الآية: "هذه الآية كقوله تعالى، إخباراً عن إبليس حين امتنع عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال "أرأيتك هذا الذي كرمته عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكّن ذريته إلا قليلاً" وقال "ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين". (المصدر نفسه، ص ٢٥-٢٦)

والفصل الثالث يتعلق بدراسة القرآن في عهد التابعين وفي هذا الفصل ذكر الباحث الكريم مصادر التفسير في هذا العهد وأشار إلى استفادة التابعين في تفسير القرآن الكريم من (١) القرآن نفسه (٢) واللغة العربية الفصحى (٣) والأحاديث (٤) والكتب السماوية الأخرى (٥) وتفسير الصحابة. وصرّح بأن هذا العهد كان ممتازاً بكثرة الإسرائيليات، والطابع الخاص على الرواية، والخلاف المذهبي، وكثرة الاختلاف، ما لم تكن موجودة قبل ذلك في مجال التفسير.

وبالباب الثاني في هذا البحث العلمي المتزن حول دراسة القرآن في العصرين؛ الأموي والعباسي، وحقاً قد يعدّ هذان العهدان الأموي والعباسي عصري ازدهار فن التفسير وتطوره الكامل. فالعصر الأموي يمتاز بجمع الأحاديث الشارحة للقرآن بينما العصر العباسي يمتاز بنشأة العقلية لدى التفكير في القرآن. هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول فالفصل الأول يبحث في الأحاديث المتعلقة بالقرآن وقد وصل الباحث إلى أن تفسيراً كاملاً للقرآن تمّ تأليفه في العصر الأموي (٤٠-١٣٢هـ) ولو أنّ معظمه لا يوجد اليوم.

والفصل الثاني حول نشأة العقلية عند ترجمة القرآن، أثبت فيه الباحث أنه قد نشأ في هذا العصر التفسير بالرأي إلى جانب التفسير بالمأثور وأشار إلى ما تعرّض هذا العمل التفسيري في العصر العباسي بالأخص للغلو والمجازة عن حد

الاعتدال، حتى جعلت التفاسير مرآة لأفكار المفسرين الشخصية، وقد أجاد الباحث حيث صرّح تلك القيود التي أودع رعايتها الشرع المتين في عمل التفسير، وخاصة في استخدام العقل في فهم كلمات القرآن، فأوضح أنّ المصدر الأول لشرح القرآن هو القرآن نفسه، والمصدر الثاني حديث الرسول عليه السلام والمصدر الثالث الموثوق به هو اللغة العربية والمصدر الرابع هو نظم القرآن (سياق الآيات والسور).

والفصل الثالث على موضوع "اختلاف الآراء لدى تحديد معاني الكلمات والمصطلحات القرآنية"، حلّل الباحث هذا الموضوع وقدم أمثلة شتى ثم لخص فكرته فقال:

"فقد رأينا في ضوء هذه الأمثلة من تفاسير علماء الأمة أن المفسرين في هذا العصر قد بدأوا يفكرون في القرآن حسب أفكارهم الخاصة وهكذا جعلوا القرآن تابعاً لأفكارهم، ولم يجعلوا أفكارهم تابعة لما يقوله القرآن، ومن ثم جاءت معان عديدة لكلمة واحدة، كما ظهرت تأويلات عديدة لآية واحدة، وأصبح القرآن عضيعين، ولو تفكرنا في ضوء مشتملاته ونظامه البديع لوجدنا أن كافة التأويلات مسرفة وفيها غاية الإطناب وتبتعد أحياناً عن المراد بتفريعات ليس هذا مجالها". (المصدر نفسه، ص ٦٠)

والباب الثالث بصدد عهد ترجمات القرآن الكريم، والحق أنّ هذا الباب مدخل لموضوع البحث الأساسي، ومهمّ للغاية، ذكر فيه الباحث تاريخ بدء ترجمة القرآن الكريم في لغات مختلفة إلى جانب ذكر جميع ترجمات القرآن الإنجليزية التامة، فالفصل الأول يبحث عن بداية ترجمة القرآن في شتى اللغات، ذكر فيه الباحث ترجمات القرآن المبكرة في مختلف اللغات بدون الاستقصاء، فذكر تراجم القرآن في ٦٣ لغة من لغات العالم، وهي حسب الآتي (١) الفارسية (٢) والسريانية (٣) والأردوية (٤) واللاتينية (٥) والأنطولية (٦) والإيطالية (٧) وبهاكا (٨) والألمانية (٩) والعبرية (١٠) والهولندية (١١) والفرنسية (١٢) والإنجليزية (١٣) والملاوية (١٤) وكانمو (١٥) والبولندية (١٦) والروسية (١٧) واليونانية (١٨) والمجرية (١٩) والتركية (٢٠) والسويدية (٢١) والأسبانية (٢٢) وبشتو (٢٣) والسندية (٢٤) والبنجابية (٢٥) والبرتغالية (٢٦) والتاميلية (٢٧) والبنغالية (٢٨)

والصربية (٢٩) واليوربا (٣٠) والبلوتشية (٣١) والأرمنية (٣٢) والبراهوية (٣٣) والرومية (٣٤) والجاوية (٣٥) والهندية (٣٦) والدانمركية (٣٧) واليابانية (٣٨) والسواحلية (٣٩) والتشيكوسلوفاكية (٤٠) والصينية (٤١) والإندونيسية (٤٢) والبلغارية (٤٣) والتيلغو (٤٤) والكردية (٤٥) والألمهرية (٤٦) والفنلندية (٤٧) والإفريقية (٤٨) والتايبية (٤٩) والإسبرانتو (٥٠) والآسامية (٥١) والمليالمية (٥٢) والكورية (٥٣) والسوندية (٥٤) والمراتية (٥٥) والأوغندية (٥٦) والكوجراتية (٥٧) والفولانية (٥٨) والكانالاية (٥٩) والهاوساوية (٦٠) والنرويجية (٦١) والزولووية (٦٢) والكريولية (٦٣) والسنسكريتية.

ذكر الباحث بداية ترجمة القرآن في هذه اللغات، والواقع الذي لا ينكر أن الباحث قد أضنى جهوده المكثفة في الاطلاع على هذا التفصيل، وهذا خير دليل على ذوقه العلمي البديع ومحاولته المتواصلة الجادة فجراه ربه خيراً.

والفصل الثاني حول ترجمات القرآن الإنجليزية عبر العصور، ذكر فيه الباحث تاريخاً موجزاً للترجمات القرآنية الإنجليزية الكاملة، وقسمها في ثلاثة أنواع تالية (١) ترجمات المسلمين للقرآن (٢) وترجمات القاديانيين للقرآن (٣) وترجمات غير المسلمين من اليهود والنصارى، ثم ذكر كافة الترجمات حسب تاريخ طبعتها فذكر ٥٩ ترجمة للقرآن بأقلام المترجمين المسلمين و٨ ترجمات للقرآن بأقلام القاديانيين و٨ ترجمات للقرآن بأقلام اليهود والنصارى.

وأما الباب الرابع فهو دراسة نقدية تحليلية للترجمات القرآنية الإنجليزية المختارة، وهو الموضوع الأساسي المركزي والمراد الأصلي والهدف المنشود لهذا البحث العلمي. وهذا الباب دراسة موضوعية مقنعة مفيدة للغاية. ونظراً إلى طول البحث قسم هذا الباب على عشرة فصول.

فالفصل الأول هو ألفاظ القرآن، قد ذكر فيه الباحث ما للكلمة من مكانة ودور كبير في تأويل الآيات والسور، وصرّح بأنّ هناك خمسة مصادر لتفسير مفردات القرآن، (١) القرآن الكريم (٢) وكلام العرب الأصيل الفصيح (٣) والردّ على المعنى الشاذ (٤) والأخذ بأثبت الوجوه لغة (٥) وأخوات العربية (من العربية والسريانية المشيرة إلى أصول الكلمة والموضحة لمعناها)

قدّم الباحث عشرين مثالا بكل وضوح وصراحة ، نذكر منها مثالا واضحا
فهو يقول:

"السمع: جاء ذكر هذه الكلمة مع الأبصار والقلوب في أكثر من عشرين
موضعا في القرآن، وإذا تتبعنا مواضع استخدامها في القرآن فنجد أنها جاءت واحدة
لا جمعا مثل القلوب والأبصار فيتخيل أنها مصدر ولكن مجيء جموع الكلمتين
الأخريين: القلب والبصر يرفض هذا الخيال ولكن ينشأ هنا سؤال: لماذا استخدمها
الله جل مجده واحدة لا جمعا. يجيب على هذا الشيخ أمين أحسن الإصلاحي صاحب
تفسير "تدبر قرآن":

"ويمكن أن ينشأ في ذهن أحدكم سؤال عن استخدام كلمة "سمع" واحدة
وكلمتي "قلب" و"بصر" جمعا فالإجابة على هذا -عندي- أنه يتعلق باستعمالات
العرب فقد جاء ذكر هذه الكلمة في كل موضع من القرآن واحدة لا جمعا وهذه هي
عادة العرب والقرآن كلام يتبعهم فيها".

ولنشهد هذا الواقع في ضوء كلام العرب القح. فيقول سالم بن وابصة
الأسدي:

أحب الفتى ينفي الفواش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
ويقول آخر:

قد كان قبلك أقوام فجعت بهم خلى لنا فقدهم سمعا وأبصارا
ويقول حسان بن ثابت الأنصاري يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:
لهفان يدعو غائبا أنصاره يا ويحكم يا معشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بعهودكم وفديتم بالسمع والأبصار
فثبت من هذا أن السمع كلمة واحدة تعني جمعا واعتبارها مصدرا هنا ليس
بصحيح والآن نرجع إلى المترجمين ونرى ترجمتهم لهذه الكلمة.

ترجمها كل من بيكثال وعبد الله يوسف علي وأربيري وعبد الماجد
الدريبادي وم. شاكرو إرونغ وتقي الدين الهلالي وصاحبه بـ "Hearing" وأما
السير ظفر الله خان والمولوي شير علي فهما يذهبان إلى معناها بـ "Ears"
فالترجمة التي اختارها بيكثال ومن تبعه خاطئة هنا بينما الترجمة التي دلّ عليها

ظفر الله خان وشير علي صحيحة على الأصول والمصادر الثابتة". (المصدر نفسه، ص ١٢٩-١٣٠)

وفي الفصل الثاني تحدث الباحث عن عبارات القرآن الخاصة واختار ٢٠ عبارة وناقشها حسب الأصول المعتمد عليها، ونذكر نموذجاً واحداً فهو يقول:

"بلغ أشده: هذه العبارة مثل عبارة "بلغ الحلم" ولكن بينهما فرق لطيف فيبدو من تتبع آيات القرآن عن العبارة "بلغ أشده" أنها منزلة وسط من منازل حياة الإنسان الثلاث - الطفولة والكهولة والشيب. فلا يكفي فيها أن يكون الرجل بالغاً فقط بل يشترط فيها أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر، النافع والضار فلا بد فيها من أن يكون متصفاً بصلاحية الحكم وهذه الصلاحية يمكن أن تزوره في حين بلوغه الحلم وبعد تجاوزه تلك المدة حتى تمتد إلى مدة أربعين سنة، مدة الكهولة. لنقرأ الآيات التالية:

يقول الله تعالى في اليتامى:

"وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ"

ويحدّد مفهوم الرشد هذا في موضع آخر من سورة النساء فيقول:

"وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ"

فكأن مدة الرشد هي مدة بلوغه النكاح.

ويقول تعالى في موضع من كتابه العزيز:

"ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ"

وأيضاً قال:

"ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا"

فكأن مدة البلوغ هي المرحلة ما بعد الطفولة والمرحلة ما قبل الشيب.

ويقول تعالى في موضع وهو يعيّن هذه المدة عند صلاحية الاستواء فيقول:

"وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا"

وفي موضع آخر من كتابه الحكيم يحدّد هذه المدة في أربعين سنة فيقول:

"حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً"

فيبدو من هذه الاستعمالات أن مدة بلوغ الأشدّ هي التي توجب صلاحية التمييز بين النافع والضار مع بلوغ الحلم وهي يمكن أن تكون ٢٠ سنة كما يمكن أن تكون ثلاثين سنة. فالأصل فيها اتصاف البالغ بصلاحية التمييز بين الخير والشر.

والآن لندرس ترجمتهم لهذه المواضع في صورة الجدول الآتي:

اسم المترجم	١٥٢/٦	٥/٢٢	١٤/٢٨	١٥/٤٦
١- إرونغ	to become of age	to reach full growth	to come of age	to attain full growth
٢- أربيري	to be of age	to come of age	to be fully grown	to be fully grown
٣- بيكثال	to reach maturity	to attain full strength	to reach full strength	to attain full strength
٤- عبد الله يوسف	to attain the age of full strength	to reach age of full strength	to reach full age	to reach the age of full strength
٥- السير ظفر الله	-do-	to attain full strength	to reach age of full strength	to attain full maturity
٦- شير علي	to attain maturity	to attain age of full strength	-do-	-do-
٧- م. شاكرا	-do-	to attain maturity	to attain maturity	to attain maturity
٨- عبد الماجد	to reach maturity	to reach maturity	to attain full strength	to attain full strength
٩- تقي الدين وصاحبه	to attain age of full strength	to reach age of full strength	to attain full strength	-do-

ألق نظرة خاطفة على هذه الترجمات لهذه العبارة تجد أن كافة المترجمين سوى م. شاكرا مترددون غير متأكدين من الترجمة فتارة يترجمونها ببلوغ الحلم

وأخرى ببلوغ القوة التامة وثالثة بالبلوغ الكامل، والواقع أنها to attain maturity وكلمة maturity تعني كمال الحلم والحكم، كما هي تعني تمام البلوغ، فهي جامعة للرشد والحلم". (المصدر نفسه، ص ١٥٦-١٥٩)

والفصل الثالث يوضح أساليب القرآن المختارة، أحصى فيه الباحث ١٦ أسلوباً قرآنياً وردت أمثلته في كلام العرب القحّ، وأوضح ما قد تعرّض المترجمون للأوهام والأخطاء في فهمها.

وهذه الأساليب حسب الآتي:

(١) حذف الماضي المركب بالمضارع (٢) وحذف "لا" قبل جواب القسم (٣) وحذف الفعل بعد فعل مشابه (٤) وحذف المعطوف عليه (٥) وحذف جواب الشرط (٦) وحذف الجانبين من المتقابلين لما دلّ عليه مقابله (٧) واختلاف الصلة والفعل (٨) وأسلوب المجانسة (٩) وضمير الجمع المذكر المؤنث (١٠) ومبالغة النفي إذا دخل على المبالغة (١١) والحال عن المجرور (١٢) ولا للإنكار قبل القسم (١٣) ورجوع الضمير إلى مفهوم غير مذكور (١٤) ونفي الشيء بإيجابه (١٥) وتكرار الفاء (١٦) والالتفات من الغائب إلى الحاضر. ونودّ أن نذكر مثلاً واحداً فقال الأعظمي:

"ضمير الجمع المذكر للمؤنث: من أساليب العربية والقرآن أن المخاطب يستخدم ضمير المذكر لزوجته أو زوجة أحد لأجل حرمتها وهذا عام في لغتنا الأردنية كذلك فقال امرؤ القيس:

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا وجدت مقبلاً عندهم ومعرّساً
وقال عمر بن أبي ربيعة القرشي:
فو الله ما للعيش ما لم ألاقكم وما للهوى إذ ما تزارين من طعم
ألم تعلمني ما كنت آليت فيكم وأقسمت لا تخلين ذاكرة باسمي
وقال الأعشى:

أجبير هل لأسيركم من فادي أم هل لطالب شقة من زاد
وقال درين بن الصمة يخاطب النساء:
أخناس قد هام الفؤاد بكم واعتاده داءً من الحب
وقال زياد بن حمل:

رويق، إني-وما حج الحجج له
لم ينسني ذكركم مذ لم ألافكم
وما أهلّ بجنبي نخلة الحرم-
عيش سلوتُ به عنكم ولا قدم
وقال ورد الجعدي:

خليلي عوجا بارك الله فيكما
وقولا لها ليس الضلال أجارنا
وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا
ولكننا جُرنا لنلقاكم عمدا
وهذا كثير.

وقال تعالى:

"وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا"
وجاء في الخروج:

"فَقَالَتْ أخته لبنت فرعون: هل أذهب وأدعو لك مرضعة من نساء العبرانيين لترضع الوليد لك. وقالت بنت فرعون لها: إذهبي، وذهبت الجارية ودعت أم الوليد، وقالت بنت فرعون لها: خذي هذا الوليد وأرضعيه لي أعطك أجرك. وأخذت المرأة الوليد وأرضعته"
وقال في نفس السورة:

"قَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ"
وقال في سورة هود:

"قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ"
وقال في سورة الأحزاب:

"وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"

فثبت من هذه الاستعمالات أن ضمير المذكر يأتي للزوجة لأجل حرمتها
والآن ندرس ترجمة الآية الأخيرة لدى هؤلاء في ضوء جدول آت:

١. إرونغ	People of the Prophet's House
٢. أرييري	People of the House

Folk of the Household	٣. بيكثال
Members of the Family	٤. عبد الله يوسف
Members of the Household	٥. ظفر الله خان
Members of the Household	٦. شير علي
people of the House	٧. م. شاکر
people of the household	٨. عبد الماجد
members of the family of the Prophe	٩. تقي الدين وصاحبه

فكل هذه الكلمات يدخل فيها إناث البيت كما يأتي ضمنها ذكرانه وبيت النبي كان خالياً من هذا سوى ذاته ومع ذلك فسياق الآيات يشير واضحاً إلى أن أزواج النبي هي اللاتي خوطبن فيها ومزيد البحث عن هذا مذكور في كلمة "أهل البيت" في فصل المعتقدات والأفكار فراجعته والترجمة الصحيحة عندي هي: Wives of the Prophet. (المصدر نفسه، ص ٢١١-٢١٤)

والفصل الرابع حول قواعد اللغة النحوية والصرفية، اختار الباحث منها ٢٠ قضية متعلقة بالنحو والصرف.

يذكر الباحث:

"جاءت في القرآن تراكيب نحوية ومشتقات فعلية وحروف لم يفهمها المفسرون أو اختلفوا فيها وذلك لأنهم وزنوا هذا الكتاب العربي المبين على ميزان النحو المتوفر لنا ولم يحاولوا أن يقيموها حسب قيم الكلام العربي الأعلى، كلام الجاهليين وهذا كله أسفر عن أنهم ظنوها خاطئة أو زائدة أو أولوها تأويلاً لا يلائم والكلام العربي القديم". (المصدر نفسه، ص ٢٣٦)

نذكر هنا نموذجاً واحداً فهو يقول:

"إن كل نفس لما عليها حافظ: كثرت مثل هذه الجمل في القرآن الكريم فيقول

الله تعالى:

"وَإِنَّ كَلَّامًا لِّیُؤَقِّنَہُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّہُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"

ويقول في موضع آخر:

"وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ"

ويقول أيضاً:

"وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ"

ويقول:

"إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ"

لا أتكلم عن جميع الآيات والمواقع فيها فإن المترجمين قد اختلفوا في ترجمتها وظنها نفياً وإثباتاً، فيرى أحدهم أنه إثبات ويرى الآخر أنه نفي، وهذا يدل على أن هناك مجالا للاختلاف في الرأي. وإني أخذت الآية الأخيرة، آية سورة الطارق، وذلك لأن معظم المترجمين رأوا أنها نفي. وكذلك اختلف النحويون في هذا، فبعضهم يرى أن "إن" نافية و"ما" بمعنى "إلا" واللام زائدة بينما ذهب البعض الآخر إلى أن "إن" تخفيف "إن" و"ما" زائدة واللام هي التي تدخل على "إن" وإني أرى رأياً آخر وهو أن "إن" تخفيف "إن" واللام هي التي تدخل على هذه الأفعال المشبهة بالفعل و"ما" جاءت لموسيقى الكلام فهي زائدة ولكن لها درجة في الحديث وبلاغة نفقدها إذا أسقطناها من الجملة. والمعنى، على القولين، لا يختلف إلا أن الترجمة تكون مختلفة فهي عندي:

Surely, there is a watcher over every soul. (المصدر نفسه، ص ٢٣٦ -

(٢٣٧)

والفصل الخامس مختص بذكر المعارف والمصطلحات القرآنية وموقف الباحث الفاضل من ترجمة تلك المصطلحات أنه لا يؤيد ترجمتها إلى اللغة الهدف بل يرى إبقاءها كما هي وشرحها في الهامش. اختار الأعظمي ١٢ معرفة ومصطلحاً كنماذج على ذلك، نذكر هنا مثلاً واحداً فهو يقول:

"الله: هذا اسم خاص لله جل مجده ولا يراد به غيره. قال الإمام الفراهي في

شرحه:

"الألف واللام للتعريف فلا يسمّى بهذا الاسم إلا الله تعالى الواحد خالق السماوات والأرض وجميع الخلق وهذا المعنى هو المعلوم عند العرب قبل الإسلام فإنهم مع شركهم لم يجعلوا أحداً من آلهتهم مساوياً بالله تعالى وأقروا بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض. وإنما عبدوا آلهة أخرى لظنهم بأن هؤلاء مقربون

فيشفعون لهم، كما جاء في القرآن "قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله" وأيضاً "قالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" وأيضاً "ولئن سألتهم من خلق السموت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون... ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون" فقال امرؤ القيس مستخدماً هذه الكلمة:

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقبية الرحل
ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل
وأيضاً قال:

فقلت سباك الله إنك فاضحي ألت ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
وقال زهير بن أبي سلمى:
فلو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله
وأيضاً قال:

ألا أبلغ الأخلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتنم الله يعلم
وأيضاً:

ومن ضرييته التقوى ويعصمه من سيء العثرات الله والرحم
وقال الحارث بن حلزة الشكري:
فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ يشقى به الأشقياء
وقال حاتم الطائي:

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً
وقال عبد قيس بن خفاف البرجمي:
الله فاتقه وأوف بنذره وإذا حلفت ممارياً فتحلل
وقال عمرو بن الأظنابة:

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل
وإذا نظرنا في ضوء هذا الحديث الموجز وجدنا أن إرونغ وأربيري يترجمانه بـ "God" الكلمة التي لا تأتي لله الواحد فقط بل هي كذلك تستخدم

للإلهة الأخرى المزعومة مثل عيسى المسيح وعزيز ابن الله وآلهة الهندوس وغيرهم فترجمتهما له خاطئة ومشككة.

يخالفهما الآخرون مثل بيكتال وعبد الله يوسف وظفر الله خان وشير علي وم. شاكر وعبد الماجد وتقي الدين وصاحبه فهم يضعون اللفظ كما هو أي "Allah" وهذه طريقة صحيحة لترجمة المصطلحات ولكن من الأسف أنهم لم يوضحوا هذا المصطلح في الهامش ولو فعلوه لكان خيراً وأحسن تعبيراً". (المصدر نفسه، ص ٢٧٦-٢٧٨)

الفصل السادس يتعلق بنظم القرآن الذي استخدمه أكثر المفسرين وشرحوا به معاني القرآن، والباحث يصرح بأن مراده من النظم ليس نظم الكلمات بل هو نظم الآيات والسور. يكتب الباحث حول نظم السور القرآنية:

"إذا تفكرنا في الترتيب الراهن لسور القرآن وجدنا جلياً أن مجموعة لسوره تبدأ بالسور المكية وتختتم بالمدينة، كما أن لكل مجموعة موضوعاً رئيسياً تدور حوله كافة سورته، وتفصيل هذه المجموعات كما يلي:

المجموعة الأولى: تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة المائدة، فالسورة الأولى من هذه المجموعة مكية، وأما ما بعدها من السور كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة فهي مدنية.

والمجموعة الثانية: تبدأ بسورة الأنعام ثم الأعراف وتنتهي بسورة البراءة ثم براءة -التوبة- فالسورتان الأوليان من هذه المجموعة مكيتان، وأما الأخيرتان فهما مدنيتان.

والمجموعة الثالثة: تبدأ بسورة يونس وتنتهي بسورة النور، فالسور الأولى، من سورة يونس إلى سورة المؤمنين، كلها مكية، وأما سورة النور فهي مدنية. والمجموعة الرابعة: تبدأ بسورة الفرقان إلى ألم السجدة فالسور الأولى الثمانية كلها مكية وسورة الأحزاب مدنية.

والمجموعة الخامسة: تبدأ بسورة سبأ وتنتهي بسورة الحجرات فالسور الأولى الثلاث عشرة مكية، وأما السور الثلاث الأخيرة فهي مدنية.

والمجموعة السادسة: تبدأ بسورة الواقعة وتنتهي بسورة الطلاق، فالسور السبعة الأولى مكية، والسور العشر الأخيرة مدنية.

والمجموعة السابعة: تبدأ بسورة الملك وتنتهي بسورة الناس. فأربع وأربعون سورة منها مكية، وأما السور الأربع المتبقية فهي مدنية". (المصدر نفسه، ص ٣٠١-٣٠٢)

اختار الأعظمي ١١ مثالا من الكلمة إلى الآيات إلى السور، نذكر مثالا واحدا فهو يقول:
"قال تعالى:

"وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ"

ينشأ هنا سؤال: ماذا أريد بالبيت المعمور والسقف المرفوع، هل هما الأرض والسماء، أم البيت القائم في الجنة وهذه السماء، أم بيت الله والسماء؟ فاتفقوا على أن المراد من "السقف المرفوع" السماء، ولكن اختلفوا في المراد من "البيت المعمور". وأياً كان فالمراد من "البيت المعمور" لا يكون البيت القائم في الجنة فإنه لا يفيد شيئاً منكري البعث ويوم القيامة، وأما المراد منه فهو بيت الله وقد أقسم به في القرآن، ولكنه لا يفيد هنا بالنسبة للقيامة ووجودها وللبعث بعد الموت. فماذا يكون المراد منه بالضبط؟

وللإجابة على هذا السؤال ارجع إلى السورة التي تسبقها وهي سورة الذاريات التي تخبر عن الموضوع نفسه أي يوم القيامة. ذكر فيها الله تعالى مستدلاً بآيات الآفاق.

"وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ قُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ"

وكون الأرض والسماء دليلاً على يوم القيامة والبعث بعد الموت هو أن اتحاد الأرض والسماء في أسباب معيشة الإنسان يبدو كالبيت فيما وضع فيهما من أسباب العيش والرفاهية وهذا يوجب وجود يوم القيامة حينما يسئل الإنسان عن هذه الأسباب التي خلقت لأجله فقال تعالى في سورة النبأ:

"أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا"

كما تكون الأرض ميتة فتحيها السماء بمطرها، فكذلك يحيي الله الميتين.
وأن الأرض تحفظ فيها آثار إبادة الأمم لمجرد كفرها، وهذا دليل على أن خالقها
لا يترك الظالم حراً بل يحاسبه في هذه الدنيا، كما في الآخرة، وللسماء دور قيادي في
تدمير الأمم (الريح والعواصف والصيحة والرجم والطير الأبايل).
فالمراد من "البيت المعمور" هنا الأرض كما يدلّ على ذلك نظم السورتين
وموضوعهما.

ولنتظر الآن في ترجمتها عند هؤلاء.
فيرى كل منهم سوى م. شاكراً أنها البيت الواقع في الجنة فيترجمونها
بالحرف المضخم أي "Home" فيقول -مثلاً- السير ظفر الله خان:
"...and the frequently visited House..."
وأما م. شاكراً فهو يرى أنه كعبة الله فيترجم:
"...And the House (kaba) that is visited..."

وفوق ما ذكرت لو رأوا أسلوب التقابل لسهل لهم فهم المراد من "البيت
المعمور" فإن الأرض تقابل السماء ولا غير. فالترجمة الأولى والأنسب بالنظم هي:
"...by inhabited house (the earth) and by high floor (the sky)..."
(المصدر نفسه، ص ٣٤٨-٣٥٠)

والفصل السابع حول قضية شأن النزول فالباحث لا يراه وسيلة لفهم الكلام
بل يعتبره مؤيداً ومصدقاً لما فهم في ضوء النظم ووسائل الفهم الأخرى، ويصرح
بأنه لا ينكر أهمية شأن النزول مطلقاً، مثلاً، إنّ له دوراً في فهم الآيات القرآنية
ولكنه في معظم الأحيان يضلّ ولا يهدي إلى سواء السبيل، ثم ذكر تسعة أمثلة
لهدايته إلى صحيح المعنى ومفهوم الآيات الحق، نذكر منها مثلاً واحداً فقال
الدكتور الأعظمي:
"وقال تعالى:

"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"

قال فيها أبي بن كعب رضي الله عنه:

"إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد انسب لنا ربك فأنزل

الله تعالى "قل هو الله أحد - إلى - كفواً أحد"

وقال فيها جابر رضي الله عنه:
"إن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال انسب لنا ربك فأنزل الله عز وجل "قل هو الله أحد" إلى آخرها"
وقال عكرمة:

"لما قالت اليهود نحن نعبد عزيز ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم "قل هو الله أحد" فيبدو منها أنها جواب للمشركين كما هي جواب لأهل الكتاب في المدينة. وإذا تفكرنا في هذه السورة وجدنا أنها تحتوي على الرد على عقيدة المشركين كما أنها تفنّد عقيدة اليهود النصارى والمجوس فهي سورة للتوحيد أو الإخلاص في أمر ألوهية الله". (المصدر نفسه، ص ٣٧٤-٣٧٥)

والفصل الثامن يناقش قضية الاستفادة من الصحف السماوية الأخرى التي تشابه القرآن في معانيها كما يضادّها في بعض المواضع، أشار فيه الباحث أنه استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من الصحف السماوية الأخرى في تعيين معاني القرآن الكريم وتوضيح آياته ومحتوياته على قدر ما أخبر الله تعالى رسوله عما فيها ولكن التابعين غالوا فيها كثيراً فحشوا تفاسير القرآن من خرافات أهل الكتاب ورواياتهم المضلّة، فاختار الباحث عشرة أمثلة وذكر فيها كيف ترشد الكتب السماوية الأخرى إلى صحيح معاني القرآن وتؤيد ما هو المراد من النظم، ونذكر هنا مثلاً واحداً فهو يقول.

"وقال تعالى:

"فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ"

اقرأ هذه الآية التي جاء فيها ذكر تدمير آل فرعون الذي كان يظن نفسه مالكا للكون ولكنه لما تم تدميره لم يبك عليه أحد، أي مات في مكان لم يكن فيه أحد أتباعه، فمات غير مبكي عليه، فبكاء السماء والأرض على أحد تعبير عن حزن كافة المخلوقات فيه لسبب كونه عزيزاً لديهم رحيماً عليهم.

استخدم هذا التعبير في التوراة فجاء فيها:

"صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً هارباً تكون في الأرض"

ومثل هذا التعبير متوفر في كافة اللغات حتى نقرأه في لغتنا الأردوية. ترجمها كافة المترجمين ترجمة صحيحة فننقل ترجمة بعضهم كمثال. يقول أربيري:

"... neither heaven nor earth wept for them..."

ويقول عبد الله يوسف علي:

"And neither heaven nor earth shed a tear over them..."

ويترجمها م. شاكر:

"... so the heaven and the earth did not weep for them..." (المصدر

نفسه، ص ٣٩٠-٣٩١)

والفصل التاسع حول المعتقدات والأفكار التي تلعب دوراً قيادياً في الفهم الخاطئ للقرآن، وتضليل القراء الساذجين، ذكر فيه الباحث ١٢ مثلاً كشف فيها القناع عن الدوافع الفكرية التي جرّت المترجم إلى اعناق الخطأ في ترجمة القرآن، نذكر مثلاً واحداً فهو يقول:

"خاتم النبيين: قال الله تعالى:

"مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"

هذه الآية الأربعون من سورة الأحزاب. إنها جاءت كردّاً على ما ثار عن النبي صلى الله عليه وسلم عند طلاق زيد زينب ثم زواج النبي منها، ولكن هذا من عادة القرآن أنه يعطي معلومات وحقائق جمة لدى الحديث عن التشريع أو الردّ على الشيء الذي ينقص العادات الجاهلية التي خرجت عن الحد السوي، فهذه الآية تعطي حقيقة مهمة وهي نهاية سلسلة الرسالة والنبوة على النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم وختمها به. والحقيقة التي ذكرها القرآن شيء لا ينكر، ولكن فهم منها جماعة ما لا يريد القرآن أن يقوله فتأولته هذه الجماعة بما يوافق هواها وهي جماعة القاديانيين وفكرتهم هي أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا خاتم

الرسول، فإن الأخير غير مذكور هنا حتى لم يذكره الله تعالى في باقي القرآن بصراحة، ولو أن الأحاديث تنطق عنها بوضوح، وكلامهم مخالف صراحة لما في القرآن والسنة وإجماع الأمة، ومن المعلوم أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول، وبالتالي فإن (خاتم النبيين) تعني خاتم الرسول، ولو قال (خاتم الرسول) لكان هناك مجال لأن يكون من بعده أنبياء، فكلام الله تعالى هو الفصل الذي لا تسري عليه مثل هذه التأويلات والأوهام. هذا أولاً.

أما ثانياً فلا أستدل على القضية بباقي القرآن ولا بالأحاديث وأقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم بل أبرهن على ذلك في ضوء الأساليب العربية الشهيرة في البلاغة، وهو حذف التقابل أي حذف الجانبين من المتقابلين لما دل واحد منهما على مقابلة الآخر. جاء البحث عن هذا الأسلوب في قسم الأساليب العربية والقرآنية فلا أعيده بل أطبق ذلك على هذه الجملة فانظر:

"ولكن (نبي الله) ورسول الله وخاتم النبيين (وخاتم الرسول)"

فحذف في الجزء الأول "نبي الله" ودلّ عليه بذكر "خاتم النبيين" كما حذف "خاتم الرسول" في الجزء الثاني ودلّ عليه بذكر "رسول الله" ولا بد لنا أن نذكر ما هو المقدّر في الآية كي تكون الجملة حسب أسلوب الإنجليزية أو أسلوبنا وذلك فإن العرب يفضلّ الحذف أو الإيجاز على الاسترسال والإطناب فعندهم "البلاغة الإيجاز".

ولننظر في ترجمتها عند هؤلاء.

فكلهم لم يفهموا الأسلوب وقصر الفهم هذا قد جرّهم إلى سوء الفهم عن نهاية سلسلة الرسول، فظنوا أن محمداً خاتم النبيين لا خاتم الرسول وهذا خطأ فاحش. لنقرأ ترجمة بعضهم كمثال. يترجم آربي::

"Muhammad is not the father of any one of your men, but the Messenger of God, and the Seal of the Prophets; God has knowledge of everything"

يذهب مذهبه إرونغ وبيكتال وعبد الله يوسف والسير ظفر الله وشير علي وعبد الماجد الدرايادي.

ويترجمها م. شاكِر:

“Muhammad is not the father of any of your men, but he is the Apostle of Allah and the last of the prophets; and Allah is cognizant of all things.”

والترجمة الأقرب من الأسلوب هي:

“Muhammad is not the father of any of your men, but he is the Messenger of Allah (and His Prophet) and the last of the prophets (and the messengers); and Allah has the knowledge of everything.”

نفسه، ص ٤٠٢-٤٠٣)

والفصل العاشر يدل على تعيين مفاهيم القرآن في ضوء الأصول السالفة والمباحث المذكورة. ذكر الباحث الأعظمي تسعة أمثلة، ونذكر فيما يلي مثالا واحداً فهو يقول:

“قال تعالى:

”تَحْنُ خَلْقَانَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَنَّا لَهُمْ تَبْدِيلًا“

هذه آية من سورة الإنسان وقد مضى حل كلماتها الصعبة فارجع البصر إليه ولا تنس "شددنا أسرهم" و"بدلنا أمثالهم" فإنهما يلعبان دوراً بارزاً في الوصول إلى مفهومها الصحيح، وقيل أن أبين ذلك أحب أن أذكر نظم السورة وموضوعها الرئيسي وهذا أيضاً يمدنا في حل معناها المراد.

ختمت السورة السابقة على خلق الإنسان ومدارج حياته وموته وإحيائه من جديد، وبذلك دلّ الله تعالى على أنه قادر على إحيائه ونفخ الروح في جسده مثلما جعله حياً من العدم فقال:

”أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِّنْ مَّنًى يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ“

وفي الموضوع نفسه بدأت السورة التي سأبحث عن آية منها، فقال تعالى:

"هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا"

فيبدو من هذا أن سورة الإنسان توأم سورة القيامة وموضوعهما واحد والفرق بينهما ليس إلا فرق تصريح الآيات والأساليب، ففي القيامة استدل بالنفس اللوامة على القيامة، وفي هذه السورة احتج بصلاحيته للسمع والبصر والتمييز بين الخير والشر، وهذا يوجب وجود يوم هو يوم القيامة، يعطى من فعل حسناً ثواب عمله، كما يجزى من فعل سيئاً بالعذاب لقاء عمله.

فتبدأ السورة بهذه المقدمة وتذكر كافة النتائج المأخوذة عنها حتى الآية الحادية والعشرين. ثم يتوجه الله بالخطاب إلى الرسول وأتباعه أمراً إياهم بالصبر وزاجراً من يحبّ العاجلة مضحياً بالأجلة وهي الآخرة، كما جاء فيه ذكر حقيقة الرسالة. ينتهي هذا الخطاب بالآية الثامنة والعشرين بذكر الله الذي خلق الإنسان وجعله قوياً وهو القادر على إعادته يوم البعث، فلم ألا يمتروا بقوتهم كما عليهم ألا يشكوا في إحيائهم من جديد.

وفي النهاية يهدّد الأعداء بعذاب الآخرة نتيجة الإنكار بهذه التذكرة. فثبت من هذه العاجلة أن الآية تتعلق بيوم البعث لا بتبديل قوم بآخرين كما ظنه كثير من المترجمين.

ولننظر الآن في ترجمتهم وننتقدها.

فدراسة ترجمتهم تقول إن كافة المترجمين أوصلوها إلى تبديل قوم بآخرين فظنوا أن "الأمثال" هنا "أمثالهم في الدنيا" والواقع أنها لا تحمل هنا هذا المفهوم وإن جاء مثل هذا المفهوم في آيات من القرآن، ولكن تلك الآيات جاءت في سياقها الذي يفيد ذلك، لكن سياق هذه الآية مختلف، فأنقل طرفاً من ترجمتهم على سبيل المثال وأتركها بدون النقد وأكلها إلى بصرك وعقلك فدونك ما بدا لك.

فقال إرونغ:

أما الباب الخامس فهو الختام، ذكر فيه الدكتور الأعظمي ملخص بحثه ثم ذكر قائمة المراجع التي يبلغ عددها ١٣٦ كتاباً. وهذا خير دليل على ما قام به الباحث من المحاولة الجادة والجهد المتواصل لإعداد هذا البحث العلمي المتزن،

وهذه هي نظرة سريعة خاطفة على محتويات هذا البحث وهي تدل على أنّ الباحث عالج الموضوع بشمولية جميع جوانبه. نرحّب الباحث الفاضل على قطع هذه المسافة العلمية المباركة بعد مواصلة جهود أعوام وسنين، ونتمنى وننتظر منه أنْ يتكرر في مواصلة مثل هذه البحوث والدراسات البارعة. جزاه الله خير الجزاء، وأكرمه وغفر له وسدّد خطاه ووفق له مواصلة مسيرته العلمية والتأليفية المباركة وتسعد الأمة بكتاباته وبحوثه العلمية.

“We have created them and strengthened their make; and when We will, We can replace them by others like them”

ويقول عبد الماجد الدرايبادي:

“It is We Who created them, and We have made them firm of make and whenever We will, We can replace them with others like them”.

وقال عبد الله يوسف علي في هامش ترجمته لهذه الآية:

“If, in spite of Allah’s loving care, any particular men or group of men, misuse their powers or willfully disobey Allah’s Law, Allah will set them aside, and substitute others in their place, with like powers. Allah’s gifts are free, but let no one think that he can monopolise them or misuse them without being called to answer for the trust. And the man of Allah must not be discouraged by the whole world being at some moment completely against him. Allah can in a moment make a complete change. Either the same men that fought against him will be his zealous adherents or another generation will spring up, which will carry the flag of Righteousness to victory. Allah’s Will and Plan work in their own good time.” (المصدر نفسه، ٤٣٥-٤٣٧)

ندوة علمية دولية حول سيرة النبي في الآداب العالمية

إعداد: د. أورك زيب الأعظمي

عقدت كلية شبلي الوطنية بمحافظة أعظم كره، ولاية أوترا براديش (الهند) ندوة علمية دولية حول سيرة النبي في الآداب العالمية، استمرت لمدة يومين في اليوم السادس والعشرين والسابع والعشرين من فبراير، ٢٠١١م. حضر هذه الندوة عدد هائل من العلماء والباحثين كما حضرها عدد غير قليل من أهالي المحافظة وطلبة الكلية. ألقى فيها أكثر من سبعين باحثاً مقالاتهم ومحاضراتهم باللغات الأردوية والإنجليزية والعربية والفارسية وقاموا بالبحث عن وجود الأعمال العلمية عن سيرة النبي في اللغات الأردوية والإنجليزية والبشتو والبنجابية والبنغالية والسنسكريتية والعربية والفارسية والفرنسية والهندية وغيرها من اللغات والآداب فكانت الندوة ناجحة للغاية من كل جانب علمياً كان أو عملياً. قدم منسق الندوة بجانب المسؤولين عن الكلية خدمات تفقد نظيرها في مثل هذه الندوات العلمية. جزاهم الله خير الجزاء.

ابتدأت الندوة بتلاوة آيات من القرآن متعلقة ببعثة النبي الأمي صلى الله عليه وسلم ففي الجلسة الأولى التي ترأسها البروفيسور أحمد عبد القادر الشاذلي، جامعة المنوفية بمصر قال الدكتور محمد إبراهيم البطشان، الملحق الثقافي بالسفارة السعودية في الهند في خطبته إن العلامة شبلي النعماني أقام مستوى علمياً يجدر بأن يتبعه العلماء والباحثون في غزارته العلمية وجماله الأسلوبية وهذا من سوء حظنا أننا لا نلتفت إليه حق الالتفات" وقال الدكتور البطشان كذلك إن تاريخنا قد تم تدوينه بأقلام الموظفين الحكوميين الذين لا ينصفون عادة ولكن ما جمعه المحدثون

وما قدّمه الفقهاء يليق بأنّ ننثي عليه، وقد استفاد العلامة شبلي النعماني في سيرته الفارقة النظر من تلك المصادر الصحيحة" ومضى الدكتور البطشان قائلاً: ينبغي لنا أن نستفيد من منهج شبلي العلمي لقبول تحدّيات العصر بالنسبة لسيرة النبي الأُمّي" وفي كلمة الترحيب قدّم عميد كلية شبلي الوطنية جزيل الشكر إلى الضيوف من العلماء والباحثين ومن جاء للاستماع إلى تلك الخطب والمحاضرات كما قال في تلك الخطبة إنّ كلية شبلي الوطنية قد تأسست على عاطفة الحب الخالص للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهذا من حسن حظها أنها تقوم بعقد ندوة علمية دولية حول سيرته الطيبة" ورحّب البروفيسور عبد الخالق رشيد من أفغانستان بديار شبلي وقال إنّ أهاليها قاموا بعقد ندوة علمية فريدة من نوعها" وأضاف قائلاً: إنّ سيرة النبي قد ترجمت إلى لغة البشتو قبل اليوم بستين سنة، وقد صدرت لهذه الترجمة أكثر من أربع وعشرين طبعة ومما اعتزّ به أني تخرّجت من الجامعة (جامعة كابل) التي وضع حجر أساسها أحد طلاب شبلي البارعين وهو العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى" وكذا قال البروفيسور عبد الخالق إنّ سيرة النبي باللغة الأردوية ليست أقلّ من أية معجزة ولن يمكن لأي تقليد علمي أن يتمّ بدون العلامة شبلي النعماني" وقال الدكتور شباب الدين رئيس قسم اللغة الأردوية بالكلية إنّ العلامة شبلي كمنارة نور للأمانة العلمية تبدّد ظلمة الخيانة العلمية فقد أفحم العلامة المستشرقين في اعتراضاتهم على النبي الأُمّي كما أقام مستوى علمياً للبحث والتحقيق يجدر بأنّ يُتبع" وقال إنّ كلية شبلي ودار المصنفين ظلال لنوره" وأخيراً قال البروفيسور أحمد عبد القادر الشاذلي في خطبته الرئاسية إنّ النزاع القائم بين الشرق والغرب لا ينحلّ إلا بسيرة النبي الكريم، وإنّ هذه الندوة تجدد في أذهاننا ذكرى ماضي الزاهر، الدين النهائي القيم، الدين الذي قضى على التميّز بين العربي والأعجمي، الأبيض والأسود" وأضاف البروفيسور الشاذلي قائلاً: علينا أن نعّم سيرة النبي بأقوالنا وأعمالنا". وبذلك انتهت الجلسة الافتتاحية.

والجلسة الثانية ابتدأت بعد صلاة الظهر وانتهت حتى صلاة العصر. ترأس هذه الجلسة كلّ من البروفيسور عبد المجيد والدكتور يسري أحمد عبد الله زيدان والبروفيسور عبد الحق وقام الدكتور أبو سفيان الإصلاحي بإدارتها، وفيما يلي أسماء من قام بإلقاء محاضراتهم وعناوينها:

الدكتور رحمت علي من موريشاش	السيرة النبوية في اللغة الفرنسية (بالأردوية)
البروفيسور أحمد عبد القادر الشاذلي من مصر	الإسراء والمعراج في الآداب الإسلامية (بالعربية)
الشيخ نسيم ظهير الإصلاحي من الهند	مؤلفات عن شمائل النبي (بالأردوية)
الشيخ محمد عمر أسلم الإصلاحي من الهند	مراحل دعوة النبي في ضوء القرآن الكريم (بالعربية)
الدكتورة هويدا عزت محمد من مصر	غزوات الرسول في الشعر العربي الحديث (بالعربية)
الدكتور محمد نازش احتشام الأعظمي من الهند	الرسول في كتابات علماء الهندوس (بالأردوية)
الدكتور عامر رياض من الهند	النبي محمد في الفلسفة الهندية (بالإنجليزية)
الدكتور محمود حسين الإله ابادي	سيرة خاتم النبي للميرزا بشير أحمد القادياني، دراسة تحليلية (بالأردوية)

وغيرها من المحاضرات التي لم تُلَقَّ لضيق الوقت.

والجلسة الثالثة ابتدأت بعد صلاة المغرب وانتهت حتى صلاة العشاء، ترأسها كل من الدكتورة هويدا عزت محمد والبروفيسور علي محمد نقوي والدكتورة إيس إيم باسو، وقام بإدارتها الدكتور علاؤ الدين خان، أستاذ مشارك للتاريخ في كلية شبلي ذاتها. ومن قام بإلقاء محاضراته من العلماء والباحثين هم كما يلي بذكر عناوين محاضراتهم:

القاضي السيد مشتاق علي الندوي من الهند	مساهمة دولة بهوفال في السيرة النبوية، دراسة تحليلية (بالأردوية)
السيد يحيى نشيط من الهند	ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في اللغة المراثية (بالأردوية)
الدكتور يسري أحمد عبد الله زيدان من مصر	ابن أبي ديبع ومنهجه في كتابة السيرة (بالعربية)
الدكتور أبو سفيان الإصلاحي الجامعي من الهند	القرآن الكريم مصدراً أولاً لسيرة النبي (بالأردوية)
الشيخ كليم صفات الإصلاحي من	ما جاء في فتوح البلدان من أحداث

الهند	ووقائع السيرة النبوية (بالأردوية)
الدكتور عمير منظر من الهند	ذكر الرسول في التراث الأردوي المنظوم (بالأردوية)
الدكتور محمود عبد الرب من الهند	عبقريّة محمد في ضوء تعقب المستشرقين والتصدي للشبهات (بالعربية)

وغيرها من المحاضرات التي لم تُلَقَّ لضيق الوقت.

والجلسة الرابعة ابتدأت في صباح اليوم السابع والعشرين وترأسها كلّ من البروفيسور اشتياق أحمد والبروفيسور صلاح الدين العمري والبروفيسور غلام رسول ملك، وقام الدكتور عمير منظر بإدارة الجلسة. وممن ألقى محاضراته هم كما يلي:

الدكتور أورنك زيب الأعظمي من الهند	على هامش السيرة، دراسة تحليلية نقدية (بالعربية)
الدكتور محمد أرشد الأعظمي من الهند	المؤلفات العربية لعلماء الهند في السيرة النبوية، دراسة تاريخية (بالعربية)
الدكتورة إيس إيم باسو من الهند	السيرة النبوية في الأدب البنغالي (بالإنجليزية)
الدكتور إقبال القرشي من الهند	لمحات من سيرة النبي في الأدب العالمي (بالإنجليزية)
الدكتور محيي الدين آزاد من الهند	عبقريّة محمد، دراسة تعريفية (بالأردوية)
الدكتور إياز أحمد من الهند	مبادرات النبي؛ المواخاة وميثاق المدينة كما يراها مفكرو العالم (بالأردوية)
الدكتور منظر حسين من الهند	الدكتور حميد الله، حياته وآثاره عن سيرة النبي (بالأردوية)
الدكتور علاؤ الدين خان من الهند	محمد في مكة، دراسة نقدية (بالأردوية)

وغيرها من المحاضرات التي لم تُلَقَّ لضيق الوقت.

والجلسة الخامسة ابتدأت بعد فترة الشاي فوراً وهي ترأسها كل من البروفيسور عبد الخالق رشيد والبروفيسور جلال السعيد الحفناوي والدكتور رحمت علي وقام بإدارتها الدكتور نسيم أحمد، ومن ألقى محاضراته كما يلي:

الشيخ عنايت الله سبحانه من الهند	مصادر السيرة في ضوء القرآن الكريم (بالأردوية)
الدكتور محمود حسن من الهند	مدى تفرد الشيخ أحمد رضا خان في كتابة السيرة النبوية (بالأردوية)
الشيخ نور الحسن راشد من الهند	خدمات علماء كاندله في سيرة النبي وسير الصحابة (بالأردوية)
البروفيسور شريف حسين القاسمي من الهند	رسول الله وملحمة غالب "ابر گهر بار" (بالأردوية)
السيد أبو أسامة الإصلاحي من الهند	حيات نبي أمي، دراسة تعريفية (بالأردوية)

وغيرها من المحاضرات التي لم تلق لأجل قلة الوقت.

والجلسة السادسة ابتدأت بعد صلاة الظهر وترأسها كل من القاضي السيد مشتاق علي الندوي والبروفيسور أحمد القرشي والدكتور أبو سفيان الإصلاحي وقام بإدارتها الشيخ عمير الصديق الندوي، وفيما يلي من ألقى محاضراته في هذه الجلسة:

البروفيسور غلام رسول ملك من الهند	سيرة النبي في الأدب الإنجليزي، دراسة نقدية (بالإنجليزية)
البروفيسور عبد المجيد من الهند	سيرة النبي في اللغة الكشميرية (بالأردوية)
البروفيسور عبد الخالق رشيد من أفغانستان	شمائل النبي في الأدب البشتوي (بالفارسية)
السيد علي حسن رضا من باكستان	مبادئ كتابة السيرة النبوية (بالإنجليزية)
الشيخ رفاقت حسين القاسمي من الهند	السيرة النبوية في اللغة الأردوية، دراسة تحليلية موجزة (بالأردوية)

الشيخ نعيم الدين الإصلاحي من الهند	وجهة جديدة عن غزوة بدر في ضوء ما كتبه العلامة شبلي والعلامة المودودي والإمام الفراهي (بالأردوية)
الدكتور عطاء الرحمن من الهند	السيرة النبوية في الشعر العماني الحديث (بالعربية)

والجلسة الختامية ابتدأت بعد صلاة العصر وانتهت قبل صلاة المغرب،
ترأسها كل من الميرزا محفوظ الرحمن بيغ والدكتور افتخار أحمد والشيخ عنايت
الله سبحاني وأدارها الدكتور فخر الإسلام الأعظمي فأعرب فيها عن شكره لمن قام
بإدارتها وتدعيمها كل من الضيوف العرب والبروفيسور عبد الحالق رشيد
والبروفيسور غلام رسول ملك والدكتورة إيس إيم باسو والبروفيسور اشتياق أحمد
ظلي والدكتور أبو سفيان الإصلاحي وغيرهم من العلماء والباحثين وانتهت الجلسة
بكلمة الشكر التي قدّمها الدكتور شباب الدين المنسق الندوة.

مؤتمر وطني حول سيرة النبي ع وتعاليمه

إعداد: مهدي حسن القاسمي

عقدت كلية شهيد الله الواقعة في مدينة بيراتشامبا (Berachampa) البرغنة الشمالية الرابعة والعشرون، بنغال الغربية، مؤتمراً وطنياً حول سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه يوم الاثنين الثالث عشر من فبراير سنة ٢٠١٢م وكان اليوم يوماً تاريخياً للكلية وهيئتها التعليمية وعيداً مباركاً حيث تجلّت السماء بنور ربها وضجّت بذكر الرسول العربي عليه الصلاة والسلام.

والجدير بالذكر أنّ الحفلة عقدت تحت إشراف قسم اللغة العربية وآدابها وبذل فيه لاجهود كافة أساتذة الكلية لاسيما مهدي حسن القاسمي، أستاذ اللغة العربية ورئيس قسمها بالكلية.

قد ساهم في هذا المؤتمر كلّ من الطلاب والطالبات والمعلمون والمعلمات وحضرها المسلمون والهندوس على السواء، وهذا دليل باهر على نجاح المؤتمر، وقد اعترف المحاضرون أنهم لم يشهدوا مثل هذا الجمع الغافر في أي مؤتمر أو ندوة علمية.

ابتدئ المؤتمر بتلاوة آيات من القرآن الكريم تحت رئاسة الكلية السيد مفيد الإسلام حفظه الله ومن سعد بتلاوة الآيات الكريمة هو المقرئ عبيد الرحمن القاسمي ثم أنشد قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم الأخ نسيم الدين أحد طلاب قسم اللغة العربية في السنة الثانية ثم ألقى خطبة وجيزة ترحيبية رئيس المؤتمر وأنشدت قصيدة عربية نصرين سلطانة طالبة السنة الأولى في قسم اللغة العربية.

ثم ألقى محاضرة بليغة حول سيرة النبي وتعاليمه الدكتور عبد الرحيم عميد كلية بنغوبهاشي كولكاتا السابق وبعده قدّمت أنشودة عربية أسماء سلطنة طالبة السنة الأولى في قسم اللغة العربية، وبعدها ألقى محاضرة بليغة وفريدة الشيخ القاضي منظور العالم، حفظه الله، أستاذ الجامعة العالية، كولكاتا ورئيس قسمها للغة العربية والدراسات الإسلامية. فصلّ الشيخ فيما بين محاضراته أخلاق النبي وعالمية رسالته وكشف القناع عن كونه رحمة للعالمين وعن صلاح الدين القيم لمواجهة تحديات العصر الحديث. وعندما أنهى محاضراته قدّمت قصيدة بنغلية قرضها الشاعر المعروف نظير الإسلام ومن أنشد هذه القصيدة هو ساغرمتي تشكرافارتي، مسئول المكتبة للكلية وبعد ذلك قام السيد الدكتور أورنك زيب الأعظمي حفظه الله أستاذ مساعد قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، جامعة فيسفا-باراتي، شانتينيكيتان، بنغال الغربية، وألقى محاضرة جامعة بليغة كشف فيها القناع عن الأخطاء والزلات التي ارتكبتها المحاضرون والمساهمون لدى حديثهم والتي يرتكبها الناس عامة. وبجانب ذلك أثبت الدكتور المحترم كيف تصلح التعاليم النبوية للعصر الحديث ونقطع دابر كل قضية راهنة. كانت محاضراته ممتعة للغاية فقد أثنى عليها الجميع. وبعد ذلك ألقى خطبة موجزة السيدة شودشنا فيفاس كما أعرب عن خواطرهم الأساتذة الآخرون للكلية بمن فيهم الدكتور روستم كومار دلال والدكتور شوربه والأستاذ عقيق الإسلام.

وفي النهاية وجّه الشكر إلى الجميع مهدي حسن القاسمي، وانتهى المؤتمر بالدعاء الذي قام به الشيخ القاضي منظور العالم حفظه الله أستاذ الجامعة العالية، كولكاتا ورئيس قسمها للغة العربية والدراسات الإسلامية.

ندوة علمية دولية حول لغة الحديث وفلسفته ودراساته

إعداد: د. تاج الدين المناني

لأهمية السنة النبوية الشريفة في التشريع الإسلامي، ودورها الحضاري والمعرفي في مواجهة التحديات، وانطلاقاً من موقع المسؤولية، وتماشياً مع ما يشهده قسم اللغة العربية بجامعة كيرالا (الهند) من تطور مستمر وتفعيل للقدرات والخبرات، وحرصاً منها على التواصل الفكري المنتج، وتبادل الآراء والمقترحات من خلال المشاركة في المؤتمرات العلمية المختصة، فقد رأى، هذا العام، عقد ندوة علمية دولية خاصة بالسنة النبوية بعنوان "لغة الحديث وفلسفته ودراساته" في ١٤-١٨/ فبراير ٢٠١٢م للندارس وتحفيز الجهود المخلصة لتقييم ما تشهده الساحة من دراسات ونشاطات متخصصة حول الموضوع، وللتواصل إلى المنهج الأمثل في التعامل مع السنة النبوية الشريفة على جميع المستويات كما عقد القسم ندوة علمية دولية حول القرآن الكريم بعنوان "لغة القرآن وتفسيره وعلومه" في ٢٩-٣٠/ إبريل و١/ مايو ٢٠١٠م وتفضل فيها عدد ملموس من العلماء الكبار من مختلف أنحاء العالم.

وسعيًا لتوسع المشاركة في هذا العمل قامت اللجنة التحضيرية بمراسلة معظم الجامعات العربية والإسلامية والعديد من المؤسسات العلمية ذات الصلة، من أجل دعوة السادة أصحاب الاختصاص للمشاركة في الكتابة في محاور المؤتمر المقترحة، فاستجاب عدد غير قليل، وشارك فيها العلماء والأساتذة والدكاترة والباحثون في الحديث النبوي من الجامعات والمعاهد الإسلامية والكلية العربية من داخل الهند وخارجها من ٢١ بلداً أكثر من ١٥٠ مشاركاً. ومنهم ٨٢ قدموا

مقالاتهم البحثية والعلمية فيها. حيث جاءت مشاركاتهم موزعة على سبعة موضوعات رئيسية وهي:

١. لغة الحديث النبوي
 ٢. المظاهر الأسلوبية والسردية والسميائية للحديث النبوي
 ٣. كتب تفسير وتأويل الحديث النبوي
 ٤. ترجمة الحديث النبوي إلى لغات العالم وضمنها اللغة الهندية
 ٥. مناهج الحديث المختلفة
 ٦. تفاسير الحديث وعصورها
 ٧. الفلسفة والمعرفة التي تقدمها الحديث
 ٨. إعداد التقارير وصحة الحديث
 ٩. إصدارات الحديث عبر الإنترنت
 ١٠. حادثة ٩/١١، وانتشار القرآن والحديث في الغرب وبقية العالم بعدها
 ١١. التفاسير المعاصرة والحديث للحديث
 ١٢. محاولات التشوية والإضافات - والحديث الموضوعي
 ١٣. العلاقات بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية
 ١٤. مرجع الكون/ المحيطات/ السماء/ المواسم/ الجحيم
 ١٥. وغيرها من المتعلقات الخاصة بالحديث النبوي
- ومن نتائج هذه الندوة العلمية أنها فتحت أبواباً جديدة للبحث والمناقشة في طول الهند وعرضها في مختلف مجالات الأحاديث النبوية إذ أنها كانت كنزاً مخفياً لدى العلماء الكرام فقط. وألقى السيد محمد رابع الحسني الندوي خطبة افتتاحية جذابة. وأورد فيها قول السيد رشيد رضا منشئ مجلة "المنار" المذكور في مقدمة "مفتاح كنوز السنة" إذ قال: "لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة". وقد عرف علماء الهند بشغفهم بالعلوم الدينية وانتهت إليهم رئاسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشرح متونه ومجاميعه، وسلمت زعامتهم في هذا الموضوع في العهد الأخير.

وفي أثناء المؤتمر اعترف العلماء العرب بمساهمة الهند في نشر التراث العربي والإسلامي حتى إن بعضهم قال "وبدأ فجر الإسلام يطلع على الهند وبدأت أشعته تغمر هذه البلاد الرحبة الفسيحة، ولم يكن ذلك في وقت متأخر عن صدر الإسلام، وإنما كان في عهد الخلافة الراشدة الذي بدأ فيه الإسلام يزحف شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وبدأت موجاته تجتاز الحدود والسدود معلنة في الدنيا كلمة الله ومبشرة بدينه. ولم تكن شبه جزيرة الهند منقطعة عن جزيرة العرب منزل الوحي ومشرق النور، فقد كان ثمة تجارة بين العرب والهند منذ أقدم العصور. فقد كان تجار العرب يرتادون شواطئ الهند الغربية ويمرّون بها إلى جزيرة سرنديب حتى يصلوا إلى شواطئ الهند الشرقية، ومن هناك كانوا يبحرون إلى الصين، وبقيت هذه الصلات التجارية قائمة حتى جاء الإسلام فدخل الهند في العهد المبكر مع التجار المسلمين العرب".

وافتح هذه الندوة المباركة كبير وزراء كيرالا أومان شاندي وشارك فيها العديد من أعضاء البرلمان الهندي ووزراء الوزارة المركزية والولائية. وهكذا كانت هناك جلستان خاصتان للنساء اللاتي يعملن في مختلف المجالات، إحداهما كانت أكاديمية بينما كانت الأخرى اجتماعية. وكذلك هناك جلسات لعامة الناس ليفهموا دراسات الحديث النبوي الشريف. وكانت هناك جلسة خاصة لغير المسلمين ليلقوا خطباتهم حول موضوع "الرسول الذي عرفته". ومن المشاركين من خارج الهند:

١. أ. د. إبراهيم الرئيس، المملكة العربية السعودية
٢. أ. د. أحمد عبد القادر الشاذلي، جامعة المنوفية، مصر
٣. أ. د. أحمد فكير، جامعة ابن زهر، السودان
٤. أ. د. المكي أفلانية، جامعة برونيا، بروناي
٥. أ. د. أنبياء يلديريم، جامعة الجمهورية التركية
٦. أ. د. جلال الدين، جامعة سيريلانكا
٧. أ. د. عبد الماجد نديم، الجامعة الباكستانية
٨. أ. د. الرزاق بن عمر، المعهد العالي للعلوم الإنسانية، تونس
٩. أ. محمد عبد الغني علوان النبھاري، الجامعة الإسلامية، اليمن

١٠. د. أحمد بن القاسم جعفري، الجامعة الإفريقية، أدرار، الجزائر
 ١١. د. أحمد محمود قعدان، أكاديمية القاسمي، فلسطين
 ١٢. د. تهناني الصفدي، جامعة الأمير سلطان، كلية البنات
 ١٣. د. جميل بني عطا، جامعة الزرقاء، الأردن
 ١٤. د. خديجة زبار الحمداني، جامعة بغداد
 ١٥. د. رزاق الطيار، جامعة الكوفة، العراق
 ١٦. د. رقية بنت محمد المحارب، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، الرياض، السعودية
 ١٧. د. سعد الدين منصور محمد، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا
 ١٨. د. عادل فتحي رياض، جامعة الإمارات العربية المتحدة
 ١٩. د. فراس محمد إبراهيم، الجامعة الإسلامية، بغداد، العراق، المقيم بالأردن
 ٢٠. د. كبرى روشنفكر، جامعة تربيت مدرس إيران
 ٢١. د. مجدي عز الدين حسن سعد، جامعة النيلين، السودان
 ٢٢. د. محمد إحسان الله ميان، الجامعة الإسلامية، بنغلاديش
 ٢٣. د. محمد الأمين خلادي، جامعة أدرار، الجزائر
 ٢٤. د. محمد عبد الله العبيدي، جامعة قطر
 ٢٥. د. مسعود أجيبولا عبد الرحيم، كلية التربية، إوان، نيجيريا
 ٢٦. السيد حسن يوسف شهاب الدين، مدرس مادة الفيزياء، سوريا
- ومما زاد الندوة فخراً وعزاً أن قد حضرها عديد من علماء الهند الماهرين في مجالات القرآن والحديث واللغة والفلسفة، عقدت لجنة التوصيات جلستها بتاريخ ٢٥/ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ الموافق لـ ١٨/ فبراير ٢٠١٢م في الساعة الخامسة مساءً، بمكتب قسم اللغة العربية، جامعة كيرالا، ترافندرام، الهند، وذلك بتدبير التوصيات والمقترحات المتعلقة بحوصلة الأشغال العلمية التي تمت في جلسات الندوة العلمية الدولية حول الحديث النبوي الشريف "لغة الحديث وفلسفته ودراساته"، المنعقدة طوال أيام التتادي المبارك من تاريخ ٢١/ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ الموافق

لـ١٤/ فبراير ٢٠١٢م إلى غاية ٢٥/ ربيع الأول ١٤٣٣هـ الموافق لـ١٨/ فبراير ٢٠١٢م.

أكد هؤلاء الأعضاء وغيرهم من المشاركين على النجاح الكامل في كل المستويات، مع تسجيل رضا كل الأطراف، راجين من الله تعالى أن يسدّد خطى الجميع في المستقبل إن شاء الله، وقد بلغت الندوة قمة الفاعلية والتنظيم المحكم، وللإشارة قد بلغ عدد البحوث المرسلّة ٢٥٠ بحث، وقد قدّمت ٨٢ بحثاً من ١٦ دولة وأكثر من ١٦ جامعة، وبمشاركة ٢٥ أستاذاً من الهند؛ ثم سطر المعنيون التوصيات والاقتراحات التالية، كي تجسد فعلياً عما قريب بإذنه تعالى:

١. مواصلة هذه السبيل الناجحة في إثراء الموضوعات للندوات المستقبلية إن شاء الله
٢. ضرورة إشراك الطلبة بإعطائهم قسطاً من الوقت لأسئلتهم
٣. توزيع الملخصات والبحوث على كل الأساتذة المشاركين عبر البريد الإلكتروني؛ قبل انعقاد الندوة بأسبوعين أو أكثر، قصد اغتنام وقت أكثر في إلقاء الورقات
٤. يجب تأخير المناقشات بعد تمام ورقات كل جلسة، مع توزيع وقت منصف بين الطلبة والأساتذة
٥. نشر المقالات في الموقع الإلكتروني للندوة بجامعة كيرالا
٦. طبع أعمال الندوة
٧. التقطن لطلب الإعانات قبل البدء في الإعلان عن الندوة بزمان يكفي للمتطوعين والمتبرعين
٨. تقليص وقت إلقاء الورقة وتحديد عدد المناقشين بعد كل جلسة، بإتقان من رئيس الجلسة والمنظمين، حتى تتاح فرصة للراحة والصلاة أكثر بين الفترة الصباحية والمسائية
٩. ضرورة إعادة النظر في طرائق تعلم اللغة العربية وتعليمها للطلبة في الديار الهندية من خلال المناهج التربوية المعنية
١٠. جميل أن تصطبح بعض الورقات المكتوبة بغير العربية بالترجمة الموجزة على الأقل، والأمر نفسه في المجلة المكتوبة

١١. التفكير في بناء موضوعات للحديث الشريف وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم والسنة المطهرة باللغة العربية وغيرها
١٢. التزام الباحث بتدقيق مداخلته قبل الطبع
١٣. مراعاة العدالة في توزيع الأوقات لعرض الورقات بين الأساتيد والجلسات
١٤. محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم لا مثيل له في نظام التدريس والتعليم علمياً؛ من أجل ذلك يرجى إعادة النظر الحضيف في إلقاء كل أستاذة مشاركة بحثها علناً في الجلسات العلمية
١٥. إنشاء موقع إلكتروني للبيان النبوي ودراساته، وتأسيس مجلات دولية محكمة في الشأن نفسه مع ضرورة توجيه الطلبة لدراسة الخطاب النبوي
١٦. العناية بتعميق الطرح والتطبيق والاستنتاج مع التركيز والدقة؛ بعيداً عن المقدمات والاستطرادات والوصف والتظير والتكرار
١٧. من مسئولية الجامعات دراسة لغة الحديث والأساليب النبوية في التربية
١٨. إنشاء مراكز ومعاهد مستقلة لدراسة السنة ونشرها وأما المقترحات فهي:
١. اقتراح ندوة للخلفاء الراشدين؛ أو ترتيب مجموعة ندوات حسب الخلفاء لكل ندوة، ثم التفكير في ندوات متسلسلة تخص الصحابة الأجلاء والتابعين الكبار والأئمة الأعلام ثم علماء الأمة
٢. جميل هذا التقليد؛ وهو إشراك بعض المسؤولين والأساتيد والرسميين في إلقاء كلماتهم الطيبة، وكذا توزيع الهدايا عليهم وعلى المشاركين؛ لكن شريطة ضبط زمن كاف، ولا يكون ذلك التقليد على حساب الأوقات في الجلسات
٣. التفكير في مجمع علمي عالمي للسنة المطهرة وبيانها، مع تخصيص جائزة للعلماء المهتمين وتكريمهم، وبالأخص المهتمين بالترجمة من العربية إلى لغات العالم

٤. ضرورة إنشاء مراكز بحثية نفسية تعنى بالبحث في الطرق النبوية لبناء الشخصية بناء كاملاً

٥. ضرورة نشر السنة عبر القنوات الإعلامية

٦. كان يمكن أن يشارك في المؤتمر إحدى الجامعات الخليجية ليكون التمويل أقوى

وقد قام المشاركون بجولة إلى البحيرة بكولم حيث تناولوا أطعمة لذيذة محلية هندية في القارب الذي ركبوه. وبالنسبة لجمهور المشاركين فقد كانت هذه السياحة أول تجربة في حياتهم وعلى هذا فقد أعلن بعض الأدباء المشاركين خلال الجولة بأنهم سيكتبون عنها. وبالجملّة فرأى أهل كيرالا ندوة علمية دولية حقيقية أول مرة في ولايتهم.

أنشطة علمية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي خلال الفترة من ٢٠-٢٢ / مارس ٢٠١٢م

إعداد: أ. د. محمد نعمان خان

١

نظم قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي بالتعاون مع المجلس القومي لترويج اللغة الأردوية جلسة، وهي خامسة من نوعها، ضمن سلسلة "محاضرة البروفيسور فارق "التذكارية" في حرم الجامعة يوم ٢٠/٣/٢٠١٢م. عقدت هذه الجلسة برئاسة البروفيسور سيد إحسان الرحمن. وحضرها البروفيسور ذكر الرحمن، مدير المركز الثقافي الهندي العربي بالجامعة المليية الإسلامية. بدأت هذه المحاضرة بكلمات ترحيب ألقاها البروفيسور محمد نعمان خان، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي وقال إنه يرحب بجميع الأساتذة والباحثين والطلاب الذين جاءوا من أنحاء المدينة النائية وتحملوا مشاق السفر ترحيباً حاراً. ثم قام بتعريف تسمية هذه المحاضرة وألقى الضوء على مساهمة البروفيسور خورشيد أحمد فارق في مجال العلم والأدب. ووجه الدعوة إلى البروفيسور ذكر الرحمن لإلقاء محاضرتة حول "مساهمة دلهي في مجال اللغة العربية وآدابها بعد استقلال الهند". استعرض ذكر الرحمن في محاضرتة، مساهمة الجامعات والكليات والمدارس والمؤسسات والمجالس والهيئات والمعاهد والصحف والمجلات والشخصيات المتواجدة في دلهي بعد استقلال الهند وذكر تلك المساهمات بالتفصيل. ثم قدم البروفيسور إحسان الرحمن كلمته الرئيسية وأشاد بكلمة ذكر الرحمن. وانتهت هذه الجلسة بكلمة الشكر والتقدير التي ألقاها الدكتور نعيم الحسن الأثري، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي.

نظم قسم اللغة العربية بجامعة دلهي ندوة علمية لمدة يوم في ٢٠/٣/٢٠١٢م تحت عنوان "البروفيسور محمد سليمان أشرف: حياته ومساهماته" بالتعاون مع المجلس القومي لترويج اللغة الأردوية في قاعة كلية الفنون بالجامعة. وحضر هذه الندوة أساتذة وباحثو وطلاب الجامعة الملوية الإسلامية وجامعة جواهر لال نهرو وجامعة همدرود وجامعة علي كراه الإسلامية وجامعة مولانا آزاد الأردوية الوطنية وجامعة بابا غلام شاه بادشاه وجامعة اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية وغيرها. استهلّت الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة بكلمات ترحيب للبروفيسور محمد نعمان خان، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي. وألقى البروفيسور محمد نعمان الضوء على حياة محمد سليمان أشرف الراحل وعلاقته معه منذ التحاقه بالقسم. وترأس هذه الجلسة البروفيسور زبير أحمد الفاروقي الذي يعتبر مترجماً قديراً للعربية-الإنجليزية. كما حضر البروفيسور شريف الحسن القاسمي هذه الندوة وألقى محاضراته فيها. وبدأ البروفيسور محاضراته بتوجيه الشكر والتقدير لرئيس القسم على إعطائه فرصة لإلقاء الضوء على شخصية البروفيسور سليمان أشرف. وأضاف قائلاً: إن البروفيسور سليمان أشرف كان عالماً بارعاً وباحثاً ممتازاً وأستاذاً جليلاً وقدوة لكلّ منا نحن الأساتذة والطلاب". وقال البروفيسور القاسمي إنه بذل جهوداً جبارة لتطوير اللغة العربية وتنقيف الطلاب والباحثين. كما ألقى البروفيسور الضوء على مختلف جوانب حياته العلمية والأدبية والثقافية. ثم ألقى البروفيسور زبير أحمد الفاروقي كلمته الرئاسية حول حياة الأستاذ الراحل البروفيسور سليمان أشرف. وانتهت الجلسة الافتتاحية لكلمة الشكر للدكتور نعيم الحسن الأثري، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي.

وبدأت الجلسة الأولى للندوة بعد صلاة الظهر. وقدم البروفيسور محمد صلاح الدين العمري، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كراه الإسلامية، مقاله حول "البروفيسور سليمان أشرف: حياته ومآثره". وألقى الضوء على حياة البروفيسور سليمان أشرف التعليمية والعلمية بالتفصيل. وأضاف قائلاً إن البروفيسور سليمان أشرف كان له إلمام تام باللغتين العربية والإنكليزية. وفي محاضراته قال البروفيسور صلاح الدين إن البروفيسور سليمان أشرف حضر

مختلف الندوات القومية والدولية وقدم مقالات قيمة حول اللغة العربية وآدابها والثقافة الهندية. ثم قدم البروفيسور زبير أحمد الفاروقي مقاله حول "البروفيسور سليمان أشرف في ضوء كتابه" دراسة مقارنة بين الشعر العربي الحديث والشعر الإنجليزي". وقال الفاروقي إن هذا الكتاب كتاب رائع ويجب على كل منا أن يطالعه بدقة. واقتبس في مقالته من كتاب سليمان أشرف. وقال إن سليمان أشرف انتقد المازني بقوله: وتعبير "أغان خرساء" عند المازني غير عربي واستفاد المازني فيه من تعبير شيلي "Mute Music" ومن أجل هذا التعبير الجديد اضطر المازني أن يستعمل تراكيب فيها شيء من التعقيد ولا طائل تحتها".

ثم قدم البروفيسور غلام يحيى أنجم، أستاذ قسم الدراسات الإسلامية، بجامعة همدرود مقالاً تحت عنوان "البروفيسور سليمان أشرف: بعض الذكريات" وقال في مقاله إن علاقته مع الأستاذ الراحل كانت وطيدة وقديمة. وبذل الأستاذ الراحل جهوده لتثقيف الطلاب وترويج اللغة العربية وآدابها. وذكر أيضاً في مقاله بعض كتب ومؤلفات ومقالات البروفيسور سليمان أشرف مثل "حالي والأدب العربي" و"المجتمع الإسلامي في ظل العدالة". وأضاف قائلاً إن البروفيسور سليمان أشرف قضى حياته الطويلة في مطالعة الكتب وتعليم الطلاب.

ثم قدم السيد محمد جسيم الدين، الباحث في قسم اللغة العربية بجامعة دلهي مقاله تحت عنوان "البروفيسور محمد سليمان أشرف كما شهدناه". وقال إن الأستاذ سليمان أشرف كان يتفقه في العلوم الشرعية ويتعمق في التعاليم الإسلامية ويطلع على الأوضاع الراهنة وكان له القدم السابقة في الخطابة والقدح المعلن في الكتابة، وكان أسلوبه في كليهما طبيعياً..... أكبر مزاياه وأعظمها في نظر كل من رآه هو تواضعه ونكران ذاته وقناعته وبُعده عن المال والمادة....

ثم قدم الدكتور شمس كمال أنجم، الأستاذ المساعد في جامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري مقالاً تحت عنوان "سليمان أشرف عالماً بارعاً في الهند" وقال فيه إن سليمان أشرف كان عالماً كبيراً وخبيراً للغة العربية وآدابها وباحثاً بارزاً. كما ألقى الضوء على حياته العلمية والثقافية. وقال الدكتور أنجم إن فيه أسوة حسنة لكل منا.

وقدّم الدكتور مسعود عالم الفلاحي أيضاً مقالاً بعنوان "من أشرف من عرفتهم: البروفيسور محمد سليمان أشرف" وألقى الضوء على حياته العلمية والثقافية وأضاف قائلاً إن الأستاذ لم يقبل قط هدية من تلامذته. وذكر تجربته الذاتية معه بأنه قدّم هدية إليه فرفضها قائلاً إن جئت بأي شيء بعد هذا اليوم فلن أسمحك بدخول بيتي".

كما قدّم السيد فخر عالم، الباحث في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كراه الإسلامية، مقالته بعنوان "سليمان أشرف في ضوء خدماته العلمية والأدبية". وقال إن شخصية سليمان أشرف جامعة للعلوم والآداب وإنه كان منفرداً في شخصيته وكان وثيق الصلة بقسم اللغة العربية وآدابها، ومهتماً بشؤونها التعليمية ومشرفاً على المناهج والمقررات الدراسية.

في الأخير، قدّم الدكتور عبد الكريم مقاله تحت عنوان "الأستاذ محمد سليمان أشرف مدرساً وباحثاً ومشرفاً". ألقى الضوء الوافي على حياته العلمية والتعليمية. وذكر بعض تجاربه الذاتية معه، التي عاشها خلال بحثه. وانتهت هذه الندوة بكلمات الشكر والتقدير التي ألقاها الدكتور نعيم الحسن الأثري لجميع الأساتذة والطلاب الذين حضروا الندوة.

٣

كما نظم قسم اللغة العربية بجامعة دلهي ندوة علمية حول "أدب السيرة في الهند" بالتعاون مع الملحقة الثقافية السعودية بنيو دلهي لمدة يومين اعتباراً من ٢١-٢٢/٣/٢٠١٢م. وبدأت الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة برئاسة البروفيسور محسن العثماني، رئيس قسم اللغة العربية سابقاً بجامعة اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية في حيدرآباد. استهلّت أعمال هذه الجلسة بكلمات ترحيب ألقاها البروفيسور محمد نعمان خان، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي. وقد ألقى الضوء على أهداف هذه الندوة وأهميتها في عصرنا المعاصر. ثم قدّم البروفيسور أختر الواسع، رئيس قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة المليّة الإسلامية في نيودلهي مقاله الرئاسي حول "السيرة النبوية في الهند عبر العصور". وألقى الضوء على تاريخ كتابة السيرة النبوية ومساهمة شبه القارة الهندية في هذا المجال حيث استوعب

الموضوع بأسلوبه الخاص، وخلال حديثه عن المؤلفات الخاصة بفن السيرة في الهند عبر العصور قال: "إن المحاولات التصويرية بعد احتلال الإنجليز الهند وحقدهم ضد الإسلام والمسلمين قد أدت إلى اهتمام السيرة النبوية وظهرت بعد ذلك مؤلفات قيمة في الردّ على محاولات الإنجليز العدائية في مختلف المجالات.

وأضاف قائلاً: إن كتاب "رحمة للعالمين" للقاضي المنصورفوري كان تأليفاً هاماً؛ ولكن "سيرة النبي" (السيرة النبوية) للعلامة شبلي النعماني وتلميذه العلامة السيد سليمان الندوي قد وجّه فن السيرة إلى إتجاه جديد بسبب جهدهما وعملهما في التحقيق، لم يقتصر هذان المؤلفان الجليلان على ذكر الوقائع والأحداث للسيرة في كتابهما؛ بل اهتمّا فيه بإسناد السيرة من جهة ومن جهة أخرى قاما بالتركيز على تلك الرسالة المهمة النافعة التي تحملها السيرة النبوية، وراجع العالمان كتباً ومؤلفات عديدة في السيرة واستدلا بها على الجوانب المهمة من الدعوة والاجتماع والأسرة، كما قام البروفيسور أختر الواسع بذكر جهود الدكتور محمد حميد الله والبروفيسر يسين مظهر الصديقي في تأليف السيرة، وأشار إلى الكلام المنظوم الذي قدّمه الشعراء والأدباء الهندوس في مدح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال: إن كتابة السيرة فن لا يستطيع أحد إحصاء الجهود المبذولة فيه، وهذا من سعادة وحسن حظّ تلك الرجال بأن الله تعالى وفقهم ليساهموا في كتابة السيرة ويقدموا جهودهم فيها.

ثم ألقى البروفيسور محسن العثماني كلمته الرئيسية وأشاد بجهود قسم اللغة العربية في عقد هذه الندوة الهامة.

وبدأت الجلسة الأولى للندوة تحت رئاسة البروفيسور محمد حسان خان من جامعة بركة الله، بهوبال. وقدّم البروفيسور محسن العثماني في هذه الجلسة مقالاً بعنوان (دراسة "مقالات سيرت" للدكتور محمد آصف قدوائي). وألقى الضوء في مقاله على حياة الدكتور محمد آصف قدوائي ومساهماته العلمية والأدبية. وأكد البروفيسور محسن العثماني قائلاً: إن كتاب "مقالات سيرت" كتاب أردوي رائع وينبغي لكلّ منا أن يطالعه ويحفظه في بيته. ثم قدّم البروفيسور محمد أيوب الندوي، أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها، بالجامعة المليّة الإسلامية مقاله بعنوان "السيرة النبوية كما تتجلى في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي". ألقى

البروفيسور أيوب الضوء على حياة الشيخ أبي الحسن علي الندوي وجهوده في السيرة النبوية. وقال إن كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي هذه تمتاز بسهولة العرض، وتتابع الأحداث التاريخية واتصالها، ومراعاة الزمن في سردها، كما أنه يقدّم وصفاً مفصلاً للأحداث بحكم تخصصه. وإن أسلوب الشيخ إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه أسلوب أديب بارع فهم ما قرأ، فأحسن النقل والتعبير، والأديب هو الذي يحسن كتابة ما يتخيل، وتلخيص ما يقرأ وترجمة ما يرى، ووصف ما يسمع.

ثم قدّم الدكتور باسل خلف حمود الزبيدي من العراق مقاله بعنوان "دور علماء الهند في الحديث النبوي". وقال "إنه لا يخفى على كل ذي لبّ جهود علماء الهند المسلمين في ميدان التأليف والتصنيف في الحديث النبوي الشريف، وإن الهنود كانوا يرعون بعلم وفنون متنوعة ومختلفة قبل مجيء الإسلام، إلا أن براعتهم واهتمامهم بالمصدر الثاني في الشريعة الإسلامية كان أكثر جودة ودقة. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على مدى حبّهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في نفوسهم الطيبة، ومدى حرصهم على حفظ ونشر سنته وتعاليمه الصحيحة الخالية من البدع والخرافات والأهواء التي تسربت وتسللت إلى عقول الناس وأفكارهم وعقائدهم.

وقدّم الدكتور إشارت ملّا مقاله حول ("سيرة الرسول" للشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي :دراسة تحليلية). وقال إن الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي ألقى الضوء على جميع النواحي من حياة النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب بديع ومنهج سهل خلال تأليف هذا الكتاب. ومثل هذا الكتاب لا يكاد يوجد وقد ملأ الفراغ وأوفى مقتضيات عصره.

كما قدّم الدكتور عبد المجيد الندوي من جامعة غوهاتي مقاله بعنوان (الشيخ أبو الحسن علي الندوي وكتابه "نبي رحمت"). وقال فيه إن الشيخ أبا الحسن الندوي من أعلام الشرق الإسلامي الذين جعلهم الله في عصرنا من ورثة الأنبياء في مهمتهم، والعمل برسالتهم، وترك وراءه رصيذاً كبيراً من الكتب والمقالات والدراسات الفكرية بما فيها هذا الكتاب "نبي رحمت". وقال الدكتور مجيد إن الشيخ

علي الندوي اعتمد في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السيرة النبوية لابن هشام مستنداً في ذلك إلى بعض المراجع القديمة وكتب الصحاح.

كما قدّمت الأستاذة عائشة كمال، رئيسة قسم اللغة العربية، بجامعة بركة الله، بوفال مقالها بعنوان (تحليل الجزء الخامس لـ"قصص النبيين للأطفال" لأبي الحسن علي الندوي). ألقت الأستاذة عائشة الضوء على حياة الشيخ أبي الحسن الندوي بالإيجاز ثم ذكر مزايا "قصص النبيين للأطفال" قائلة: هكذا جاء الكتاب وسطاً بين الكتب التي ألقت في السيرة للكبار النابغين، والكتب التي ألقت للصغار الناهضين، فهو جدير بأن يدرسه الصغار والمراهقون في مدارسهم، ويقرأ الكبار المتوسطون في مكتباتهم ومنازلهم، ويقدم كذلك إلى غير المسلمين.

في الأخير، قدّم السيد آفتاب أحمد من المركز الثقافي الهندي العربي، بالجامعة المليّة الإسلامية، نيو دلهي مقالته بعنوان "المؤلفات الهندية عن السيرة النبوية باللغتين الأردوية والعربية: عرض ببلوغرافي". وقال إن السيرة النبوية تحتل مكاناً بارزاً في الهند. ألف الهنود كتباً قيمة في هذا الموضوع وما زالوا يساهمون في هذا المجال. ومن الصعب إحصاء هذه الكتب في هذا المقال الوجيز. وفي نهاية هذه الجلسة، قدّم الدكتور نعيم الحسن الأثري كلمات الشكر إلى جميع الضيوف والحضور.

وعقدت الجلسة الثانية للندوة برئاسة البروفيسور إقبال حسين، رئيس قسم اللغة العربية، جامعة اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد. وقدّم البروفيسور حسان خان مقالته بعنوان ("خطبات مدراس": دراسة تحليلية). وقال إن السيد سليمان الندوي مع سعة علمه، ومشاركته في أهم المعارف البشرية، ومعرفته بلغات متعددة، ومنها العربية، يعتبر من أئمة البلاغة باللغة الأردوية. ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب قد عالج عدداً من القضايا والمواقف التي قلما يتطرق إليها الكتاب والمؤلفون في كتاباتهم؛ وخاصة في مجال دحض المزاعم الباطلة وكشف الستار عن واقع الدعاوي التي لا تستند إلى الحقيقة في شيء. واستعرض كلّ ما نشرته أقلام الغرب من السموم لتوجيه الطعن ضد الإسلام والنيل من نبيّه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم قدّم البروفيسور إقبال حسين مقاله حول "درّ يتيم" (لماهر القادري). ألقى البروفيسور إقبال الضوء على حياة ماهر القادري وأسباب كتابة هذا الكتاب القيم ومساهمته في السيرة النبوية بشكل الرواية.

وقدّم الدكتور فوزان أحمد مقاله حول (دراسة كتاب "رحمة للعالمين" للعلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري). وتناول جميع أجزاء هذا الكتاب القيم وعلق قائلا: كلّ من قرأ الكتاب أبدى إعجابه به وانسجامة معه على اختلاف ميوله وعواطفه. والذي اتفق عليه الجميع هو تأثيره البالغ في نفوس القراء وتملكه لمشاعرهم وعواطفهم، حتى صرح غير واحد منهم بأنّ القلب يخشع والعين تدمع بقراءة هذا السّفر اللطيف.

كما قدّم الدكتور محمد أشرف علي في جامعة كولكاتا مقاله حول ("أصحّ السير" للأستاذ عبد الرؤوف القادري: دراسة مقارنة). وألقى محمد أشرف الضوء على حياة عبد الرؤوف القادري وأهمية هذا الكتاب في السيرة النبوية. وعلق قائلا: إن هذا الكتاب يتضمن الموادّ الصالحة النافعة ويرشد الباحث إلى الصواب ويدلّ على المرام وجدير بأن يطالعه كلّ دارس وباحث.

ثم قدّم الدكتور محمد نجم الحق، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية، جامعة غوربنغا، بنغال الغربية مقالا حول "تطور أدب السيرة النبوية في اللغة البنغالية". وأكد الدكتور نجم الحق قائلا: لم تهتم اللغة البنغالية كثيرا بالسيرة النبوية بسبب الاعتماد على الكتب العربية والفارسية والأردوية، ولكن اليوم نشاهد أن الكتاب يترجمون العلوم الإسلامية لاسيما السيرة النبوية إلى اللغة البنغالية ويؤلفون الكتب حول موضوعاتها المختلفة.

في نهاية هذه الجلسة، قدّم الدكتور معراج أحمد، الأستاذ المساعد في جامعة "عالية" بكولكاتا مقاله بعنوان "أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلم". وقال الدكتور معراج إنه لا يمكن أن يغضّ الطرف عن أهمية دراسة السيرة النبوية في حياة المسلمين وضرورة العناية بها في حياتهم. وإن السيرة النبوية تعطي كلّ جيل ما يفيد في مسيرة الحياة وهي صالحة لكل زمان ومكان وستبقى السيرة النبوية المنارة التي يهتدي بها المسلمون في كلّ عصر ومصر. وانتهت هذه الجلسة بكلمات الشكر التي ألقاها الدكتور نعيم الحسن الأثري.

وبدأت الجلسة الثالثة للندوة في يوم ٢٢/٣/٢٠١٢م في قاعة الندوات بقسم اللغة العربية في حرم الجامعة برئاسة البروفيسور محمد إقبال حسين. وقدم فيها الدكتور عبيد الرحمن طيب، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية، جامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري بولاية جامو وكشمير مقاله بعنوان "ردّ الهنود على كتابات المستشرقين حول السيرة النبوية". وقال إن الهنود لم يتخلفوا في كتابة السيرة النبوية والردّ على مزاعم واتهامات المستشرقين حول السيرة النبوية وضربوا مثالا للردّ العلمي على المعاندين والأعداء، وخيرُ مثال على ذلك "خطبات أحمدية" للسير سيد أحمد خان و"سيرة النبي" للعلامة شبلي النعماني و"محمد" للسيد رفيق زكريا.

ثم قدّم الدكتور عبد الماجد قاضي، الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليّة الإسلامية، نيو دلهي مقالا بعنوان "قراءة في أرمغانية إقبال". وقال إن هذه القصيدة المطولة تتضمن مئتين وثمانية وثلاثين بيتاً، وهي مصبوبة في قالب الرباعي الذي يتكون من بيتين موزعين على أربعة أسطر. إن هذه القصيدة تعبير عن وقفة إجلال وأدب وخشوع في محراب التاريخ، يقفها شاعر الشرق الفيلسوف محمد إقبال وهو يلقي نظرات شاحبة على أفاق الكون تمهيداً لتأهبه الروحي ولنقلته من العالم المادي إلى عالم الغيب. وهي قصيدة متعددة الوسائط من نوع آخر وبديعي.

وقدّم الدكتور مجيب الرحمن، الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي مقاله بعنوان (قراءة في كتاب "الرحيق المختوم" للعلامة صفي الرحمن المباركفوري). وعلق مجيب الرحمن إن كتاب "الرحيق المختوم" يمثل حلقة ذهبية في سلسلة الكتب والمؤلفات القيمة التي ألفها العلماء الهنود في موضوع السيرة النبوية، وإنه لن يسع لأيّ مؤرخ يتصدى لعرض إسهامات العلماء الهنود في مجال السيرة النبوية إلا أن يضع هذا الكتاب في طليعتها.

وقدّم الدكتور إيه شانيل مقاله حول "مساهمة كيرالا في السيرة النبوية". عرض فيه بالتفصيل مساهمة المنظمات الإسلامية والمعاهد والمؤسسات في ولاية

كيرالا في مجال السيرة النبوية. وعلق الدكتور إيه شانيل قائلاً: إن ولاية كيرالا لعبت دوراً بارزاً في تطوير وترويج السيرة النبوية بشكل نشري وشعري. وقدم البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي مقاله حول "جهود الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي في السيرة النبوية الشريفة". وعلق البروفيسور شفيق أحمد خان قائلاً: إن كتاب الشيخ محمد الرابع الحسني يتناول جوانب خلقية في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تبقى عادة مغلوياً عليها للتركيز على جوانب القيادة والغزوات، لأن الجوانب الإنسانية والخلقية وسلوك الرأفة والعفو والصفح والشعور الإنساني ومواقف الحلم والأناة والصبر أيضاً تحتاج إلى اهتمام الدارسين والعاملين في مجال العمل الإسلامي. وانتهت هذه الجلسة بكلمة الشكر والتقدير التي ألقاها الدكتور نعيم الحسن الأثري.

وعقدت الجلسة الرابعة والأخيرة برئاسة البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي. وقدم فيها الدكتور عبد المعز مقالاً بعنوان "هادي عالم: كتاب غير منقوط". علق عبد المعز في مقاله قائلاً: إن هذا أول كتاب استخدم فيه الكلمات غير المنقوطة. يحتوي الكتاب على ٤٠٨ صفحات. اقتبس الدكتور عبد المعز بعض الفقرات من هذا الكتاب البديع.

وقدم البروفيسور حبيب الله خان مقاله بعنوان (قراءة في كتاب "رسالت كـ سائـي مي") وهو ترجمة لكتاب "في ظلال الرسول صلى الله عليه وسلم" لمؤلفه الدكتور عبد الحليم عويس، من جمهورية مصر العربية. وقال إن هذا الكتاب يتسم بأسلوب علمي رصين، وخير مثال للترجمة الأمينة الدقيقة، لأن المترجم هو الشيخ مقتدى حسن الأزهرى رحمه الله وهو ليس مترجماً عادياً فحسب بل هو كاتب قدير ذو أسلوب بليغ، فهو عالم ديني متضلّع في العلوم العربية والإسلامية.

ثم قدم الدكتور قطب الدين، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جواهر لال نهرو مقاله بعنوان (أهمية كتاب "رحمت عالم" للعلامة سيد سليمان الندوي في السيرة النبوية للأطفال). وقال الدكتور قطب الدين إنه كتاب قيم ألف باللغة الأردوية. إن مؤلف هذا الكتاب ناقش جميع أحوال الرسول بالإيجاز في أسلوب رشيق وعبارة سهلة توافق سنّ الأطفال.

وقدّم الدكتور نسيم أختَر الندوي، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية مقالته بعنوان ("السيرة النبوية" لأبي الحسن علي الندوي: دراسة تحليلية). وقال الدكتور نسيم إن السيرة النبوية للشيخ الندوي يمكن أن يجد فيه العالم الحائر حلاً للمشكلات العويصة التي شغلت الفكر الإنساني في زماننا هذا، شريطة أن يدرس سيرة النبي دراسة موضوعية، بعيدة عن العصبية والتزمت، والكراهية للإسلام الناتجة عن العنصرية، أو سوء التفاهم.

وقدّم الدكتور شميم أحمد من كلية استيفان، جامعة دلهي مقالته بعنوان (كتابة السيرة النبوية في ضوء "الرحيق المختوم" للشيخ صفي الرحمن المباركفوري) كما قدّم محمد عبيد الله، محاضر ضيف في كلية ذاكر حسين، جامعة دلهي مقالته حول "السيرة النبوية والمستشرقون".

وبعد هذه الجلسة، قام البروفيسور محمد نعمان خان بتعريف "اتحاد أساتذة اللغة العربية لعموم الهند" ودعا الأساتذة إلى المساهمة فيها قائلا: "إن هذه اللجنة ستكون صدامهم وإنها ستكون بمثابة ذلك الرصيف الذي يجمع جميع أساتذة اللغة العربية وعلمائها وباحثيها ليقدموا اقتراحاتهم ومشاكلهم لحلها، ولتوسيع نطاق اللغة العربية على مختلف المستويات في الهند".

وفي النهاية قدّم الدكتور ولي اختر الندوي، أستاذ اللغة العربية في القسم، كلمات الشكر لكل من حضر الندوة، وساهم في فعاليتها. والجدير بالذكر أن الندوة قد شاركها كبار أساتذة اللغة العربية من مختلف الجامعات الهندية، كما شارك فيها الأساتذة والباحثون والمتقنون الأخر من أقسام اللغات الأردوية والفارسية وكذلك من كليات الجامعة مثل كلية ذاكر حسين وغيرها.

إهداء كيس الرزّ للعريس يفضي إلى الشرطي والبوليس

- محمد عمران الأعظمي

لست، أنا هذا العبد المتواضع، ممن استثناهم الله، فكلل لقد تعرّضت لعدد واحد من مآسي الزواج، وفي ذلك الزمان فقد كان رجل شهير يدعى ميرزا منور علي بيغ المحامي، وأصبح الآن تحت أمان من التراب - غفر الله له، وكان على علاقة طيبة مع ذوي زوجتي فأراد أن يسرّهم (لا أن يسرّني) بإهداء ماكينة صنع المعكرونة بمناسبة الزواج، وأما حبّي للمعكرونة فلم يك شيئاً مذكوراً، وكانت حياتي إذ ذاك أسيرة التنقل من بيت إلى آخر بين عشية وضحاها، وكلما انتقلت من بيت إلى آخر تحملت وحدي كل أعباء تلك الماكينة الحديدية الثقيلة ولو بغير النون، وحتى ما تتعلق ذاكرتي المتوقدة فلم نستعمل ولو لمرة تلك الماكينة، ولما انتقلت إلى بيتي الخاص، الكائن في سانتوش نجر واستعرضت أسبابي وأمتعتي لم أجد بينها تلك الماكينة فخررت على الأرض شاكراً لله على نعمه الباطنة، ومنذ ذاك الحين لقد عهدت إلى نفسي أنني إذا كان لا بدّ لي من الإهداء في مناسبة زواجية فلا شيء سوى ما ينفع المهدى إليه، فأهديت إلى بعض أصدقائي صندوقاً مملوءاً بالصوابين ذات الدرجة الممتازة فإن العريس والصابون متلازمان لا ينفصلان، كما أهديت لبعضهم طقم أواني الشاي، برفقة "بورن فيتا" ومسحوق الحليب إذ أن مثل هذه الوصفة تضمن إعادة الحيوية، وعلى منصة بعض العرساء فقد نزلت كيساً كبيراً من البصل نظراً إلى أن ما يوجد في البصل من المنافع فلا يوجد في شيء آخر، ولقد روى لي الراوي وعليه وزر كذبه "لو لم يخلق الله الخضراوات واقتصر على خلق البصل لكفانا وآوانا" ولا يكاد أحد يرفض الأهمية السياسية للبصل، ومرة أصبحت الحكومة المركزية على وشك الانهيار كنتيجة مباشرة للأزمة "البصلية"،

وأن البطل الرئيسي للمسلسل التلفزيوني إذ ذاك "العرض المخفق" إنما كان ذلك البصل، فقليل "البطل هو البصل".

وعلي سادي شباط من العام الراهن فقد تقررّ زواج تلميذ عزيز، بل أعزّ، من تلامذتي، فجاش صدري وهاج ماج بعاطفة خدمة العريس وبهدية نادرة، فاشتريت كيس رزّ يزن (٢٥) كلف ولففته بإزار ثمين غير مستخدم، وعلّبت عشر كلف من الشكر وعشر كلف من خمسة ضروب من العدس في كرتون زيت زهرة الشمس واستخدمت "دبّاباً" وبعد كأداء فقد فزت بحمل هذه الهدية "اللانادرة والمتوفرة في كل مكان" إلى منصة العريس، وبعد الإنصاف من الأكل والشرب فما برحت عن قصر الأفراح اللهم إذا رأيت بأمّ عيني أنّ هديتي لقد أركبوها في المستودع الخلفي من سيارة العريس المزخرفة.

ثم انقطع ارتباطنا عن تلك الهدية، وحسب الرواة الثقافات فإن السيارة تحرّكت وربضت على بوابة العريس الذي نزل بزوجه حيث نزل، وأنزل ذووه كل ما كان من الهدايا اللهم إلا أنهم "غضّوا أبصارهم" عن كيس الرز نظراً إلى وزنه الثقيل لعل فلان بن فلان يحمله، ونتج عن ذلك أن السائق الكريم لما أراد الخروج بقي الكيس ملقى في المستودع الخلفي، وفي غفوة نصف ليلية فإنه لم يفتش المستودع حق تفنيشه حيث بقي كيس الرز منفصلاً عن كل إخوته وأخواته وكأنه يشكو بئّه وحزنه إلى الله، انطلقت السيارة وأوقفتها الدورية بزاوية من تشار مينار، وبعد أن اطمأنت إلى عدم وجود مشاكل التلوث البيئي، استفتحت المستودع الخلفي ولحيرتهم وجدوا فيه شيئاً مستطيلاً ملفوفاً في إزار، ولم يبق من عقد "تعطيل" المدينة سوى ثلاثة أيام أو أربعة، وزاد الطين بلة أن السيارة لقد كانت عائدة من حارة مأهولة بالمسلمين في المدينة القديمة، فشمت الشرطة رائحة الارتياب وسألت السائق عن ذلك الشيء المستطيل في كل صرامة وشدة، فحرك رأسه بعدم الدراية، وبمساعدة الجوّال فقد استدعوا توجّاً صاحب تأجير السيارة، جاء مسرعاً فسألوه نفس السؤال فأجابهم نفس الجواب، وفي خلفية "التعطيل" المعقود على صعيد الولاية فقد تأكّدت الشرطة من وجود "مادة متفجرة" في ذلك الكيس، فطلبوا الكلاب التي هي أكثر شمّاماً من النباح كما حضرت فرقة إبطال مفعول القنابل، فأجرى صاحب السيارة سيارة عقله وذكائه وبين أن السيارة إنما كانت توجهت إلى قصر أفراح، والأكثر

إمكاناً أن "أخرقاً" (ولم يك مخطئاً في تحليله) يكون قد أهدى ذلك الكيس، فدارت عقارب ريبة الشرطة إلى من أهدى ذلك الكيس ومن قبل مثل هذه الهدية المشبوهة. قرّرت الشرطة استدعاء كل من المهدي والمهدي إليه، ونالت من بيت العريس رقم تليفوني، وفي الساعة الواحدة والنصف لما بدأ جرس التليفون يرنّ بصوت عال ورفعت السماعة خاطبني أحد من ضباط الشرطة فيشرته بتدوير "رقم خاطئ" فقصّ عليّ القصة، فجرّبت عليه الوصفة اللغوية رقم الواحدة وأتيت في إنجليزية فصحي بكل دليل على عدم احتواء الكيس على مادة غير عادية، وبيّنت له أن الكيس إنما يحتوي على نفس الرز الذي يصنع منه "الرز البخاري" في فندق نياجرا، فوجدته، بل سمعته، أكثر تأثراً بإنجليزيتي الرنانة، فسألني في بعض لين وتمهل: لماذا ربطتم الكيس بالإزار؟ قلت في كل أدب واستقامة بأن الكيس لا يمكن لقه بالأوراق المزهرة، وإهداء الرز في حالة مفتوحة ربما يأتي مضحكاً، وعلى كل حال فنجوت شعرة شعرة عن قطع المسافة إلى السيارة في ظلام الليل، ثم أخبروني أن الشرطة، بالرغم من كافة توضيحاتي، لقد أجرت كل الاختبارات الطبية على الكيس ولم يتشرّف الكيس بزيارة بيت العريس إلا بعد يومين، والحمد لله العلي القادر على أن الشرطة لم يستوثق مني بشأن الحصول على "ترخيص مسبق" من مخفر الشرطة المرتبط قبل تقديم مثل هذه الهدية، فإذا أردتم، أنتم الآخرين، إهداء شيء فلا بد من إجمالة التفكير لمائة مرة وواحدة ثم اتخاذ الخطوة إلى الأمام أو الوراء حتى لا تتعرض الهدية لتدخل من تدخلات الشرطة.

مأدبة الفئران

— رابيندرا نات طاغور

"هذا ليس من العدل" قالت الأولاد "ولن نتعلم على المدرّس الجديد".
والمدرّس السنسكريتي الجديد الذي جاء ليدرّسهم تسمّى بـ"كاليكومار
تاركلائنكار".

بلغت العطلة نهايتها وكان الطلاب يعودون إلى المدرسة بالقطار. وقد غيّر
ولّد شريّر اسم المدرّس فجعله مسجّعاً بـ"ضحية اليقطين الأسود". كان الطلاب
يعيدونه ويرفعون به صوتهم.

ركب القطار عجوزٌ حلّيم بمحطة "آدكولا". وكان معه فراش لفيف وقدران
أو ثلاث قدور من الطين مغطاة بالأقمشة وصندوق حديديّ للثياب وبعض الأثقال.
تقدّم ولّد مشاكس لقبه "بشكن" فنادى الرجل قائلاً: أيها الحلّيم دندل هيد! لا
فراغ هنا فأنح نحو عربة أخرى.

فقال العجوزُ الحلّيم: القطار كله مفعّم. وليس هناك مكان خال فإنني أجلس في
هذه الناحية ولا أزعجكم شيئاً ثم خلى المقعد وبسط فراشه على الأرض واستقرّ في
تلك الناحية.

وبعد هنيهة سأل الأولاد: أين تريدون أنتم؟ ولأي غرض ترحلون؟

فردّ عليه البشكن شديداً: لأداء الشعائر الأخيرة للدفن.

فسأله العجوز: لأيّ ميّت؟

فقال الولد: اليقطين الأسود. وبه جعل الأولاد يرفعون ذاك الهاتف.

توقف القطار بمحطة "آسانسول" فنزل العجوز لبرهة لأجل الاستحمام.

وعندما رجع نصّح له بشكن: يا سيّدي! من الأحسن أن تغادر هذه العربة.

"لمّ؟"

"لأنّ العربية مليئة بالفئران".
الفئران؟ لا تتصحوني فيها.
أنظر ماذا فعلت بأنيتك؟
فرأى العجوزُ الحليم فوجد أنّ كلا الإنائين قد تلاشت حلاويه.
"وأيضاً فرّت بما كان في حزمته تلك". وكان في الحزمة بعض ثمار الأنبيج
الناضج.

فتبسّم العجوزُ الحليم وقال: رحم الله فقراء الفئران! لعلها كانت جائعة.
فتقهقه الأولاد وقالوا: لو كانت أكثر منها لابتلعته كذلك.
فتأسف العجوزُ الحليم وقال: هذا خطأ ارتكبته أنا فلو فطنت لهذه الكثرة
الكاثرة من الفئران في الفطار لحملتُ معي أكثر من ذي قبل.
وعلى الرغم من هذه المزاحات كلها فلما وجد الأولاد أنّ الرجل لا يغضب
ركبوا اليأس وذلك لأنهم ظنوا أنّه سيفور غضبه فيسخرون منه.
توقف القطار لساعة بمحطة "باردمان" وكاد الأولاد أن يركبوا قطاراً آخر.
فقال لهم العجوزُ الحليم: لا أزعجكم شيئاً فسأجد مقعداً ما في عربة أخرى
في هذا القطار.

"أوه، لا. ستسافر معنا فإن بقي شيء في حزمته فنرقبه معاً ولا ندعه يضيع.
فردّ عليهم العجوز: عفواً، أيها الأولاد! اركبوا القطار وسأصل بكم بعد
دقيقة.

فركبوا القطار. وبعد برهة أتى بائع للحلاوي قرب نافذتهم يجرّ عربته
ويرافقه ذاك العجوز. وسلّم إلى كلّ منهم رزمة من الحلاوي وقال: لا تبقى الفئران
جائعة هذه المرة.

فرفع الأولاد صوتهم بالفرح وبدأوا يقفزون من مقاعدهم.
وتبعه بائع الأنبيج بسلة من الفواكه فغمزهم السرور.
ثم سألوا العجوز: أين تقصد أنت؟ ولم؟
"أبحث عن وظيفة" ردّ عليهم العجوز "وساستقرّ حيثما أجد وظيفة ملائمة".
فسألوه: ماذا شغلوك؟
فردّ عليهم: أنا مدرّس اللغة السنسكريتية.

فصفق الجميع وقالوا: فالأحسن أنْ توظّف في مدرستنا.
"لماذا توظّفني الإدارة؟
"تجبرهم على ذلك".
"ولن ندع "اليقطين الأسود" يؤدّبنا".
"تورّطوني في أمر عسير! ماذا يكون إذا لم يقبلني السكرتير؟
"عليه أنْ يوظّفكم وإلا فنهجر المدرسة".
"أحسنتم. أولادي! خذوني إلى مدرستكم".
وصل القطار إلى المحطة. وكان السكرتير نفسه ينتظر بالأستاذ. وعندما رآه
قال: مرحباً بكم يا سيدي "تاركلانكار"! غرفكم جاهزة. وانحنى رأسه ليلمس رجليه.
ترجمة من الإنجليزية: محمد أحمد بن عبدالله السنابلي

قصائد ومنظومات

- العلامة فيض الحسن السهارنفوري:

قال يحمد الله تعالى

أثني على ربّي على استحياء إذ كله مذكّ¹ كثير الماء

أثني وبتينني الفؤاد إلى الهوى فيشوب بالذمّ الخفيّ ثنائي

لا يقبل المدح المشوب لمتنا إلا على الإغماض والإعفاء

لا يستجاب دعاء قلب لآعب يلهو إلى اللذات والأهواء

أين الخلوص ولا أراني خالصاً من حبّ سلمى أو هوى الشعثاء²

يا ربّ إن لم تشفني من علتي فمن الطبيب ومن يُداوي دائي

يا ربّ إن أنقذتني من أسرها فالأرض أرضي والسماء سمائي

أنت المغيـثُ المُستعـاثُ ولا أرى من مُصرخ في شدةٍ ورخاء

أنت المعينُ المُستعانُ وما أرى من يعتني بالنصر في الإرداء³

من لم يصل إلا إليك يَكُنْ له عيشٌ رخيّ في سنّ⁴ وسنّاء⁵

¹ "مذكّ" بكسر الهمزة وسكونها يعني "اللبن الممزوج بالماء" والمراد به حمد غير خالص.

² الشعثاء مؤنث الأشعث أي مغبرّ الرأس مثلبدّ الضعر أو منتشرة لقلّة تعهده بالدهن والاستحداد

³ أردى يردي إرداءً: أهلكه، وكبر في السنّ.

⁴ السنّى والسنّا: الحرير

⁵ السناء: الضياء والرفعة

أنت الخبيرُ بشقوتي وسعادتي	فعلبك تكلانزي ومنك رجائي
لو كنتُ أعلم ما مضى فيما مضى	ما كنتُ زير ^١ حرائر وإماء ^٢
كثر الذنوبُ وقلّ ما ثمّحى به	من توبةٍ وتضرّع وبكاء
من لي بمغفرتي ليغفر لي ومن	يُحفي عليّ ومن يُجيبُ دعائي
دون النبيّ محمّدٍ وهو الذي	نرجوه في الضرّاء والسراء
يُؤوي وينصر من يلوذ به إذا	عيّ الفتى بالنصّر والإيواء
أثني عليه على خلوص خالص	ومن الرجال مُسمّع ^٣ ومُراء
أرجو وأمل أن تدوم مودتي	حيّاً وميتاً وهو خير رجائي
يا كاشف الكرب الشديد وغافر	الإثم الكبير ودافع الأرزاء
لا تُخزني يوم الحساب فإنّ ما	أخشاه فيه شماتة الأعداء

- الإمام عبد الحميد الفراهي:

قال يستعِذ الله تعالى

أعوذ بالله العظيم الأفضال	الغافر الذنب الشديد الأنكال ^٤
من همزات النفس ذات الإيغال	ونفثات كلّ باغ مختال
وسطوات كلّ طاغ مختال	وفتنة الجبن وبلبال ^٥ البال
وفتنة الحرص وطول الآمال	وفتنة الأهمل ومال ميّال

^١ زير جمعه أزيار: الذي يحبّ محادثة النساء لغير شرّ.

^٢ هذا في هامش الأصل ولكن تمّ شطبه

^٣ المسمّع من سمّعه إذا شهّره وأذاعه

^٤ تكل جمعه أنكال: القيد الشديد

^٥ شدة الهمّ

وفتنة الدنيا كرقاق الآل¹ وفتنة العلم وزيع الأقوال

وفتنة الجهل وسوء الأعمال وفتنة الشيطان رأس الضلال

وفتنة الغاوي المسيح الدجال وكل طاغوت إمام الجهال
بحرمة محمد والآل

- الشيخ محمد ناظم الندوي:

نفحة من نفحات الحرم المكي

بسطتُ يدي راجياً منك غفرانا وجنة فردوس لديك ورضوانا

وتبت إليك من جميع مآثمي فرحماك رُحماك وعفواً وتحنانا

حداني الحنين سائفاً نحو بيتك الـ عتيق الذي قد شيد² صدقاً وإيماناً

فطفت به شوطاً وشوطاً وثالثاً وأربعة أشواط وقد تمّ حسابنا

ذكرتك خالياً ففاضت مدامعي ولدت دموع العين تسكب تهتاناً³

وعهدي بعيني لا تجود بعبرة فأئى لها نبع تبجس⁴ فيضانا

لعلّ دموع العين تغسل حوبتي فنقبل توبتي وتنقي أدراننا

كأن قلوب المؤمنين، وقد هوت⁵ إلى البيت، طير⁶ أمت⁷ الماء حوماناً⁸

¹ رقاق الآل: تلالأ السراب

² شيد: رُفع

³ هُتِنَ الدمع يهتن هتونا وتهتاناً: قطر

⁴ من تبجس الماء: انفجر وتفجر

⁵ من أمّ يام: قصده

المساهمون في هذا العدد

١. الإمام عبد الحميد الفراهي (م ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ) كان من تلامذة العلامة فيض الحسن السهارنفوري ومن النوابغ الهنود. خلف مؤلفات عديدة قيمة منها "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"إمعان في أقسام القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"أساليب القرآن". كان من شعراء اللغات الثلاث؛ الأردوية والعربية والفارسية. يتصف شعره العربي بسلاسة البيان وروعته وعذوبته وبتنوعه احتواءً بالنسبة لشعراء الهنود العربية الآخرين
٢. البروفيسور فيضان الله الفاروقي، بروفيسور اللغة العربية وآدابها، مركز الدراسات العربية والإفريقية، مدرسة الدراسات اللغوية، والأدبية، والثقافية، جامعة جواهر لعل نهرو، دلهي الجديدة
٣. البروفيسور محمد نعمان خان، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دلهي، الهند
٤. الدكتور أشرف أحمد محمد محمد عماشة مدرّس، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دمياط الجديدة، جامعة الأزهر، مصر
٥. الدكتور أورنك زيب الأعظمي، أستاذ مساعد، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، بهاشا-بافانا، فيسفا-باراتي، شانتي نيكيتان، بنغال الغربية، الهند
٦. الدكتور صالح البلوشي، متخصص من عمان في الأسماء والصفات
٧. الدكتور ظفر الإسلام خان، رئيس تحرير مجلة "Milli Gazette" النصف شهرية، أبو الفضل اينكليف، جامعة ناغار، دلهي الجديدة، الهند

¹ من حام يحوم وحوّمانا: دار به وكذا عطش

٨. الدكتور محمد أسجد القاسمي الندوي، عميد قسم الحديث النبوي ومدير الجامعة العربية الإمدادية، مراداباد، الهند
٩. الدكتور محمد تاج الدين المناني، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كيرالا، الهند
١٠. الدكتورة عفاف السيد عبد المجيد العلي، وحدة التراث والدراسات الاستراتيجية، المركز الثقافي الآسيوي
١١. رابيندرانات طاغور، أديب هندي معروف فاز بجائزة النوبيل.
١٢. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي من علماء الهند والباكستان المشهورين. تلمذ للإمام عبد الحميد الفراهي وعمل كمدير تحرير مساعد لجريدة "مدينة" كما عمل في مجلتي "غنجة" (Ghunchah: النورة) و"ستش" (Sach: الصدق) لمدة سنتين وكذا درّس في مدرسة الإصلاح. ساهم الشيخ في تأسيس الدائرة الحميدية وأصدر مجلة "الإصلاح" الشهرية. وعندما نادى العلامة المودودي بجماعته لحقه في ١٩٥٨م مرتحلاً إلى الباكستان ثم تركه في ١٩٥٩م وأصدر مجلة شهرية باسم "ميثاق" تركها بعد مدة وأصدر مجلة شهرية أخرى باسم "تدبر" قائماً بتأسيس "إداره تدبر قرآن" (معهد التدبر في القرآن) الذي أصبح فيما بعد "إداره تدبر قرآن وحديث" في ١٩٨٠م. من أهم مؤلفاته "تفسير تدبر قرآن" و"حقيقة توحيد وشرك" و"حقيقة نماز" (حقيقة الصلاة) و"تزكية نفس" (تزكية النفس) و"إسلامي رياست" (تصور الدولة الإسلامية). كان عالماً كبيراً أنفق كافة أوقاته في التحرير والخطابة
١٣. الشيخ بدر جمال الإصلاحي، أستاذ الأدب العربي، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، ولاية أوتارا براديش، الهند
١٤. الشيخ محمد عمران الأعظمي، مصحح دائرة المعارف، حيدرآباد ومن شعراء عصرنا للعربية والأردوية، أنفق خمسين عاماً في تصحيح وتحقيق الكتب والرسائل. له أكثر من خمسين كتاباً ورسالة. من مآثره البارزة في هذا المجال "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" و"غريب القرآن" و"الجليل والأنيس". له ديوان شعر عربي مخطوط يدلّ على براعته في هذا المجال. يشمل شعره المدائح والمراثي والمنظومات بمختلف المناسبات

١٥. الشيخ محمد ناظم الندوي (م يونيو ٢٠٠٠م) من علماء الهند وأدبائها المشهورين، له مؤلفات بالأردوية بجانب ترجمات عربية لبعض الكتب الأردوية بما فيها "الرسالة المحمدية" و"النظام الاقتصادي للإسلام" و"حاضر مسلمي الهند وغابرههم". ديوان شعره ومقالاته يسمّى "باقة الأزهار"
١٦. العلامة فيض الحسن السهارنفوري (م ١٣٠٤هـ) نابغة هندية له مساهمات عديدة منها "رياض الفيض" و"الفيضي شرح ديوان الحماسة" و"فيض القاموس" و"تعليقات الجلالين" و"نسيم فيض". كان من شعراء اللغات الثلاث؛ العربية والفارسية والأردوية
١٧. محمد أحمد بن عبدالله السنابلي، في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند
١٨. مهدي حسن القاسمي، مدرّس اللغة العربية ورئيس قسمها، كلية شهيد الله، مدينة بيراتشامبا (Berachampa)، البرغنة الشمالية الرابعة والعشرون، بنغال الغربية، الهند